دراسات أدبية

دون كيشوت
بين الوهم والحقيقة

الدكتور غبريال وهبة

دراسات
أدبية

الاخراج الفنى

سعد الدين الشريف

دون كيشوت
بين
الوهم والحقيقة

الدكتور غبريال وهبة

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

مقدمة

نسج ميجل دى ثربانتس سابدرا شخصية بطله « دون كيخوتى » بعبقرية فذة ، فاذا النسيج درة نادرة لها ، رغم غموضها الملغز ، مالأحجار الكريمة من سحر وبهجة ورواء ، تلملم اشـــعة كل ماهو عفيف ونبيل وخيوط كل معنى سام جليل ، وتجمعها فى بؤرة ، لتعكس لنا أروع رمز للانسانية تجمع عليه الاعجاب ، وهفت اليه القلوب ، لا فى حدود وطنه أسبانيا ذات الحضارة المجيدة فحسب ، بل أصبحت حدود الرواية حيث لا تتسع لها حدود ، عبر الممالك والامصار ، واضحت دوحة يتفيأ بها فى هجير هذا الزمان

وهكذا فاق قلم ثربانتس سيف أسبانيا ، اذ سرعان ما أصبح اسما دون كيخوتى وسانتشو بانثا مالوفين على كل لســـان فى جميع البلدان والمجتمعات المتحضرة ، وأصبح العالم كله يضـــحك معا حول « دون كيخوتى » ٠

لم تحظ شخصية روائية بالخلود مثلما حظيت شخصية دون كيخوتى التى أبدعها ميجل دى ثربانتس وهو روائى وكاتب مسرحى وشاعر ذائع الصيت ، ويعد كتابه هذا عن دون كيخوتى أعظم عمل فنى فى تاريخ الأدب الاسبانى ، ومن أحب وأوسع الكتب انتشارا فى العالم ، وهو يلى الانجيل فى كثرة اللغات التى ترجم اليها ٠

وشخصية دون كيخوتى تعد من النماذج الانسانية العليا ، الى جانب بروميثيوس ، وفاوست ، وهاملت ، فدون كيخوتى يمثل روح الانسان ، أما رفيقه سانتشو بانثا فيمثل بدن الانسان ٠٠ ذلك الرفيق الأصيل للروح ٠

ومنذ القرن السابع عشر حتى الآن لم يفرغ البشر من فهم دون كيخوتى ، ومازال المعلقون والشراح والنقاد يجدون فى أفعاله واقواله كل انواع المعانى والرموز ذات المغزى والدلالة والأهمية ، رغم أن ثربانتس نفسه يعترف بأنه لا يود شيئا سوى شجب قصص الفروسية ، وتعرية ما فيها من زيف وعبث • ولا تزدحم المكتبة القومية باسانيا بطبعات رواية دون كيخوتى ومجلداته فحسب ، بل بأطنان من الكتب تشرح وتفسر ماخفى وغمض من الرواية ، تلك التى وصفها الناقد الفرنسى الكبير سانت بيف بانها « انجيل الانسانية » •

ولا غرابة أننى أحببت هذه الرواية لنزعتها الانسانية التى جعلتها تتجاوز حدود أسبانيا لتصبح رواية البشر جميعا فى كل الأوطان على مر العصور ، وأعجبت بمؤلفها العبقرى وبحياته الأسطورية التى تمتلىء بالوطنية والبطولة ،فكان اختيارى لموضوع هذا الكتاب •

وقد آن الأوان لكى ننطق دون كيخوتى كما ابتدعه مؤلفه الأسبانى ، بدلا من نطقه دون كيشوت كالذين يقرأونه بالفرنسية •

وكان تأثير الرواية فى الادب والموسيقى والفنون التشكيلية تأثيرا عميقا ، واستلهم المصورون الرواية مرارا فنقلوا الى لوحاتهم الفارس ومن حوله ، محاولين أن يعكسوا بفرشاتهم روحانية دون كيخوتى •

ويستحق كل هذا منا وقفة لنتساءل عن سر انتشار وذيوع الرواية بهذا الشكل الذى لم يسبق له مثيل • واقتضى هذا منا لكى نصل الى الاجابة أن نتناول فى بحثنا مؤلف هذا العمل الفريد وحياته وعصره وظروفه ، وخاصة أن الرواية على صلة بعصر ميجل دى ثربانتس مؤلفها وبشخصيته وحياته ، شأنه فى ذلك شأن الآثار الانسانية الكبرى فى الماضى والحاضر ، ومن هنا جاز لنا أن نتعرض لعصر ثربانتس ولحياته حتى نضع الرواية فى موضعها منهما •

بيد أنه لم يكتب فى مصر عن حياة ميجل دى ثربانتس ، مبتدع دون كيخوتى ، الا النذر اليسير •• بضع صفحات هنا وهناك فى مقالات قصار أو مقدمات يستهلون بها رواية « دون كيخوتى » المترجمة الى العربية • مع أننا ندين لميجل دى ثربانتس بأمتع روايتين أتحفنا بهما فى تاريخ الأدب •• أولاها •• حياة دون كيخوتى الغريبة العجيبة ، وثانيتهما •• حياة مؤلفها التى تضارع حياة بطله دون كيخوتى ان لم تكن قد فاقته فى غرابتها •

وقد رأينا أن نبدأ عملنا بتصحيح اسم المؤلف الذى ينطق بالأسبانية ثربانتس وليس سرفنتس أو سرفنتيس وفق نطقه بالانجليزية أو الفرنسية • وهناك اتجاه بين كتاب السير نحو اغفال مالم يستعذبونه من مشوار حياة

ميجل دى ثربانتس فيظهرونه كراهب ، ولكننا في الباب الأول الذى أفردناه لحياة المؤلف، رأينا أنه ليس هناك ما يمنع من أن نستمتع بروايته ونعجب بها ، وفى نفس الوقت نقص الحقائق عن حياته · واذا كان هنرى توماس ودانا اى توماس قد قالا عن ثربانتس ان شجيرة الورد لن يضيرها أنها نبتت فى الوحل ، واستمدت غذاء جمالها من الطين ، فاننا نقول عن ثربانتس ما ذكره سانتشو بانثا لدون كيخوتى من أن الأراضى الجافة العقيمة تنتج ثمارا طيبة حين تسمد وتزرع · ونحن نرى أن العديد من تجارب الأيام والخبرات والمعاناة والآلام التى ذاقها ميجل دى ثربانتس هى السماد الذى أثرى نغم حياته الأدبية وأنتج لنا درة أعماله وزهرتها اليانعة « دون كيخوتى » · كما أن تغلغلنا فى حياة ميجل دى ثربانتس ، لكى نفهم روايته فهما عميقا ، ليس ببدعة ، فقد ظهر هذا الاتجاه فى مدارس النقد الفرنسى الحديث التى يتزعمها سانت بيف (١٨٠٤ ــ ١٨٦٩) الذى كان يتتبع الحياة الشخصية لكل كاتب ، وتلاميذه وأصدقاءه ، بل وأعداءه · ونحن بالتالى سنفعل ذلك دون أن نغض الطرف عن أعدائه · ونحن لم نؤثر سلوك هذا الطريق لنشوه صفاء السماء شأن الغربان ، ولكننا سرنا فيه وفقا لما تقتضيه موضوعية البحث العلمى وأمانته حتى نصل الى مدى العلاقة بين حياة المؤلف وشخصية بطله دون كيخوتى ·

وقد أفردنا الباب الثانى للدراسة التحليلية لنص الرواية متناولين العناصر الرئيسية لها وشخصياتها مع عرض لآراء الكتاب والنقاد فى العمل حتى نعيد تنظيم الجو النفسى والروحى الذى صيغت فيه رواية دون كيخوتى لتكتسب أبعادا واضحة ، ويصبح فى الامكان تقدير الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية ·

د · غبريال وهبة

الباب الأول

شخصية دون كيخوتى من
خلال حياة مؤلفها

الفصل الأول :

ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية والدينية

الفصل الثانى :

حياة ميجل دى ثربانتس المغامر كانموذج لبطل روايته دون كيخوتى

الفصل الثالث :

سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ فى حياة ثربانتس

الباب الأول

فى رواية « ضباب » للكاتب الأسبانى الكبير ميجل دى أونامونو يدور صراع بين الحياة والموت ، والوهم والحقيقة ،وهاهو ذابطلها أوجوستو بيريث يبلغ به اليأس ذروته إذ أوشك على الانتحار بعد هرب حبيبته قبل أن يزف اليها بيوم مع عشيقها الســابق ماوريثيو ، فيواجه مؤلفه ·· أونامونو الذى يقول لبطله انه أصبح لا يعرف ماذا يفعل به ، وانه سيقتله ·· وفى أثناء الحوار يخبر المؤلف بطله فى حزم بأنه لا وجود له ، وانه جزء من أحلام أو خيال المؤلف والقراء · غير أن أوجوســتو عندئذ يتشبث بالحياة فيتمرد على مؤلفه طالبا الخروج من الضباب ، وأن يعيش قائلا للمؤلف انه قد يكون هو نفسه لا وجود له ، فهو ليس حيا ولا ميتا ، وأن دون كيخوتى (أو دون كيشوت كما ينطق بالفرنسية) وتابعه سانتشو أكثر حقيقة من ثربانتس نفسه ·

استوقفتنى هذه العبارة الأخيرة ، اذ لم ينطق بطل رواية « ضباب » بغير الحقيقة فى قوله عن ثربانتس · وقد دفعنى هذا الى البحث عن حياة ميجــل دى ثربانتس مؤلف رواية « دون كيخوتى » · ولماذا طغت عليه شخصية بطله الذى ابتدعه ؟ وهل ثمة علاقة بينهما ؟ وهل كان المؤلف هو نفسه دون كيخوتى كما يذهب البعض مثل رفاييلو بوسونى ؟ واذا لم يكن الأمر كذلك فهل لحياة ميجل أثرها فى هذه الشخصية الخالدة ؟

ان الاجابة عن كل هذه التساؤلات تحفزنا الى قراءة الرواية قراءة متأنية ، وتستدعى تمهلا وروية بالغة فى دراسة حياة المؤلف بالتفصيل ·· هذا فضلا عن انه لكى نلم بمنابع شخصية دون كيخوتى وجذورها السياسية والتاريخية والفلسفية فان ذلك يقتضينا أن نعرض لحياة المؤلف وظروف عصره التى عاشها حتى ندرك مدى ارتباط ذلك وقوة تأثيره على تلك الشخصية التى ابتدعها ·

الفصـــل الأول

ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية والدينية

ـ ١ ـ

اســـبانيا فى القـــرن الذهبى

كانت أسبانيا امبراطورية شاسعة الارجاء فى أوج قوتها وعظمتها ، ومع ذلك ظهرت بوادر تدهور آت لا ريب فيه ٠

عندما ارتقى فيليب الثانى عرش أسبانيا كانت اقوى دولة على وجه الأرض ، وفاقت ممتلكاتها مافى حــوزة أى بلد آخــر ٠٠ فقد امتدت الامبراطورية الاسبانية لتشمل نصف العالم ، ووصلت اقصى حدودها الى قمم جبال الأنديز فى أمريكا الجنوبية ، وكانت فرق الجيش الأســبانى منتشرة فى كل مكان ٠ ففى اوروبا كان جنودها يرابطون فى فرنسا وايطاليا والأراضى الواطئة ٠ وفى خارج أوروبا كانت أسبانيا تمتلك كل أمريكا الوسطى ، وجزءا كبيرا من امريكا الجنوبية ، وبعض أجزاء من أمريكا الشمالية ٠ يضاف الى ذلك الفيليبين والهند الغربية ٠ هذا بخــلاف الممتلكات البرتغالية فى أفريقيا والبرازيل وآسيا التى انتقلت الى أيدى الأسبان فى عام ١٥٨٠ ٠ وقد ذكر مؤرخ أسبانى فى فخر واعتزاز : « ان الشمس لا تغيب عن الأراضى الخاضعة لملك أسبانيا وان اقل حركة من تلك الأمة تهتز لها الأرض بأكملها » ٠

ان الذهب والمعادن الأخرى الثمينة التى كانت تتدفق دون توقف من أمريكا ذات الثراء الفاحش قد غيرت من وجه أسبانيا فى وقت قصير ٠٠ وقدمت لها مستعمراتها الغنية سوقا لصناعتها التى نمت الى حد لم تكن تحلم به ٠٠ وازدهرت تجارتها وتعددت سبل انتقالاتها ٠٠ واصــبحت

أشبيلية أحد موانيها التى تموج بالنشاط ·· وقد وصفها رودريجث مارين قائلا : « ياأشبيلية من مدينة تموج بما فيها من حياة وحركة ، وذهاب وجيئة ، وتنوع فى الأزياء ، وامتزاج فى اللهجات كأنها برج بابل ، وتدافع العربات المحملة بالثروات · وبالنشاط التجارة فى بيت العقود الخاصة بأمريكا ، وبالضجة الميناء ! وبالشطئانها من جمال وروعة ! وما أشد فتنة الغاديات والرائحات فى الطرقات أو المتطلعات من النوافذ ! أى حياة مترعة بلذائذ الحياة ! أى شمس مشرقة ! وأى سماء باسمة ·· ! » · وقد قيل عن هذه المدينة انها لو عرفت كيف تحتفظ بجزء من الألف مما تدفق على أرصفتها لكانت شوارعها اليوم مرصوفة ببلاط من الذهب ·

ولكن بالنسبة لشعب كان يجهل القوانين المالية أى مجموع الدخل والنفقات فى الدولة ، فان هذا النهر من الذهب كان بمثابة هدية مسمومة · فالموقف الاقتصادى لشبه الجزيرة غير مستقر ، وارتفعت الأســـعار فى الأندلس بسرعة هائلة الى ٥٠٠٪ خلال القرن السادس عشر وحده · ولم تتوان الأجور هى الأخرى فى اللحاق بهذا الغلاء وتجاوزته · كما أن طرد اليهود عام ١٤٩٢ أدى الى أن تخسر اسبانيا خبرتهم التجارية ، ووضع التجارة الأسبانية بين أيدى تجار أجانب (هولنديين أو من أهالى جنوا) كانوا يميلون الى الاحتفاظ بجزء كبير من العائد · وقد وقعت أسبانيا مع المغاربة عام ١٦٠٩ فى نفس الخطأ الجسيم الذى وقعت فيه مع اليهود ، وبذا خسرت أنشط عناصر الدولة فقد كانوا هم محركى الصناعة الجديدة وأسهم رحيلهم فى قيام الأزمة فى الاقتصاد وتدهوره ·

ــ ٢ ــ

فيض من النبــــلاء وســـيل من البــذخ

يبلغ عدد سكان البلاد فى أواخر القرن الخامس عشر حوالى تسعة ملايين نسمة بما فيهم العبيد والمغاربة · واذا أخذنا فى الاعتبار السكان المبعثرين فى الصحارى الشاسعة والسكان الرحل كالرعاة والغجر ، فان مجموع السكان من الأفضل أن نقدره بعشرة ملايين · ويدعى نصف هذا العدد نبالة الأصل · أما النبلاء الحقيقيون ، وهم عظماء أسبانيا ، فكانوا يتباهون باظهار العظمة ، وماينرفلون فيه من ثراء ·

وفى هذا المجتمع كان يضحى بكل شىء فى سبيل الشرف ·· ويتعين

على رجال كل أسرة حماية عفة نسائها ، والانتقام من اى اخلال بقواعد الفروسية • وقد بالغوا فى هذا الدور حتى كثرت قعقعة السلاح ، وصليل السيوف فى المبارزات التى كانت تنشب هنا وهناك •

— ٣ —

ايمـــــان رهيب

من المستحيل أن نفهم تاريخ أسبانيا فى القرن السادس عشر مالم ندرك كثافة وعمق الشعور الدينى الأسبانى ••

كان الدين مسيطرا على الحياة القومية لدرجة التعصب ، وسادت هذه الروح فى ديوان التفتيش بأحكامه الوحشية ، وفى الشعب من الملك الى آخر لص وقاطع طريق •

ولم يكن عدد الأديرة فى القرن السادس عشر يقل عن تسعة آلاف دير يعيش بين جدرانها اثنان وثلاثون الفا من الرهبان الفرانسيسكان والدومينيكان فضلا عن أن عدد اليسوعيين كان فى ازدياد مضطرد • وكانت المواكب الدينية واحتفالات احراق الأحياء التى تصحب اصدار الحكم بالموت حرقا من قبل محكمة التفتيش على المتهمين بالهرطقة ومايتبع ذلك من تنفيذ الحكم من جانب السلطات الدينية ، أحد مظاهر هذا الايمان الأسبانى القاسى •

— ٤ —

الملك حــاكما مطلقــا

كان فيليب الثانى ، وهو حفيد جان المجنونة ، وابن شارل الخامس ، يعتبر نفسه أقوى ملك على الأرض فقد كان يحكم نصف العالم كحاكم بأمره

دون الاعتماد على أعوانه أو مستشاريه ، وحتى المجالس الاقليمية كان يتجاهلها ، ويعمل على هواه مهتما بكل التفاصيل ٠٠ فهو الذى يدير بنفسه شئون البلاد ، ويراجع ما تم من الأشغال العامة ، ويقوم بتقنين القوانين ٠ لذلك كانت الأداة البيروقراطية تسير فى تثاقل وبطء ٠ فالملك فيليب الثانى الحذر كان دءوبا على العمل لا يكل ولا يمل ٠٠ ولكنه كان بعيدا عن هذا الاضطراب والقلق الخارجى ، فهو يعيش وسط القصر فى عزلة متمسكا بالرسميات كتجسيم لقوة سلطانه الملكى ٠ كانت عيناه محمرتين ، كما يقول الناس ، من كثرة العمل لساعة متأخرة من الليل ، واحدودب ظهره من طول انحنائه وهو يواصل الكتابة ، والتوت أصابعه من داء المفاصل ، وتغير لون شعره الضارب الى الحمرة فاصبح رماديا ، كما رق عوده وخف ٠ وهو مع ذلك يأخذ نفسه أخذا شديدا بلا هوادة ، منكبا على العمل ٠ وهو من دون حكام البلاد المجاورة ، يبدو غيورا ساهرا وقد اخذ على عاتقه المسئولية عن كل شىء فى مملكته المترامية الأطراف ٠ انه حاكم مطلق يستمد قوته من حقه السماوى ، ولكنه لم يكن طاغية ٠ كان طرازا جديدا من الملوك ، نشأ على حب النظام والطاعة تجاه مسئولياته التى تجعل منه خادما للمملكة كما هو رئيسها وقائدها ٠

بيد انه لا أحد يفسر الأمر بتلك الطريقة ٠ ان رجال الحاشية يضحكون فيما بينهم عن آخر ماحدث بين مستشارى الملك ٠ فكم هو مضحك ان يختار الملك شخصين يمقتان بعضهما ككبيرين لمستشاريه ٠٠ فالملك يستشير أحدهما ثم يعرض اجابته كمشكلة على الآخر ٠ وطبيعى ان تلك كانت طريقة تحمل دهاء ،وتنم عن ملك اريب ذكى ثاقب الفكر يمكنه ان يقف بسرعة على الجانبين الجيد والسيىء لأى مشروع ٠٠ وكان ذلك بمثابة بداية لنظام الحزبين ٠٠ وجذور للبرلمان ، ولكن رجال الحاشية كانوا يميلون لرؤية الأشياء من زاوية شخصية ٠ وعلى أية حال فان الملك يمضى قدما متخذا قراراته بنفسه ٠ ففيم اذن تعبه وهو يحفز للمستشارين كى يتحرشا ببعضهما ؟!

وفى تلك الأيام كان فيليب يبنى الاسكوريال ٠٠ القصر المنيف على بعد عشرين ميلا خارج مدريد ٠ وهو لم يكن رمزا للفخامة والابهة أو القوة أكثر مما يعكسه من صفات الرجل الذى بناه لخدمة الدين ٠٠ فالجزء الرئيسى منه كان ديرا وكاتدرائية ٠ وخصص جناحا واحدا للأسرة الملكية، واختار الملك لنفسه غرفة صغيرة بسيطة يعمل فيها لا تحوى شيئا غير سرير ومنضدة ومقعد ٠

كانت اسبانيا غنية ٠٠ فمنذ ان استطاع ارنان كورتس ان يفتح المكسيك (١٥١٩ ــ ١٥٢٦) ، ومنذ ان غزا بيثارو بيرو (١٥٣٠ ــ ١٥٣٥) تدفق نهر لا ينضب من الذهب من الدنيا الجديدة الى اسبانيا ٠ فأين تولى هذا الذهب ؟ لماذا تعطلت كثير من الأنوال التى تنتج لاسبانيا فخر تجارتها

من الأنسجة الصوفية الثمينة ؟ لماذا تحولت كثير من الحقول الى أراض بور ؟ لماذا توقفت الطواحين ومعاصر الكروم والزيوت ؟

ان خلف هذا المظهر الضخم للقوة والمنعة تكمن التوترات الداخلية التى كانت تسوق اسبانيا الى هاوية الافلاس رغم ثرائها ٠ واطل شبح الفقر المدقع على البلاد ٠

يرجع أحد أسباب ذلك ، كما سبق أن ذكرنا ، الى طرد اليهود عام ١٤٩٢ ثم المغاربة عام ١٦٠٩ فخسرت اسبانيا انشط عناصر محركى الصناعة الجديدة ، وأسهم رحيلهم فى ازدياد أزمة الاقتصاد وتدهوره ٠ ومن ناحية أخرى تمادت أسبانيا وتطرفت فيما تشنه من حروب فى كل أنحاء العالم ٠٠ حيثما يشعر فيليب بتهديد للعقيدة الدينية ٠ فاذا ماقويت شوكة اتباع كالفين فى بولندا فان فيليب يحس بمسئوليته الشخصية نحو سحقهم ٠ واذا أزداد نفوذ البروتستانت أو أصبحت لهم اليد العليا فى فرنسا أو غيرها ، فان فيليب سرعان ما يدفع اليهم بأحد جيوشه ٠ ومن الواضح أن شن عدة حروب فى آن واحد فى الأراضى الواطئة ولومبارديا وبورجونديا ، وفى افريقيا ، وأمريكا ، وفى أعالى البحار انما يشكل اجهادا واستنزافا لخزينة الحكومة ٠ وكان صانعو السيوف وسروج الخيل ، من دون عمال أسبانيا ، هم الذين يعملون باستمرار ، ولكنهم أيضا لم يصبهم ثراء ٠ فالذهب ، بعد أن هدأت الحال ، كان يحشو جيوب قلة من الناس يقبعون فوق قمم الأكوام والأكداس ٠٠ فبدلا من عدالة التوزيع ، فان الذهب ظل فى أيدى النبلاء ، وبعض كبار التجار ، والوسطاء والسماسرة ، ومضاربى البورصة ٠

كان التاج غارقا فى الديون ٠ لقد صعد فيليب الى العرش وأسبانيا تئن تحت وطأة دين ضخم ، فحفلات تتويج والده ٠٠ الامبراطور شارل الخامس بفخامتها وابهتها التى لا يصدقها العقل تكلفت من الأموال الباهظة مالا يحصرها العد ٠ وزاد فيليب الديون ثقلا بتطرفه فى حروبه ٠٠ تلك التى الجأته الى مواصلة الاستدانة من هنا وهناك ومن كل مكان ٠ وأصبحت ابواب البلاط حتى الخصوصية تفتح لرجال كانت توصد دونهم منذ سنوات قلائل ٠٠ خليط عجيب من الألمان والفلمنكيين (شعب الفلاندر) والايطاليين والبرتغاليين ٠٠ تجار ومواطنين عاديين لا يمتون للنبلاء بصلة على الاطلاق جاءوا لتقديم القروض للامبراطورية الأسبانية ، فالملك يحتاج الى المال ، وهم يحصلون بدورهم على الامتيازات والاحتكارات ٠

الذهب يجىء وترتفع الاسعار ويزداد الأثرياء ثراء ، والفقراء فقرا ، والملك يسهر يوميا حتى ساعة متأخرة من الليل ٠

ـ ٥ ـ

الحضـــارة الاســـبانية

فى مستهل القرن السادس عشر سار التقدم الفكرى جنبا الى جنب مع دلائل العظمة العسكرية ٠

كان حجم الحياة الجامعية فى اســبانيا كبيرا ٠ وكانت جامعة سالامانكا التى تمتد جذورها الى أوائل القرن الثالث عشر فى نمو مضطرد ٠٠ وكان عدد طلبتها يفوق أى جامعة أوروبية أخرى فى ذلك الوقت ٠ كما تفردت بقبولها للجنسين دون تفرقة سواء فى نوع الدراسة أو الدرجات العلمية ٠ وقد برزت على الأقل امرأتان هما لوسيا دى مدرانو وخوانا دى كونتريراس اعتادتا أن تلقيا محاضـــرات عامة فى الجامعة ٠ويقال ان فرانثيسكا لبريخا الابنة المتعلمة لانطونيو لبريخا الذى كان يعد أعلم أهل عصره ، كانت تقوم أحيانا بالقاء محاضرات نيابة عن والدها ٠

وهناك جامعة بالبادوليد ، وهى أقدم جامعات شبه الجزيرة ، وكانت شـــهرتها العالمية ترجع الى تخصصها ذى المســـتوى الرفيع فى الأعمال الجراحية ٠

ويمكننا أن نتبين مدى النمو الفكرى ، الذى كان يسير على قدم وساق ، من عدد الجامعات الجديدة التى ظهرت فى أوائل القرن السادس عشر : سيجونثا (١٤٧٢) ، ثاراجوثا (١٤٩١) ، بالانثيا (١٥٠٠) ، سانتياجو (١٥٠٤) ، أشبيلية (١٥١٦) ، غرناطة (١٥٢٦) ٠

أما جامعة آلكالا فقد كانت أعظم المؤسسات الجديدة والتى أسسها الكاردينال خيمينيس (١٥٠٨) وهى لم تكن جامعة فحســـب بل مدينة جامعية ، خصص جزء كبير منها كبيوت للطلبة ، ولبائعى الكتب ٠ وكانت تضم بين جدرانها بعضا من أعظم علماء أوروبا الذين رحبوا فى حماس بالمد الكامل لفكر ومعارف عصر النهضة ٠ وقد ازدادت أعداد طلبتها بسرعة حتى بلغت الى ما يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى منتصف القرن السادس عشر ٠

كما أن نمو النشاط الفكرى لأسبانيا يمكننا أن نتبينه من نشـــاط مطابعها ٠٠ وقد سجل هيبلر مالا يقل عن ٧٢٠ كتابا طبعت فى أسبانيا فى خمس وعشرين مدينة مختلفة قبل نهاية القرن الخامس عشر ٠ وهذا العدد من الكتب يمكننا أن نتبين مداه اذا قارناه بما طبع فى انجلترا فى نفس الفترة والذى بلغ ٣٥٨ كتابا ٠ وهذا مؤشر عادل لنمو النشاط الفكرى المضطرد ، والذى انضم مع الثروة والقوة العسكرية لأسبانيا ليرفعها فى فترة قصيرة الى موقع السيطرة والهيمنة على أوروبا بلا منازع ٠

أحـــداث قـــرن ثربانتس

١٥٥٣ ـ ١٥٥٦

الحرب بين فرنسا وأسبانيا .

١٥٥٦

تنازل شارلكان عن العرش لصالح فيليب الثانى وكان ذلك بداية القرن الذهبى للأدب والفن الأسبانيين .

١٥٥٧

يستقر تجار برتغاليون فى ماكاو ، بينما يصل مبشرون الى اقليم كوانج تونج فى الصين .

١٥٥٨

تتربع الملكة اليزابيث على عرش انجلترا .

يعطى ايفان الرابع الاشارة لكى يدخل الروس الى سيبيريا .

١٥٦٣

مجمع ترانت الكنسى يختتم أعماله لمواجهة الحركة البروتستانتية .

١٥٦٤

الكرسى البابوى يصدر قائمة بالكتب المحرمة .

١٥٦٧

بدء المعركة ضد المنادين بالتحرير الوحدوى للبلاد الواطئة .

١٥٧١

الأسطول الأسبانى مع من حالفه من الدول الأوروبية يهزم الأتراك فى معركة ليبانتو .

الأسبان يحتلون الفيليبين .

١٥٧٤

الفرق الأولى من العبيد السود القادمة من افريقيا تنزل على شواطىء أمريكا الجنوبية .

١٥٨٠

أسبانيا تضم البرتغال وقد بلغت الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية أوج قوتها وبأسها .

السير فرانسيس دراك يحقق الدوران الثانى حول العالم بسفينته .

١٥٨٢

اليابان تحاول اخضاع كوريا .

والبابا جريجورى الثالث عشر يقوم بتعديل التقويم القديم (وهو تقويم جوليان الذى أدخله يوليوس قيصر فى عام ٤٦ ق.م.) .

١٥٨٤

السير والتر رالى يؤسس فرجينيا .. أول مستعمرة انجليزية فى أمريكا الشمالية .

١٥٨٨

هزيمة الأرمادا .. الأسطول الأسبانى الذى لا يقهر .

١٥٨٩

هنرى الرابع يصبح ملكا على فرنسا .

جاليليو يضع قوانينه عن البندول ، وسقوط الأجسام .

١٥٩٨

مرسوم نانت الذى أصدره هنرى الرابع ملك فرنسا وبمقتضاه بمنح البروتستانت حرية العقيدة والعبادة .

١٦٠٠

تأسيس شركة الهند الشرقية فى لندن .

جيمس الأول يخلف اليزابيث على عرش انجلترا .

١٦٠٩ ـ ١٦١٠

كبلر يكتشف قوانين حركة الكواكب ويصنع منظارا فلكيا .

١٦١٠

لويس الثالث عشر يخلف هنرى الرابع ويعهد بادارة الدولة للكاردينال دى ريشيليو .

وفى أسبانيا تستمر هجرة المغاربة الجماعية .

١٦١٠ ـ ١٦١٧

تبدأ فرنسا وانجلترا فى اقامة مكتبات كبيرة قومية · ولاثراء دار الكتب الملكية بباريس (دار الكتب القومية حاليا) أجبر الناشرون على تقديم نسخة أو نسختين من كل مؤلف مطبوع ·

١٦١٣

ميخائيل رومانوف يصبح قيصرا لروسيا ·

١٦١٥

وليم هارفى يكتشف الدورة الدموية ·

١٦١٨ ـ ١٦٤٨

حرب الثلاثين عاما التى نشبت معاركها فى أوروبا بسبب انقسام المسيحية فيها الى المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى ·

١٦٢٤

بدء تشييد قصر فرساى الشهير بالقرب من باريس ·

١٦٢٥

شارل الأول يخلف جيمس الأول على عرش انجلترا ·

١٦٢٦

الهولنديون يؤسسون فى امريكا الشمالية نيويورك المستقبل والتى كانت تدعى وقتئذ أمستردام الجديدة ·

١٦٣٣

محكمة التفتيش تجبر جاليليو على رفض نظرية كوبرنيكوس المبنية على النظريات الرياضية وهى أن الشمس مركز النظام الشمسى وتدور حولها الكواكب السيارة على أبعاد مختلفة ، وأن هذه الكواكب تدور حول محاورها ·

١٦٣٥

تأسيس الأكاديمية الفرنسية فى باريس ·

١٦٤٣

مازارين يخلف ريشيليو على رأس الدولة الفرنسية ·

١٦٤٢ ـ ١٦٤٩

الحرب الأهلية فى انجلترا •

١٦٤٣

لويس الرابع عشر يصعد الى العرش فى فرنسا •

١٦٤٩

اعدام شارل الأول فى لندن وسقوط الملكية ، واعلان الجمهورية •

الفصــل الثانى

حياة ميجل دى ثربانتس المغامر كأنموذج لبطل روايته دون كيخوتى

ـ ١ ـ

حياة التشرد والتجوال فى سلالة دون كيخوتى
او
دون كيخوتى ابنا عن اب

نحن الآن فى عام ثلاثة وستمائة بعد الألف · وهاهو ذا بطلنا دون ميجل دى ثربانتس الذى بلغ السادسة والخمسين يجلس هادئا فى زنزانة ضيقة فى أحد سجون مدريد ، وقد وخط الشيب شعره ، ولوحت الشمس بشرة وجهه النحيل · وسوف نعرف السبب فيما بعد ·· وهو ينتظر اللحظة التى تكتشف فيها السلطات براءته · انه الآن منهمك فى تأليف كتاب ·

تتوالى الأيام ودون ميجل منحن فوق المنضدة الكســيحة ، وقلمه المصنوع من ريشة طير يصدر صريرا عنيفا فوق الأوراق ·· وما أغرب ما يكتب ! ·

هناك اجماع عالمى على أن بطل الرواية يكون شابا فتيا وسيما ، بيد أن البطل الذى أبدعه دون ميجل كان رجلا وخط الشــيب شعره ، ولوحت الشمس بشرة وجهه النحيل كالمؤلف نفسه · ليس هذا فحسب ، بل جعل عقله يتشوش أيضا : « سيد ريفى انغمس فى قراءة كتب الفروسية حتى اختل عقله فى النهاية من طيلة السهر وكثرة القراءة » · وقد أثار الرجل الذى أبدعه ميجل الدهشة فيما بعد ـ « رجل مجنون تملكته أغرب فكرة فى العالم ، فقد ارتدى دروعه ، وغادر مزرعته ممتطيا صهوة جواده ليحقق عمليا ما قرأه فى الكتب » ·

وأعتقد الرجل المسكين أنه حالما ينطلق كفارس جوال فانه سوف يقابل المردة والسحرة والعذارى اللاتى أحدقت بهن المحن . ولما كان مقتنعا بما رسخ فى اعتقاده ، لم يأبه بأقوال عقلاء القوم الذين بينوا له أن المردة ماهم الا طواحين الهواء ، والعذارى لسن فى حاجة الى الغوث والنجدة والانقاذ . ووجد فى السحر والسحرة تفسيرا للأحداث التى يحار فيها .

ويخفت الضوء تدريجيا فى زنزانته ، ولم يعد فى وسعه أن يكتب فى الظلمة . ترى من أين جاء هذا الفارس غير المعقول ليصول ويجول فى روايته .. هذا الدون كيخوتى الذى يمتطى صهوة جواده الهزيل ، ويصر غير آبه بأى منطق ، أن العالم هو كما يريده أن يكون . هل هو شخصية لا وجود لها الا فى خيال دون ميجل، ولدتبعد مخاض أليم امتد عبر شهور طويلة من الوحدة والغربة الموحشة متجولا فوق صهوة جواده قبل أن يزج به فى غياهب السجن ؟ أم تراه قد صادفه دون كيخوتى وعرفه فى الحياة الواقعية فى مكان ما ؟ هذا ما سيناقشه الكتاب فى ثنايا البابين الأول والثانى .

أطبق الظلام على السجن وجثم داخل الزنزانة ثقيلا مرهقا ، وهاهو ذا ميجل دى ثربانتس يبتعد عن ناظرينا .. ودعونا الآن نقلب صفحات التاريخ الى الوراء .. الى عام ١٥٤٧ الذى رأت فيه عيناه النور .

ظل المكان الذى ولد فيه ميجل مجهولا ، ولم يشغل ذلك بال أحد .. ففى القرن السادس عشر لم يكن الناس يهتمون بمثل هذه التوافه .. بيد أنه عندما طبقت شهرة ميجل دى ثربانتس الآفاق ، وأصبح فخرا لأمته تباهى به الأمم ، تسابقت كثير من المدن .. كل منها تدعى أنه من أبنائها .. وقد قوبلت هذه الادعاءات بالرفض لأنها لم تكن تقف على أساس صلب . الى أن تصادف منذ مايزيد عن قرن من الزمان أن عثر أحدهم ، عندما كان يقوم بأعمال الحفر ، على سجل كنيسة القديسة مريم الكبرى فى بلدة صغيرة هى آلكالا دى ايناريس ، التى تبعد حوالى ٢٠ ميلا شرق مدريد ، وكان مدونا به أنه فى التاسع من أكتوبر عام ١٥٤٧ عمد طفل يدعى ميجل وهو الابن الرابع لدون رودريجو دى ثربانتس سابدرا وزوجته ليونور . ولم يكن يوم الميلاد مثبوتا ، ولكن ذلك حسم قضية منبت رأس ميجل . كان أكبر اخوته هو رودريجو ، على اسم والده ، قد بلغ السابعة من عمره عندما ولد ميجل . ثم رزق والداه بعد رودريجو بابنتين هما آندريا وكانت فى الخامسة ، ثم ماجدالينا وكانت فى الثانية من عمرها عند مجىء ميجل الى دنيانا .

كان دون رودريجو ، والد ميجل ، رجلا نبيلا . ولقب دون فى الأسبانية يعنى سيد . ورغم أنه كان يحمل سيفا للدلالة على منزلته ، ويتدثر برداء النبلاء ، الا أنه كان فقيرا . ومن المفروض أن النبيل يعيش من دخل ممتلكاته ولا يلوث يديه بالعمل . واذا لم يكن لديه رغبة فى أن يركن الى الخمول ، فان الكنيسة أو الملك يتيحان له فرصة خدمتهما .

ولسوء حظ رودريجو لم يكن لديه ممتلكات تدر عليه دخلا • وعندما رزق بابنه الرابع ميجل كان يحمل وجه رجل اثقله الهم •• يلوح عليه القلق والانزعاج ، واصبح رجلا تسهل اثارته ، كما كان خشنا عنيفا فى بعض الأحيان •

أطلق على نفسه لقب دكتور ، ولكن ذلك كان يحتاج الى مؤهلات • وعندما كان شابا واظب على الاستماع الى كثير من المحاضرات الطبية ، غير أن ضيق ذات يده ، وعدم دفعه رسوم الدراسة اضطره الى الانقطاع عنها • واستمر الرجل يدرس بنفسه ، ولكنه لم يحصل على دبلوم حقيقى فى الطب •

مضت عدة أعوام هباء ، قرر بعدها دون رودريجو الاقامة فى ألكالا دى ايناريس • كانت مدينة ذات ضجيج وعجيج ،والأعمال فيها رائجة •• وهذا ما جذبه اليها • أما جامعة آلكالا التى لم يمض على انشائها سوى خمسون عاما ، كانت رغم ذلك تنافس جامعة سالامانكا القديمة فى علمها وعدد طلابها الذين بلغ عدد من سجلوا أسماءهم بها فى أحد السنوات ستة آلاف •• هذا غير أولئك الذين يحشرون أنفسهم فى قاعة المحاضرات دون أن يدفعوا شيئا • وقد رأى دون رودريجو فى شوارع آلكالا كل صنوف البشر من ذوى الحيثية والجاه : الأحبار ورؤساء الدين ، وكبار الكهنة ، وأبناء الدوقات النبلاء • وبجانب ذلك كانت المدينة تعج بجموع من رقيقى الحال الذين ينشدون الفوز بنقود سريعة من طلاب الجامعة الذين ينفقون بسخاء وتبذير •

كان دون رودريجو على ثقة بأنه سيظفر هنا بربح وفير • ولكن وا أسفاه ، لم تكن المدينة فى حاجة الى مزيد من الأطباء الجدد ، ولاسيما أن بها كلية طب لها وزنها ، وكبار أساتذة الطب متوفرون فيها • وقد يلجأ اليه بعضهم فى عمليات فصد الدم ، ولكن فى الحالات الخطيرة فان ذكره لن يخطر ببال أحد من أثرياء المدينة • وأصبح مرضاه ضمن فقراء الطلبة والتجار الذين لم يكن أمامهم سواه •

كانت صدمة لدون رودريجو وزوجته ، وعانى من قلة العائد فى حين انه كان طبيبا حاذقا رغم أنه لا يحمل مؤهلا •• فقد كان يحب مهنته ، ويعلم كثيرا من اسـرارها فى وقت كانت فيه المعلومات الطبية الحقيقية ضحلة قليلة الغور •

ابتأست دونيا (ومعناها فى الأسبانية سيدة ولكنها لا تترجم) ليونور زوجته ، لا لأن زوجها لا يعالج الا الفقراء ، ولكن لأنه كان يزاول هذا العمل رغم أنه من النبلاء الذين يستنكفون كسب قوتهم بالعمل • ولكن ماذا تفعل أمام الأفواه الجائعة فى الأسرة •• لقد بذلت ما فى وسعها لاخفاء الأمر • وحتى يدخل دون رودريجو السرور على قلب زوجته ، كان يغادر

بيته كل يوم متخفيا وقد تدثر بزى النبلاء الأسود ، مغطيا رأسه بقبعة ، وملتفا بعباءة ، ومتمنطقا بسيف وهو يدق الأرض بقدميه شأن كل رجل نبيل • وكان لابد من تابع يسير وراءه حاملا مايحتاج اليه •• فسار خلفه رجل مهلهل الثياب حافى القدمين يحمل له حقيبته وأحيانا بعض الكتب • وما ان يقطع الشارع ويستدير بعيدا عن نظر زوجته حتى يعود الى طبيعته متخففا من قيود النبالة حتى يبلغ شاطىء النهر حيث ينتظره مرضاه فى أكواخهم وكهوفهم • كان دون رودريجو يبذل ما فى طاقته لانقاذ مرضاه • ومن النادر أن يكون معهم نقود ليدفعوا له ، وكثيرا ماكانوا يعطونه قطعة من الجبن أو دجاجة ميتة مقابل أتعابه فيتنهد مناولا اياها لتابعه العارى القدمين ليحملها له . ثم يهرول الى الكوخ التالى •

وفى نفس الوقت كانت دونيا ليونور تكافح فى البيت باذلة أقصى جهدها للنهوض بأعبائها ، وجعل المنزل له مظهره المحترم رغم ضيق ذات يدها • انها أصغر من دون رودريجو بكثير ، وهى الأخرى سليلة أسرة نبيلة ، ولم تكن تعاونها سوى فتاة صغيرة • ان مهمة ربة المنزل فى تلك الأيام لم تكن سهلة ، فكل شىء يتم داخل البيوت لقلة ما كان يباع جاهزا فى ذلك الوقت • ان السيدة النبيلة دونيا ليونور تصحو مع أول خيوط الفجر ، وتستمر تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل •• فهى تطهو الطعام ، وتصنع الجعة ، وتقدد اللحم بالتدخين ، وتصنع الشموع وأوراق اللعب ، وتغزل وتنســـج ،وتحيك الملابس وترتقها • وهى ترعى أربعة أطفال ، وأصبح ميجل يعرف كيف يعنى بمظهره •

كان أمرا طبيعيا أن دونيا ليونور عندما تخرج لحضور القداس فى الصباح المبكر ، أن تضع لثاما على وجهها ، وتتدثر بالسواد شأنها شأن الملكة ، وذلك حتى تبدو بمظهر دونيا ليونور دى ثربانتس •• الســـيدة النبيلة • وكان الناس يرونها كما ترى نفسها ، ولم يكن أحد يعلم فيماعدا القس ، حقيقة الحياة التى تحياها •

وهكذا نجد الصـــغير ميجل قد عاش منذ طفـولته فى عالم كانت الحقيقة فيه ذات وجهين • كانت هناك حقيقة والدته وهى فى المطبخ تطعمه وتضحك معه اذا لم يكن التعب قد برح بها • ثم كانت حقيقة والدته وهى فى قاعة الاستقبال تشير له بيدها لتطرده خارجا كما لو كانت لا تعرفه • وعندما نما قليلا كان أحيانا يصحب والده فلا يراه صـــامتا أو مقاطعا ومعارضا عندما يتحدث مع مرضاه ، بل يشاهده عطوفا رقيقا يؤدى عمله فى سرعة وحذق • ثم يتبدل الحال عندما يغادر دون رودريجو المرضى ويقترب من منزله •• فيرى ميجل ملامح الغضب والقلق تعود لوجه والده وحتى وهو يسير شامخ الأنف بخطوات النبلاء •

ثم رزق والداه بشقيق جديد له يدعى خوان • وقد رأى دون رودريجو أن خمسة أطفال تستلزم الانتقال الى قطاع من المدينة أقل تكلفة • ففى حى

فقير يستطيع أن يخلع قناعه ويصبح طبيبا من الجيران تؤيد دخله . ولكنه قوبل بمعارضة زوجته .. . فالنبلاء لا يستطيعون العيش وسط الأوغاد ليكون من هب ودب في المدينة شاهدا على سوء مآلهم وتضعضع حالهم .

مرت الأيام والشهور ، صمم بعدها دون رودريجو على وضع حد لتلك الحياة المملوءة ادعاء ونفاقا .. وقرر في هذه المرة أن يغادر الكالا كلية ، وأن يبيع المنزل والأثاث ليسدد ديونه ، وأن ينتقلوا الى مكان آخر ليبدأوا حياة جديدة .

أمسكت دونيا ليونور دموعها بعد أن أحست أن ذرفها لن يجديها شيئا وهي ترى عزم زوجها الأكيد . لم يكن دون رودريجو يعلم أى نوع من المستقبل كان ينتظره . شيئا واحدا كان يعرفه .. أن هذه الحياة في الكالا مستحيلة ، وعليه أن يجد طريقة أفضل ليقيم أود أسرته .

وسرعان ما بيع المنزل والأثاث ، واعتلى ميجل وسائر أفراد الأسرة عربة كبيرة وقد علت الدهشة وجوههم .. لم يحملوا معهم سوى القليل من المتاع ، وانطلقوا يجدون في البحث عن حياة جديدة .

❋

مضى خمسون عاما عندما أصبح الصغير ميجل ذا لحية رمادية يجلس خلف القضبان يدون كتابا كان هيكله الرئيسي يدور حول مغامرات رجل بعد أن غادر بيته دون أن يلوي على شيء ، وبلا هدف في رأيه اللهم الا خوض مغامرة من مغامرات الفروسية .

اننا لن نتعجل النتائج .. ولكننا نرى أن دون ميجل عندما كتب دون كيخوتي كانت لديه أسباب ليرسل ذلك السيد خارج بيته الى الطريق .. فهناك جزء لا ينفصل ولا يتجزأ من دون ميجل وهو يجلس داخل السجن في مدريد يكتب .. كان من ذكريات السنوات العشر العجيبة التي بدأت وهو في سن السابعة عندما خرجت أسرة ثربانتس كلها تهيم على وجهها . وهى تتجول تائهة شاردة في أسبانيا .

ويالها من فكرة خيالية لرجل له زوجة وخمســـة أطفال .. فدون رودريجو كان طبيبا ، والأطباء يحتاجهم الناس في كل مكان .. فما الذى يمنعه من أن يكون طبيبا رحالة يقطع الفيافى والقفار متنقلا من مدينة الى أخرى لمعالجة كل من يحتاج الى خدماته في أية بقعة من الأرض في جوف الليل أو في رائعة النهار .. ان هذا يعنى أن الرجل أصبح لايجد غضاضة في أن يفعل أى شيء .. من بيع الأقراص الدواء ، واقتلاع الأسنان ، وتوليد النساء ، ولامانع أيضا من توليد الأبقار في بعض الأحيان .. وعليه أن

يلقى بعصا الترحال فى ميدان السـوق بالبلدة جنبا الى جنب مع الغجر وقارئى الطالع والعرافين فينصب خيمته أمام التجمعات والحشود ٠

حط دون رودريجو رحاله حيث أقرب مهرجان ٠٠ ففى تلك الايام كان لكل مدينة مهرجان سنوى يستمر أسبوعا احتفالا بعيد قديس من القديسين ٠٠ ان الفلاحين يقطعون أميالا عديدة قاصدين هذا المهرجان الذى ينشد اليه أيضا التجار والباعة المتجولين من البلدان الأخرى ، والحجاج والغجر والجنود والمسافرين عبر الطريق طالما كان معهم ما يبيعونه ٠ وبالتالى فمثل هذا المهرجان يجذب اليه من يبتغون الشـراء ، أو أولئك الذين ينشـدون مجرد اللهو والتسـلية ٠ وكان هذا اذن مكان مفضل لطبيب رحالة لينصب خيمته ٠

ولاريب ان هذا المكان خلب لب أطفال ثربانتس الاربعة عندما هبطوا من عربتهم لأول مرة ليجدوا أنفسهم وسط مزيد من الألوان والاثارة لم يعرفوا لها مثيلا فى حياتهم من قبل ؛ عالم عجيب ٠٠ مدينة كبيرة من الخيام والمنشآت اقيمت حول البلدة ٠٠ أكواخ البضـائع ٠٠ وعروض لمسرحيات العرائس ، وأخرى لمسرحيات دينية مستمدة من الكتاب المقدس ٠٠ هذا غير الحبال المشدودة التى يرقص فوقها البهلوانات ٠ مشـاهد ستعنى الكثير بالنسبة لميجل فى مستقبل حياته من جهة حبه للمسرح ٠

وفى الصباح التالى أقام الوالد قاعدة وسط هذا الهرج والمرج وتلك الجلبة ووضع فوقها منضـدة بجواره تحمل الأقراص والمراهم وكل ما يثبت أنه طبيب ٠

بدأ الناس يتوافدون على الطبيب ، فيعطى بعضهم أقراصا ، بينما يصف للبعض الآخر علاجا مغايرا ، وأخبر قليلا من الذين فحصهم بكل أمانة أنهم ليسوا فى الواقع مرضى ، وأنه لا يلزمهم سوى يوم أو أكثر من الراحة ٠ وسرعان ماذاع صيته كطبيب جدير بكل ثقة ٠

وعندما أرخى الليل سدوله عاد دون رودريجو بمحفظته مثقلة بالنقود التى لم تكن تخلو من بعض العملات الذهبية ٠ كان سعيدا وبدأ يخطط للمستقبل ٠٠ فعندما يتجمع لديه مايكفيه من المال سيشترى حصانا وعربة فيتنقلون بها من مدينة الى أخرى ، ومن مهرجان الى آخر ٠ وتستطيع الأسرة أن تنام داخل العربة بينما يقيم هو قاعدة عمله خلفها ، وفى هذا اقتصاد فى التكاليف ٠٠ واذا ما واتاه الحظ كاليوم فربما استطاع شراء عربة فى نهاية الأسبوع عندما ينفض المهرجان ٠

وما جاء آخر الأسبوع حتى تحققت آمال دون رودريجو فاشترى عربة كبيرة وحصانا قويا جميلا ٠ انفض المهرجان ومضت العربة بأسرة ثربانتس فى الطريق الى مهرجان جديد بمدينة أخرى ٠

وهكذا بدأت حياة التجوال الجديدة التى أصـــبح لها طابع خاص عجيب • ويبدو أن دونيا ليونور استطاعت بتدبير شئون البيت داخل عربة، أن تتخفف من التظاهر والتفاخر بما ليس عندها • انها الآن فى الخلاء تطهو طعام الأسرة ، وترعى الرضيع ، وتنهر الأطفال الكبار ، وبدأت ترى الحياة كما لم ترها من قبل • شاهدت الناس سعداء ومحزونين ، ومثقلين بالعمل ومع ذلك ينشدون اللهو •• ثم وجدت نفسها تحصل على مركز محترم كزوجة لطبيب وأم لخمسة أبناء ، وأقبلت عليها النساء يسألنها النصح والارشاد • وهناك نقطة واحدة وقفت عندها موقفا صلبا لا يلين • لا يصح أن تتجول بناتها خلال المهرجان كما تفعل بنات مرتادى ذلك المهرجان •• يجب أن تربى بنتاها وتثقفا لتصبحا سيدتين ، وأن تحميهما من العالم الخارجى ، ولم تكن عينها تغفل لحظة واحدة عنهما • ولكنهما لم تلبثا أن صارتا عبئا ثقيلا • فقد بدأت الفتاتان تتبرمان ، وأحيانا تنخرطان فى البكاء أو تجلسان متجهمتين عابستين ، وترفضان أن تمدا يد المساعدة الى أمهما •• وما ان مرت بضعة أسابيع حتى وصلت دونيا ليونور الى قرار •• فعندما قدمت أسرة ثربانتس الى مدينة يوجد على مقربة منها دير للراهبات ، ذهبت دونيا ليونور بأندريا ومجدالينا الى رئيسة الدير لتكونا تحت رعايتها حتى تجدا التربية والثقافة والتعليم لشـــابتين مثلهما • وودعتهما الى حين تجد الأسرة بيتا ثابتا مرة أخرى • وعادت الى زوجها، والى العربة ، والى الأبناء الثلاثة الباقين — والى الحياة الجديدة الغريبة القلقة •

ونادرا ما كانت أسرة ثربانتس تمكث اكثر من اسبوعين فى مكان واحد ، واستمرت فى التنقل والترحال فى طرق وعرة زاد من خطورتها اللصوص وقطاع الطرق •• الأمر الذى أدى بالعربات أن تسير معا مكونة قوافل كبرى •• وانضـــم الى هذه القوافل كثير من عابرى الســـبيل والقساوسة والحجاج والرحالة والتجار ، ينشدون الأمن والحماية • وجد الصغيران رودريجو وميجل فى القافلة التى انضمت اليها أسرة ثربانتس شيئا مثيرا مثلما كانت المهرجانات والكرنفالات بالنسبة اليهما •

كان بعض المسافرين فى القافلة يمتطون صهوات الجياد ، والبعض يجلسون فى محفة معلقة بين جوادين ، وقلة منهم يركبون عربات فاخرة • وتمضى القافلة التى تشبه قطارا طويلا فى الطرق الجبلية الملتوية ، وتارة تهبط الى الوديان العميقة ذات الجو البارد ، وتارة تصـــعد الى قمم السلاسل الجبلية تحت وهج الشـــمس • ولم يكن هناك مجال للتوقف ، ولا تستطيع أسرع العربات أن تتجاوز سرعة خطوات المشاة •

وهكذا رحلوا خلال المقاطعات الاسبانية • قشتالة • اكستريمادورا •• ليون •• بالنثيا حتى الأندلس جنوبا •• وفى الطريق كانوا يمرون بقلاع عجيبة • ولاشك أن رودريجو وميجل اللذان كانا يسيرا أحيانا بجوار

العربة ليخففا الحمل عن الحصان ، يحملقان صوب الأسوار والأبراج في دهشة من الحياة التى يعيشها أولئك الذين يقطنون خلفها · وكم اخترقت القافلة سهولا لا نهاية لها ترعى فيها الماشية ، ومروا من فوق السدود والجسور ، وهبطوا الى الينابيع فى الوديان · لوحت الشمس والريح والأتربة وجهى رودريجو وميجل · واذا جن الليل يتدثران بالأغطية الصوفية وينامان · وكثيرا ماكان الطعام لا يتعدى الخبز اليابس والتين المجفف ، والمياه المحفوظة فى قرب من جلود الماعز التى اختلط مذاقها برائحة الأسطبل · وكان اليوم السعيد هو الذى تتوقف فيه القافلة عند أحد الأنهار للاستحمام وغسل الملابس ·

أتاحت فترات التوقف فى الطريق الفرصة للشقيقين رودريجو وميجل كي يقتربا من العربات ، ويتعرفا بغيرهما من المسافرين ، وتوجيه شتى الأسئلة اليهم · كانت فرصة قلما يجود بها الزمن للتعرف على كل صنوف ونماذج البشر من أعلى الطبقات الى أدناها ·· فكل الذين يسافرون مع القافلة يجمعهم دفء الزمالة فى أثناء الطريق حيث تتلاشى الفروق بين الطبقات ، غير أن هذه الزمالة كانت تنتهى عندما تصل الرحلة الى نهـــايتها ·

وقد تحدث ميجل ، ووجه أسئلته لرجال الدين والفلاحين والتجار والرعاة والعظماء والضباط مكونا صورته عن العالم بما سمعه عن حياتهم · لم يكن رودريجو يأبه لهذه المحادثات وهذا الحوار مالم يكونا يتحدثان الى جندى فكان يرهف سمعه وتبرق عينيه عندئذ ويسرع بأسئلته ملاحقا ميجل · فتلك هى الحياة التى تناسبه كما كان يقول ذلك كثيرا ·· فذاك شىء له وزنه ـ مقاتلة المغاربة كجندى من جنود الملك · وكان ميجل يميل الى الموافقة على ذلك ·· ان رجل الدين يخدم الله ، ولكن الجندى يخدم الله والملك · الجندى شجاع فى مجابهة المخاوف والمصاعب ·· الجندى رجل يعرف النظام والانضباط ·

كان رجال الدين من المسافرين مع القافلة لديهم شىء خاص ليقدموه لميجل ·· فمعهم اكثر من غيرهم مفاتيح دنيا التعلم · وسرعان ما استطاع ميجل أن يتعلم القراءة والكتابة فكان يقرأ كل ما يعثر عليه ، وكانت اية قصاصة من ورقة مطبوعة بمثابة كنز يظفر به ·

توالت الشهور ، وكانت الحياة فى الطريق مفعمة بالاثارة والمغامرات بينما كانت المهرجانات متماثلة متشابهة · وكان على رودريجو وميجل مساعدة والدهما · ان رودريجو يقوم بالدور الأكبر فهو يخطو صوب الرجولة الآن اذ بلغ الخامسة عشر ثم السادسة عشر فالسابعة عشر ·· ولكن ميجل لم يكن خاملا · ان المرضى لا يستطيعون جميعا القدوم الى الطبيب فبعضهم كان طريح الفراش ، وأصبح على ميجل أن يوزع الدواء وغير ذلك من المهام ، شاقا طريقه وسط هذا الحشد الهائل من الخيام

والنصب المتشابهة ، يعاونه جسده النحيف فى أن يدفع نفسه وسط هذه الكتل المتراصة من البشر ؛ وكانت الأم أيضا تنادى ميجل ليرعى شقيقه خوان وأخته الطفلة التى ولدت فى أثناء الطريق ٠

هاهى ذى الشهور والأعوام تمضى وعربة أســـرة ثربانتس تذرع طرقات أسبانيا ٠ لقد نما ميجل واشتد عوده وطالت قامته ٠ وأتيحت له حتى الان رؤية كثير من المدن ، فقد ذهب الى ثاراجوثا ، آبيلا ، كاثيريس ، بورجوس ، بالنثيا ، مالاجا ، أشبيلية وسائر المدن الكبرى ٠

وفى العام الذى بلغ فيه ميجل الثانية عشرة من عمره ، أصيبت أسرة ثربانتس بضربتين قاصمتين غيرت جو رحلاتهم وأسفارهم برمته ٠ جاءت الضربة الأولى عندما مرض الأخ الأصغر والشقيقة الصغرى ٠ وقد بذل دون رودريجو كل مهارته كطبيب فى علاجهما ، وسهرت دونيا ليونور آناء الليل وأطراف النهار بجوار فراشهما داخل العربة ٠ وذهب كل ذلك الطب والتمريض أدراج الرياح ٠ اذ حم القضاء وفارق الصغيران واحدا اثر الآخر تلك الحياة الخشنة المملوءة بالضجيج ٠ وشـــاهدت دونيا ليونور فلذتى كبدها يواران الثرى فى المقبرة الصغيرة بالمدينة التى تصـــادف وجودهم بها فى ذلك الوقت . ثم عادت لتجلس فى صمت وقد جفت الدموع فى مآقيها ٠

أتت الضربة الثانية بعد بضعة أشهر ، فبينما كان الاربعة فى رحلتهم فر رودريجو على حين غرة ، وهجر أسرته ٠ لم يدهش ميجل كثيرا عندما عثر والداه على الرسالة التى تركها رودريجو ، فقد كان يعلم أن أخاه فى السنة الأخيرة برح به القلق الذى كان يتزايد يوما بعد يوم ٠ فرودريجو نما وأصبح الآن رجلا ، وحياة القافلة لا تقدم له الا القليل ٠ ان المساعدة التى كان يقدمها لوالده لم تكن لترضى رجلا قويا طموحا مثله ؛ ٠ وميجل يستطيع أن يضطلع بدوره فى سهولة ويسر ٠ ولطالما تاق رودريجو الى الحياة العسكرية ٠ وهكذا اختفى ذات يوم ليقيد نفسه فى سجل المتطوعين للخدمة العسكرية تاركا رسالة يودع فيها أسرته ٠

لم يلم ميجل أخاه رودريجو ، والتمس له العذر فقد خلق للجيش ، وأصبح ميجل الطفل الوحيد فى العربة ،وحاول أن يقنع نفسه بأنه يعيش أيضا حياة عسكرية ٠٠ فالقافلة فى غدوها ورواحها وتوقفها لها نظمها وأوامرها الشبيهة بالنظم والأوامر العسكرية ٠ كان رحيلا وسيرا لا ينتهى يوما وراء يوم ٠٠ والعربة قطعت طوال تلك السنين نصف طرقات أسبانيا المتربة ٠ وسار ميجل مشية جندى ، وكان عليه أن يتحمل أى طقس ، وأن يقنع بما يصيبه من طعام جيد أو هزيل ، كما كانت مباهج الحياة ومايؤديه من واجبات تمتزج بطريقة عشوائية ٠ وكان ميجل يتعلم أيضا فى مدرسة الحياة ٠٠ فالطريق بمثابة الجامعة بالنسبة اليه ٠ وهاهوذا يتعلم اللاتينية من الرهبان والقساوسة الذين كان يتحدث معهم فى أثناء السير ، كما ألم

بقليل من الرياضيات • وتعلم من بعض المسافرين كيف يعرف الوقت ليلا من أوضاع النجوم • وقد أعاروه كتبا لمؤلفين من الاغريق ، وكانت فى ذلك الوقت من المؤلفات الممنوعة • كما قرأ أيضا بعضا من فلسفة أرسطو التى كانت مباحة ، وبذل جهدا كبيرا وهو يقرأ كتابات القديس توما الأكوينى •

أمعن ميجل النظر ، وفكر فيما قرأه ، وراح يسأل الرهبان والقساوسة الذين أعاروه كتبهم ، ويستوضحهم الرأى فى كثير من الموضوعات ، ومن ثم كان يحاول فى جماس أن يكون رأيه الخاص •

رأى ميجل الكثير فى صباه •• البؤس والوحشية ، اليأس والموت ــ ولكنه رأى أيضا كثيرا من الحب والسرور والابتهاج ، الحنان والضحك •• وظل يرحل لوقت طويل حتى بدا له أن الحياة كلها عبارة عن قافلة تسير وتسافر ثم تتغير وتتفرق وتتشتت ولكنها على الدوام لا تلبث أن تتجدد وتتجمع مرة أخرى لتسير ثانية • وفى الحقيقة لم يكن هناك شىء ثابت اللهم الا شكل وهيئة القافلة وفوقها السماء والنجوم • فهل كان ذلك كافيا لتكوين فلسفة للحياة ؟ هز الرهبان رءوسهم ، ولكنهم كانوا يبتسمون للصبى المتحمس الذى يقدح زناد فكره ، ويمتلك عقلا شغوفا بالبحث وقلبا صادقا •• لاشك أنه سيكتشف طريقه فى يوم ما الى معان أكثر عمقا •

الزمن يمضى ، وبدأ ميجل يتعب من حياة الطريق رغم الكتب والأحاديث • وحتى المهرجانات نفسها لم يكن يستجره فيها سوى المسرحيات وعروض العرائس ، أما ماعداها فقد بدت له زخارف وأشياء قديمة من سقط المتاع • بدأ يحلم بمدن الامانكا وجامعتها الكبرى هناك ، وبالكتب المصفوفة فوق الأرفف بدلا من الاعتماد على ما يختاره له رفقاء السفر كل حسب مزاجه الخاص • وهو يحلم بالاستقرار فى مكان واحد ، وأن يواصل الليل بالنهار ليتعلم بطريقة جادة حقيقية فى آخر الأمر •

ولما بلغ ميجل السابعة عشرة من عمره ، بدأ دون رودريجو يحس بالتعب والنصب من حياة السفر والترحال • انثنى الرجل الى النقود التى جمعها فى السنوات العشر الأخيرة • وأخذ يحصيها فوجد أنها حصيلة لابأس بها •• وفاتح دونيا ليونور وابنه ، الذى أصبح رجلا ، فى القاء عصا الترحال والاستقرار مرة أخرى فى احدى المدن • ووقع الاختيار على مدريد التى انتقل اليها الملك وحاشيته ، والتى يقولون عنها انها أصبحت أكبر من بالبادوليد ، وأصبحت طرقها جميعا مرصوفة ، وبيوتها كبيرة ، وشوارعها ممتدة ، وبها مبانى شامخة ، وهناك يجد الطبيب فرصة كبيرة •

وفى عام ١٥٦٦ عندما كان ميجل يبلغ من العمر تسعة عشر عاما لوت أسرة ثربانتس عنان جوادها فاتجهة بالعربة فى طريق مدريد • وهناك ودعوا حياة السفر والترحال التى عاشوها طويلا ليصبحوا مرة أخرى من سكان المدن •

— ٧ —

ميجل فى روما

مع انتقال الملك الى مدريد ، تحولت البلدة الى مدينة ، غير أن اقامة المبانى لم يكن بالسرعة التى تفى بالمطلوب ، الأمر الذى جعل أسرة ثربانتس تقطن فى أحد المساكن بصفة مؤقتة انتظارا لشراء منزل خاص بهم، رغم أنهم كانوا يملكون النقود التى تمكنهم من شرائه ٠

كانت المدينة محاطة بالصحراء — سهل مرتفع لا ينمو به شىء من الوجهة العملية ٠ وهناك فى الأفق البعيد صوب الشمال الشرقى تقف سلسلة واسعة من الجبال الشاهقة التى تعوق السحب الممطرة وتصدها فتجعل الجفاف يكتنف مدريد ٠ وفى النهار تكون الرياح ساخنة ، بينما تهبط درجة الحراة ليلا فيصبح الجو قارصا ٠

ياله من مكان غريب ليختاره الملك فيليب الثانى كعاصمة لملكه . فيماعدا شىء واحد ٠٠ فمدريد تتوسط اسبانيا تماما ، وتخترقها الطرق من أقصى أطراف الدولة الى الأطراف المقابلة لها ٠ ويستطيع هذا الملك المتعصب الدءوب على العمل وهو جالس فى مركز مملكته ، ان ينافس العنكبوت وهو يعمل منهمكا فى مركز بيته الذى نسجه ، فيجذب خيطا فى أى اتجاه ليسحب الى جواره من يريد ٠ كان ميجل فتى فى عصر يحكم فيه الملوك بالحق الالهى ٠

وأخيرا تم بناء منزل ثربانتس فانتقلت اليه الأسرة ٠ واستفاد دون رودريجو من أخطائه القديمة فى الكالا فلم يضيع وقتا فى الاستيطان بين جيرانه كطبيب ، وسرعان ما اكتسب بعض الزبائن والعملاء ٠

ان قبول دونيا ليونور للحياة كما كانت طيلة سنوات السفر والترحال قد زايلها كما لو كان ذلك تخفيا وتنكرا ٠ وهاهى ذى قد عادت الى ماتعتبره الآن العالم الحقيقى ، ذلك العالم الذى يعنى كل شىء بالنسبة اليها ٠٠ والذى أصبحت فيه دونيا ليونور دى ثربانتس سابدرا ٠

وكسيدة وربة منزل مرة أخرى ، أرسلت مسرعة الى دير الراهبات تطلب عودة ابنتيها الى البيت ، فوصلتاه بعد بضعة أسابيع قلائل ٠

لم يكن ميجل قد رآهما منذ عشر سنوات عندما كانت آندريا فتاة خرقاء قليلة الخبرة فى الثالثة عشرة من عمرها ،بينما كانت ماجدالينا صبية فى العاشرة ٠ وهاهو ذا يقابل شقيقتيه كشابتين غريبتين احداهما فى الثالثة والعشرين والأخرى فى العشرين ٠ ولطالما ود أن يجتمع شمل الأسرة ٠

وجد ميجل ، في الشهور الأخيرة التى قضاها مع الأسرة راحلا عبر الطريق ، فرصة للدراسة الجادة لتحسين تعليمه • وكان العيب الأكبر في مدريد عدم وجود جامعة بها • وفى أول تجواله بالمدينة عثر على جماعة من الرجال أثروا فيه أيما تأثير • لقد وجدهم فى أول الأمر داخل بعض الحانات الصغيرة التى يباع فيها أنواع رخيصة من النبيذ ، أو فى تلك الأماكن الصغيرة الجديدة التى وجد فيها ميجل شرابا أجنبيا غريبا •• حيث تقدم الشيكولاته بالطريقة المكسيكية بعد تخميرها وخضـــها حتى يعلوها الزبد والفقاعات ، وتتبل بالفلفل الذى ينثر فوقها •

افتتن ميجل بالشراب ، ولكن افتتانه كان أشد بأولئك الرجال الذين وجدهم يجاسون حول المناضد الصغيرة ساعة وراء ساعة يرشفون شراب الشيكولاتة وهم يتحدثون عن كل شيء تحت الشمس • كانوا جميعا من أصحاب العقول الراجحة • البعض من الكتاب ، والبعض من الدارسين ، والبعض الآخر ممن لهم صلة بالمسرح ، ولكنهم جميعا كانوا متشابهين في سلوكهم ملبسهم، كما لو كانوا كلهم أعضاءزمرة عجيبة من رجال الكهنوت أو الاكليروس أو أفراد جماعة سرية من الأخوة • ان ملابسهم متواضعة بل رثة بالية ، الا أنهم يرتدون عباءاتهم وأغطية رءوســـهم بميل معين لا يخطىء ملاحظته أحد • وقلد البعض منهم عادات الرهبان ليتخذوا سمة الرجال المتعمقين فى العلم • وعنوا جميعا بتشذيب لحاهم ، واســـتعمال أيديهم فى اشارات وايماءات تنطق بالفصاحة والبلاغة •

ظل ميجل يراقبهم ورويدا رويدا تعرف اليهم ، ولاحظ أن معظمهم كانت تعلوه القذارة رغم سلوكهم وآدابهم الاجتماعية • ولكنه لم يهتم لذلك طالما قبلوه وجعلوه يشاركهم أحاديثهم وحكمتهم •

وهو لم يكن فى الواقع بحاجة الى قبولهم له •• فهؤلاء العقلاء وذوى العقول الراجحة من أبناء مدريد ، الذين كانوا يتخيلون أنفسهم المحور الرئيسى والعمود الفقرى للثقافة الأوروبية ، قد حل بهم التعب والارهاق المميت من طول رفع عقيرتهم بالصياح وهم يرددون نفس الآراء والازدراء لما عداهم • وكانت تعقيبات وشروح ميجل وتفسيراته فيما بعد ترجع الى تلك الأفكار الأولى الجديدة لهذه الجماعة ، والتى كان لها تأثيرها فى تكوين ميجل فى شبابه • لقد استعرضوا علمهم امامه وشجعوه كى يقتفى أثرهم ، وانبرى كتاب المسرح منهم يقرأون له مسرحياتهم التى كانت أعمالا بهرته وأثرت فيه • وقد حثه الشعراء منهم ليحاول الانتاج فى ميدان الشعر ، وأثنوا على مجهوداته فيه •

كان ذلك شيئا مثيرا يتسم بالعناد والطيش والتهور والجموح ، ولكن لفترة ، اذ سرعان ما انتاب ميجل التعب من تصلب أصحاب العقـــول الراجحة ، وتعصب وعدم تسامح كل من ينتمى الى جماعتهم ، الأمر الذى ثبط عزمه ، وجعله يشعر بالاحباط • اذ لم يتنازل أى رجل منهم ليصبح

صديقا حقيقيا فى غير كلفة ولا تصنع · غير أن هذه الجماعة قد ادت اليه صنيعا واحدا لا غير ·· فقد اجبرته على ادراك مدى ضآلة ماحصله من العلم التقليدى الشكلى · انه يدرك الآن أنه لا يعرف اللاتينية اللهم الا نوعا من اللاتينية الدارجة · كما أدرك أيضا أنه ليست لديه الا معرفة ضبابية مبهمة بأساطين الكلاسيكية وكتابها · ولكن كيف يحصل على العلم الذى يتوق اليه فى مدينة تفتقر الى جامعة ؟ أنعم ميجل النظر وتمعن وتروى وفكر وتدبر وراح يلقى بأسئلته هنا وهناك ، حتى عثر أخيرا على ما بدا له الاجابة المنشودة ·

كان هناك أستاذ فى مدريد يقيم عنده التلاميذ كنزلاء بالأجر · وهو يساعدهم فى دراساتهم مقابل خدماتهم فى أعمال السكرتارية وشئون المنزل · وتوجه ميجل فى شوق لرؤية هذا الرجل الذى يدعى الأستاذ خوان لوبث دى أويوس ·· فوجده حلو الحديث يحب قدامى الشعراء ، ويحلم بترجمة الكلاسيكيات الصغيرة الى لغة أسبانية رفيعة · ورحب الأستاذ أويوس بميجل وأخبره أنه يسعده أن يكون مؤدبا له يتولى أمر تعليمه اللغة اللاتينية وغيرها من الدراسات الأخرى اذا قبل الالتحاق بمنزله كفامولو (فامولو ·· اصطلاح بمعنى أنه سيكون واحدا من أفراد الأسرة ، وفى نفس الوقت سيكون خادما لها) ·

جد ميجل فى تعلم اللاتينية عند الأستاذ دى أويوس ، ولم يجد سوى القليل من الوقت ليقابل معارفه القدامى من أصحاب العقول الراجحة بالمقاهى · ومع كل فقد التقى بهم بعد أن انخرطت المدينة بأكملها فى البكاء على الملكة الشابة ايزابيل دى فالوا زوجة الملك فيليب ·

جلس أصدقاء ميجل حول الموائد فى المقاهى ، وقد سيطر الوجوم على وجوههم منكبون على قصاصات من الورق يدونون بها بين الفينة والفينة أشعارا وبعض الأعمال الأدبية الأخرى يمدحون بها الملكة الراحلة كما أخبروه · وأظهروا لميجل استعدادهم لأن يحملوا الى الناشــــر مع أعمالهم ما تجود به قريحته من قريض ·

أسرع ميجل عائدا الى الأستاذ منفعلا بفكرة ظهور كلماته مطبوعة · لقد أنتج ست قصائد · وعندما حملها لمن نصحوه بالمقاهى حازت قبولهم بشىء من التحفظ · وهاهم أولاء يقطبون جبينهم وهم يقرءونها ، وأبدوا عدة نقاط من النقد عليها · وأرسلت معظمها مع المجموعة الى المطبعة ، وقبل أن ينقضى العام شاهدت مدريد اسم ميجل دى ثربانتس مطبوعا لأول مرة · وكانت لحظة مثيرة تلتها أحداث أخرى لفتت أنظار ميجل نحو أشياء أكثر اثارة ·

حدثت وفاة أخرى فى العائلة المالكة · فبعد مرور بضعة شهور من انتقال الملكة ايزابيل دى فالوا الى العالم الآخر، مات دون كارلوس ابن الملك

فيليب • عم الحزن مدريد واسبانيا كلها ، وامتد الحزن الى أوروبا الغربية بأجمعها • ووجد البابا فى روما أن خطاب تعزية لا يكفى فى مثل هذه المأساة المزدوجة ، وقرر ارسال مبعوث شخصى الى الملك فيليب • ووقع اختيار البابا بيو الخامس على المونسنيور جوليو أكوافيفا ليكون رسوله الى الملك ليعمل تعزيته اليه ولاجراء محادثات هامة • ولو أن المونسنيور أكوافيفا كان شابا فى السادسة والعشرين ، الا أنه كان واعدا ، ويرجى منه الكثير ، وتوقع له الجميع أن يصبح كاردينالا فى السنين القلائل القادمة • وهو ينحدر من أسرة ايطالية ـ اسبانية أرستوقراطية عريقة ، وكان على اتصال بكل شخص من ذوى النفوذ فى ايطاليا ، كما كان الساعد الأيمن للبابا • هذا بجانب شهرته كشاب ساحر جذاب •

وبعد أن مكث المونسنيور عدة أسابيع فى مدريد ، هرول الأستاذ دى أويوس ذات يوم عائدا الى منزله حاملا أنباء سارة الى ميجل فقد سمع من أحد زملائه فى المدينة أن المونسنيور أكوافيفا يبحث عن شاب يجيد اللغتين الاسبانية واللاتينية ليعينه سكرتيرا له • ولما كان الأستاذ دى أيوس فخورا بالتقدم الذى أحرزه ميجل على يديه ، فقد رشح تلميذه النجيب ليعمل مع المونسنيور •

وأخيرا تأهب أكوافيفا للرحيل وفى أواخر عام ١٥٦٩ غادر ميجل مدريد متجها صوب شاطىء البحر ليصعد فوق ظهر احدى السفن ميمما شطر نابولى •

ورغم ذلك الاستهلال المشجع فى عالم الادب بنشر بعض أشعار ميجل كما ذكرنا ، فان هذا لم يمنع الشاعر الشاب من مغادرة مدريد لبدء حياة المغامرة فيما وراء البحار • ولم يتضح سبب هذا الرحيل المفاجىء • فالسجلات القومية تحتفظ بوثيقة تبدأ بالكلمات الآتية : « أمر الى رجال العسس باحضار ميجل دى ثروانتس حالا دون تأخير بسبب احدى الجرائم » • ترى ماذا اقترف هذا المدعو ثروانتس حتى استحق كل هذه العجلة • ان الوثيقة تبين أنه أصاب خلال مبارزة فى مدريد شخصا يدعى أنطونيو دى سيجورا بضربة سيف ، وأن المتهم يستحق قطع يده • وقد أدت هذه الوثيقة الى تكون فريقين فى منتصف القرن الماضى أحدهما يدافع عن الكاتب والآخر يصلت عليه سيف الاتهام • وكانت حجة المدافعين عن ميجل أنه لم يقترف اثما لأن العلامة الموجودة تحت الحرف سى تحوله الى الحرف زد مما يغير من اسم المتهم ويبعد الشبهة عن ثربانتس •• وكانت الحجة الثانية حجة زمنية اذ كيف أمكن للكاتب فى نفس هذه السنة ـ ١٥٦٩ والوثيقة مؤرخة فى شهر سبتمبر ـ أن يتوجه بكل هدوء الى روما فى ركاب رجل شهير كأكوافيفا بينما الشرطة تطارده • كما أنهم يستشهدون بالأشعار التى كتبها ثربانتس عن ايزابيل دى فالوا فى شهر نوفمبر عام ١٥٦٨ بمدريد •• اذ يبدون دهشتهم من أنه فى فترة وجيزة لاتتعدى عشرة شهور يقترف بطلهم جريمته ويحاكم ويصدر ضده الحكم

الســابق رغم أنف البطء الذى اتســمت به البيروقراطية فى ذلك العهد ·
والحجة الاخيرة وهى لا تقل أهمية عن الحجج السالفة : كيف استطاع ميجل مع سابقته القضائية هذه أن يطلب ، عن طريق والده ، شهادة النبالة التى قدمها الى أكوافيفا ؟

ولكن المعركة لم تنته فهناك نقاط جديرة بالمناقشة ·· الحكم الصادر منشأ المبارزة ، شخصية الخصم · وقد نزل لويس آسترانا مارين بثقل مؤلفه عن ثربانتس بمجلداته الســبعة فرجح كفة الاتهام ، اذ أن هناك قصيدة فى ديوان ثربانتس الشعرى « رحلة الى بارناسو » بعنوان « حماقة الشباب » يعترف فيها بأنها تستوجب الأسف مما يحمل على الظن بأنه ربما لم يكن غريبا على مثله أن يرتكب تلك الجريمة ·

ومهما كان من أمر ســواء أكان ثربانتس مهاجرا أو مرغما ناجيا بجلده ، فانه عاش فعلا فى روما اعتبارا من سبتمبر عام ١٥٦٩ عندما وصل اليها وتوجه الى مكان الاقامة فى الفاتيكان ·· ذلك الجزء من روما الذى شيد فوق تل منفصل ، وفيه قصر البابا والمبانى الخاصة بالعاملين فى ادارة الكنيسة ·

كانت روما أكثر من مدينة ·· فكرة ، رمزا لقوة روحية ، وادراكا غير مادى للعظمة والجلال ·

شاهد ميجل الكنائس فى المدينة الأزلية ، كما قرأ هوراس وفرجيليو وروايات الفروسية فقرأ بشغف مغامرات أماديس ولانسيلوت وأورلاندو الغاضب ، وقرأ لكتاب ايطاليا محتكا بالحضارة الايطالية ·

ثم جاءت الأنباء بغزو السلطان سليم الثانى لجزيرة قبرص ·

كانت ايطاليا فى ذلك الوقت مقسمة الى ولايات متناحرة ، وكان كثير منها خاضعا للحكم الأسبانى ، وكذلك جزيرة صقلية وسردينيا ·

ولما لم يكن للولايات الايطالية جيوش نظامية ، اذ كانت تعتمد فى حروبها فيما بينها على الجنود المرتزقة ، تخلت عن كبريائها وطلبت العون من أسبانيا ·

داعب ميجل حلم الطفولة فى الانضمام للجيش ، فأسرع الى أكوافيفا يلتمس السماح له بتسجيل اسمه فى قائمة المتطوعين للخدمة العسكرية ·· فوافق بعد تردد ·

غادر ميجل روما الى نابولى حيث كانت الفرق العسكرية الاسبانية تتجمع هناك · سرى الحماس فى دمائه اذ جاءت اللحظة التى تحقق فيها

حلمه بالانخراط فى سلك الجندية · فهل ضاق الشاعر ثربانتس ذرعا بحياته الجديدة كخادم ووصيف وكاتم أسرار بالبلاط البابوى · هل اختار مهنة السلاح أو أن الجهاد المقدس هو الذى دفعه الى ذلك · ربما كانت المغامرة هى التى دفعت صاحبنا المتعطش للحياة والمحب للاستطلاع الى هذه الحياة الجديدة ·

وعندما بلغ نابولى قدم خطابات التوصية ، وكان الاستعداد للحرب قائما على قدم وساق فى الميناء · والتحق ميجل بفرقة الكابتن مندوثا ·

ـ ٢ ـ

ميجـــل فى معـــركة ليبـــانتو

تكونت فرق من الاسبان والايطاليين والسويسريين والألمان وخليط بابلى من مختلف الجنسيات · الا أنه كانت هناك لغة مشتركة بينهم هى تبادل السباب واللكمات ، واحتساء الخمر ، ولعب الميسر ·

وحان اليوم الذى أبحرت فيه الفرق فوق ظهور السفن من نابولى الى مكان التجمع فى مسينا بجزيرة صقلية · كان ميجل ضـــمن قوات السفينة الاسبانية « الماركيزا » تحت أمرة الجنرال فيجويروا الذى عركته الحروب ·

تحركت « الماركيزا » الى خليج مسينا حيث ألقت أكثر من مائتى سفينة مراسيها هناك · بقى البحارة فى انتظار تعيين القائد الأعلى الذى كان من الصعب العثور على من يشغل هذا المنصب بحيث توافق عليه مختلف الجنسيات · فالقائد اذا اختير من جنوا فسيكون ذلك اهانة لجنود فينيسيا ·· وهم الذين ظلوا يتحاربون عبر قرون عدة · واذا اختير من روما فلن يقبله الأسبان ، والاسبانى لن يستسيغه الايطاليون الذين يضايقهم الوجود الاسبانى فى بلادهم · وأخيرا بعد طول تردد وقع الاختيار على دون خوان النمساوى ·· أخ غير شرعى لملك أسبانيا ،وهو مع ذلك ليس اسبانيا ولا يمت الى أى من الأمم المتحاربة · انه وملك أسبانيا من أبناء الامبراطور شـــارل الخامس الذى كان عاهلا للامبراطورية الايطـــالية بالاضافة الى أنه كان ملكا على اسبانيا أيضا · وقد لقبوه بالمتهور الجرىء لما ارتكبه من مذابح فى الحملات التأديبية ·

تجمع أسطول ضخم يضم مالا يقل عن ثلاثمائة سفينة بلغ عدد مقاتليها سبعين ألفا من الرماة السويسريين ، والفرسان الألمان ، وجنود المدفعية من فرنسا وأسبانيا . وكانت القوة البحرية التركية مكونة من ٢٤٠ سفينة شراعية كبيرة من ذات المجاذيف ، وستين سفينة من الحجم الأصغر . وكان القائد الأعلى هو مؤذن زاده على .

وصل دون خوان الى مسينا ، وصعد الى سفينته ، وتحرك الأسطول عبر البحر الادرياتيكى ، التقى الأسطولان فى أضيق مكان بالخليج لم يكن عرضه يزيد عن ميلين بجوار قلعة ليبانتو .. وفجأة زمجرت المدافع فى السابع من أكتوبر عام ١٥٧١ بعد الظهر بوقت قصير . كان ميجل ساعتئذ ممددا فى فراشه داخل السفينة « الماركيزا » مريضا بالحمى تجتاحه موجات من ارتفاع درجة حرارته وانخفاضها فيحس بالقشعريرة .

اشتدت القذائف وارتفعت الصيحات ، وتصاعد ستار من الدخان الأسود الكثيف يلف السفن . لقد بدأ القتال وحاول ميجل أن ينهض ليشارك فى المعركة مع زملائه الذين سمع وقع أقدامهم وهم يهرولون الى سطح السفينة . حاول النهوض ولكنه شعر بدوامة من الدوار فسقط فى فراشه عاجزا يائسا . التحم الأسطولان فى معركة حامية الوطيس ، وسمعت أصوات تحطم الأخشاب وتكسر المجاذيف ، وتبادل المقاتلون القفز كل الى سفن الفريق الآخر ، فتصاعدت أصوات الاصطدام بينهما ، وجلبة الكلابات والخطاطيف الحديدية ، وقعقعة السلاح ، وصليل السيوف .

أيقن ميجل أن الأتراك هاجموا سطح سفينة الماركيزا ، فأسرع يضع خوذته فوق رأسه دون أن يعلم كيف فعل ذلك ، وألقى بنفسه من فوق الفراش ، وامتدت يده الى سيفه ولم يضيع وقته فى ارتداء دروعه ، بل هرول متعثرا وهو يلهث صاعدا الى السطح . وهناك اندمج كابوس الحمى مع كابوس الواقع . كان سطح السفينة مسرحا لعراك عنيف بين رفاقه والجنود الأتراك الذين اشتبكوا معا بالأيدى . تدحرجت بينهم كتل الدخان كالأمواج المتلاطمة فكانت لأبخرتها تأثير خانق فى رئتى ميجل . ووسط هذا الضجيج والعجيج سمع صوتا يعرفه : « خذ اثنا عشر رجلا فى القارب الملحق بالسفينة وحطموا خطاطيفهم وكلاباتهم الحديدية ! » .

وقف ميجل يترنح وهو يفتح عينيه ويغمضهما بسرعة باحثا عمن يستدعيه من الرجال ليرافقوه تنفيذا للأمر الصادر اليه . وما ان شرع فى التنفيذ حتى صعقه ألم مبرح هزه بعنف وجعله يدور حول نفسه . وعندما أفاق من الصدمة ، أمسك بذراعه ونظر الى أسفل فرأى يده قد تحولت الى كتلة مختلطة من الدم واللحم . لم يوقفه هذا عن اتمام ماعهد به اليه واستمات مع رفاقه لتنفيذ أوامر الكابتن . بل واستطاعت سفينته أن تستولى على احدى سفن الأعداء وتنزل علمها .

وهناك وصف عجيب لمعركة ليبانتو ظهر فى مدريد عام ١٨٥٣ حيث قام المؤلف، جيتان روزيل بالبحث فى الوثائق والسجلات والبيانات العسكرية المودعة بدور المحفوظات فى فينيسيا وسيمانكا ولندن ، وفيما يلى ماجاء فى احدى هذه الوثائق الرسمية :

« عثر الجاويشان ماتيو دى سان ـ استبان وجابرييل دى كاستانييدا على ثربانتس مريضا فى قمرته بالسفينة · وقد قدما فيما بعد شهادة عن تصرفه ابان المعركة · نهض ثربانتس من فراشه · وأكد الجاويشان أنه رغم القشعريرة التى انتابته بتأثير الحمى وجعلته يرتجف الا أنه توسل الى رئيسه الكابتن سان بدرو ليضعه فى أشد المواقع خطورة · وكنا نبغى أن نثنيه عن عزمه ، وأن نقنعه بأن يخلد الى الراحة ويركن الى الهدوء ولكنه أخذ يردد :أيهاالسادة ، ماذا يقولون عن ميجل دى ثربانتس ؟ مامن فرصــــة أتاحتها لى الحرب الا واغتنمتها لخدمة مليكى ، وهذا مافعلته دائما كجندى مخلص · وانى أتوق الآن لتأدية واجبى رغم أنف المرض والحمى ! ·· وقد حملناه أوامر القيادة العسكرية بالهبوط مع اثنى عشر رجلا الى أحد القوارب ، وقد قذف بنفسه فى العراك الرهيب الذى كان دائرا حيث اشتبك مع الأعداء فى جرأة وجسارة وحماس ، وأصيب بجرحين فى صدره · وقد وقع الكابتن الذى يعمل ميجل تحت أمرته صريعا بالقرب منه ··· » · وكان لثربانتس نصيبا فى هذه الوثيقة فقد كتب : « لقد فقدت استعمال يدى اليسرى كلية فأسبغت شرفا على يدى اليمنى » ·

استمر الاشتباك فى هذه المعركة الفاصلة ، واحترقت كثير من السفن، ومات المئات غرقا ·

ومن الواضح أن ميجل دى ثربانتس عندما كتب روايته دون كيخوتى فيما بعد كان متأثرا بما فعله فى المعركة وتنفيذه لأوامر قائده فنراه فى الرواية يقول على لسان دون كيخوتى :

« ان الجندى الذى ينفذ ما يأمر به القائد لا يقل فعله عن فعل القائد الذى أمر » ·

كذلك نرى ذكرى المعارك بين أسبانيا والاتراك قد أثرت فى ميجل وهو يكتب فقد ذكر على لسان دون كيخوتى الحرب الناشبة بين الجيش الذى يقوده على فنفارون حاكم جزيرة سرنديب وجيش عدوه بنتابولين ملك القرمانتيين (وهم شعب فى وسط أفريقيا كما ذكر بعض الشراح) ·

انتهت معركة ليبانتو بهزيمة ساحقة للاتراك لميحلم بها أحد · فقد خسر العثمانيون فى هذه المعركة الكبرى ٢٦٠ سفينة منها ٩٤ غرقت أو احترقت أوتحطمت عند الشاطىء ، بينما أسرت السفن الباقية وقسمت بين الحلفاء · وبلغ عدد قتلى العثمانيين ثلاثة آلاف ، وأطلق سراح ١٥٠٠٠ أسير أوروبى من رقيق السفن الذين كانوا يجذفون داخل سفن الأسطول

العثمانى . وخسر الحلفاء الأوروبيون خمس عشرة سفينة وثمانية آلاف رجلا ، وضمت قوائم القتلى والجرحى فى ذلك اليوم أسماء كثير من الأمراء والنبلاء . ولكن الذى يهزنا هو اسم ميجل دى ثربانتس (مؤلف دون كيخوتى فيما بعد) الذى كان يرقد فى جوف السفينة بين غيره من الجرحى فاذا به يسمع صدى خافتا لآلاف الحناجر تردد الأناشيد فرحا بالنصر .. ولكنه ظل أياما طويلة لا يدرك شيئا غير الألم .

اضرمت النيران فوق قمم الجبال تزف أخبار النصر الى أوروبا ، وانطلقت الأجراس تجلجل فى مدن ايطاليا وأسبانيا .

عانى ميجل آلاما مبرحة وهو يرقد وسط أنين الجرحى وحشرجتهم . كان يسترد وعيه فى بعض الفترات فرأى شبح أحد الرهبان وهو يتنقل وسط الظلمة ، وينحنى فوق الأجساد الممددة ، وعندما جاء دوره انثنى الراهب ناحيته ليطمئن على تضميد جرحه .

ورغم ما حاق بالأتراك من هزيمة بحرية ، الا أن ذلك لم يحطمهم .. فقد كانوا أمة من الفرسان استطاعت فى غزواتها أن تقترب من فيينا . لقد وسعوا مملكتهم فى افريقيا فامتدت على طول السـاحل من مصر حتى مراكش ، وذهبوا يغزون الشرق حتى كبحت الحشود الهندية جماحهم ، لم يتركوا مكانا يمكن أن تحملهم اليه الجياد . بيد أن الخبرة كانت تعوزهم فى المعارك البحرية ، لذلك انهزموا فى موقعة ليبانتو .

استعرض دون خوان النمساوى القوات العسكرية بمناسبة النصر ، وزار الجرحى وهنأ ميجل على حسن تصرفه ، وأنه أبلى بلاء حسنا فى المعركة ، وكافأه بزيادة مرتبه الشهرى .

أقلع الأسطول فى اليوم العشرين بعد المعركة .. ويالها من أيام لاقى فيها ميجل عذابا أليما .. فقد اكتظ جانب السفينة المخصص كمستشفى بالجرحى الذين تجاوز عددهم المائة فى مكان لا يتسع لأكثر من ثلاثين وقد تصاعدت رائحة الدم المتعفن والجروح المتقيحة فى جو حار خانق . كان ميجل يرقد فى شبه ذهول وقد تمددت يده اليسرى فوق جسده كما لو كانت عضوا غريبا عنه ، وكان الألم يمزق صدره طول الوقت .

علت الابتسامة وجه ميجل عندما أحس بالسفينة تتحرك وراح فى سبات عميق .

وفى مسينا رغم ازدحام الثكنات وخيام المستشفى ، الا أن المكان كان مشرقا نظيفا كأنه الفردوس اذا قورن بالسـفينة .. وتولى الدكتور جريجوريو لوبيث رئيس أطباء الجيش علاج ميجل بنفسه . وأسفر الفحص الطبى لميجل عن وجود ضلع مكسور كان سببا فى الآلام المبرحة التى شعر

بها ، ولكن الأمر لم يكن خطيرا ، بل بدأ يلتئم • أما يده فقد وقف الطب أمامها عاجزا ولولا قوة بنيته لأصابته الغنغرينا •• وقد واساه الطبيب قائلا : « لتكن يدك لا نفع يرجى منهـــا ، ولـكنك محظـــوظ اذ مازالت موجودة » •

مكث ميجل فى المستشفى حتى التأم ضلعه المكسور تماما • كانت ستة أشهر قد انقضت عندما أرسل تقريرا الى فرقته العسكرية يعلن فيه اسـتعداده لأداء واجبه • لقد صـــدرت الأوامر وهو طريح الفراش فى المستشفى بترقيته ، كما منح وساما • وعندما عاد الى الخدمة العسكرية أصبح دون ميجل دى ثربانتس ضابطا برتبة ملازم •

ـ ٤ ـ

ميجل فى قلعة نابولى

قال الفارس النبيل دون كيخوتى ، كما سيظهر لنا فى سنوات قادمة فى الرواية التى كتبها ميجل : « ألا بعدا لأولئك الذين يقولون لك ان الآداب افضل من الأسلحة وتفوقها نفعا ! » •

ان دون كيخوتى ، كما ستراه فيما بعد ، قد عده البعض غير مالك لقواه العقلية تماما •• كان قد جن افتتانا بموضوع الفروسية • ومع ذلك كان يتحدث بكيفية جذابة ساحرة عن أى موضوع آخر تحت الشمس كمفكر عاقل منطقى فيترك سامعيه مشدوهين مذهولين •

لاشك اذن أن دون كيخوتى عندما تكلم عن أمجاد الجندية فانه كان يتحدث بلسان المؤلف دون ميجل •

كان من الصعب على المرء أن تكون له يد عديمة النفع ، وأن يكون فى الواقع بيد واحدة فى سن الخامسة والعشرين • ولكن ميجل كشخص معوق تحمل عاهته بكبرياء قائلا : « ان الندوب التى يصاب بها الجندى •• ان هى الا نجوم ترشد الآخرين الى سماء الشرف » •

ومن أشق الأمور أيضا أن يزج بالمرء فى موقع عسكرى بكل مافيه

من رتابة وملل بعد هذه المعركة التى تفجرت لفترة قصيرة فى ليبانتو ·· ولكن ميجل لم يتذمر من هذا الوضع ·

كانت الحامية تقيم فى قلعة قديمة معتمة فى نابولى ، وهى قلعة أثرية من أيام النورمانديين منذ ثلاثمائة عام مضت · كانت الحجرات والغرف شديدة الرطوبة على نحو مزعج ، والقلعة من الداخل عبارة عن متاهة معقدة محيرة من السلالم والدهاليز والسراديب ·

أما أفراد الحامية من الجنود فقد كانوا خليطا جمعتهم المصادفة ، وأبعد من أن يكونوا رفقاء سلاح · أما الضباط فقد كانوا شبانا يصغرون ميجل ، وقد ازدهاهم الغرور ، يمرحون فى صخب ، ويتبرمون من حياة الحاميات العسكرية ، ولم يكن لديهم أية فكرة معقولة عن ملء ساعات فراغهم · ولذا كانوا يرحبون بأى لهو أو انحراف ينتشلهم من رتابة حياتهم ومللها ·

كان ميجل ينظر اليهم فى فزع عندما شكلوا جماعات وعصابات راحت تتجول فى الريف وتضايق الفلاحين وتزعجهم وتفتش بيوتهم ويعملون فيها نهبا وسلبا ويعودون درحين كأنهم صبية ظفروا بصيد ثمين · لم يكونوا أشرارا كأفراد ، ولكنهم كزمرة اجتمعت معا تملكتهم روح سيئة خبيثة وانتقلت عدواها بينهم ·

لم يكونوا يتورعون عن تعليق فلاح فى شجرة بعد أن يتراهنوا على أن الغصن لن يحتمله · وقد يخز أحدهم رجلا بسيفه ليرى مدى رهافة نصله · كانوا دائما جوعى ، فقد سئموا طعامهم الرئيسى اليومى المتكرر داخل الحصن ، فانطلقوا فى شراهة ونهم وراء الغذاء ·

ومع البحث عن الطعام كانوا يسعون أيضا وراء الفتيات الجميلات ، وكثيرا ما كانت المعارك تنشب بين شراذم الجنود ، تكون احداها أسبانية والمجموعة الأخرى سويسرية أو المانية ، كذريعة لنجدة فتاة فى محنة واغاثتها ·

أما بالنسبة لميجل فكان لديه ما يفعله غير ما يرتكبونه من حماقات · ففى ساعات الفراغ كان يذهب الى الأديرة ليستعير منها الكتب · وهناك وجد ميجل الفرصة ليتبادل الأحاديث والنقاش الجاد مع الرهبان كما كان يفعل فى الماضى عبر الطرقات · ولكنه ميجل الذى لم يقصر حديثه على هؤلاء الرجال ، بل وسع دائرة خبراته فكان يتكلم مع كل من يقابله فى الطريق ·· فيتجاذب الحديث مع الفلاحين عن محاصيلهم أو يثرثر مع أصحاب الأنزال والحانات ·

وفى كل صباح كانوا يمارسون التدريب على المبارزة بالسيف داخل

قلعتهم • ولما كانت احدى يدى ميجل لا نفع فيها ، كان التدريب صعبا شاقا بالنسبة اليه ، ولكنه كان يقف كالطود الشامخ فوق حلبة المبارزة بما لا يدع مجالا للشك فى عراقته ونبالة أصله ومحتده • ورويدا رويدا أصبح بمثابة أب اعتراف لبعض الضباط • ان السنوات الطوال التى قضاها وهو يذرع الطرقات فى الماضى ، حيث تعود أن ينصت ، ويوجه أسئلته ثم ينصت مرة أخرى ، جعل منه ذلك رجلا يلجأ اليه الآخرون باحساس فطرى عندما يرغبون فى التحدث عن أنفسهم وينشدون عنده النصح • ان مشاكل معظم الرجال متماثلة : الديون ، المنازعات والمبارزات ، ومسائل الحب والعاطفة • كان أغلب المشاكل يمكن حلها بتفسير واضح صـــريح أو بالاعتذار لمن أخطأوا فى حقه • فهذا الطريق السهل القصير ليس فيه أى مساس بشرفهم بل انه أكرم لهم • كانوا ينادونه بصاحب اليد الواحدة أو الأقطع ، فكان ميجل يستجيب لندائهم بكل فخر وكبرياء • « ان مايحمله الجندى من ندوب ان هى الا نجوم •• » •

تمر الأيام فى القلعة لتصبح سنينا ، ويضيق ميجل ذرعا بهذه الحياة الرتيبة التى لا تنتهى ، وليس هذا بالجندية •

وفى غمرة قلقه وشقائه وتعاسته ، وجد ميجل عزاءه الوحيد فى الشعر ، الذى حاول قرضه ذات مرة وهو فى مدريد • وهناك وحده مع يراعة وقرطاس وبعض الحبر يمكنه أن يكتب أشعارا • ولكن هيهات •• فالحياة العسكرية لا تعطى الانسان وقتا كافيا ليفكر ويتأمل • فهى حياة يعيشها المرء فى صحبة الآخرين •

استيقظ ميجل ذات صباح ليفاجأ بدهشة العمر ! كان هناك زائر ينتظره •• تفرس ميجل فيه غير مصدق ، والرجل يتقدم اليه بجســده الضخم وبنيته القوية ورأسه المستدير الذى أثار ذكريات قديمة •• اندفع الرجلان يحتضنان بعضهما • لم يكن الزائر سوى رودريجو •• الشقيق الأكبر الذى غاب عن ناظرى ميجل وتلاشى نهائيا منذ مالا يقل عن خمسة عشر عاما ! اصطخبت فى قلبه موجة من الحب لرفيق الطفولة فطفرت الدموع من عينيه ، وتأثر رودريجو بالمثل رغم ما يتصف به من هدوء وتحكم فى انفعالاته • تلاحقت التحيات والايضاحات والتفسيرات السريعة • كان رودريجو جنديا صلب العود زادت الغزوات والحملات العديدة من خشونته ، واستطاع بنظرة واحدة أن يرى كيف تسير الأمور فى حامية نابولى هذه ، وأنها غير واعدة بالنسبة لميجل ومستقبله وهو الذى أمضى بها خمسة أعوام والكولونيل يعده كل عام بمهمة فى جهة أخرى أو بالترقية دون أن ينجز ما وعد • لقد خدم ميجل فى جيش دون خوان وكان قائده الأعلى ! فهو لن يتوانى عن اعطائه خطاب للملك نفسه ، وبمثل رسالة التزكية هذه سيتمكن ميجل من اختيار المكان الذى يروق له •

لجأ ميجل الى الجنرال فيجويروا فى مقر قيادته فى مسينا ، وهو الذى خدم تحت امرته أيضا فى ليبانتو وأثنى على شجاعته فى المعركة ، وبمعاونته استطاع أن يحصل على خطاب التزكية من دون خوان النمساوى ·

لم يبق أمام الشقيقين سوى خطاب آخر ·· شهادة بحسن السير عن المدة التى قضاها ميجل فى نابولى وصقلية · وكان من السهل الحصول عليها من صديقه حاكم المنطقة دوق سيزيا ·· دون كارلوس دى آراجون ·

حصل ميجل على ثلاث رسائل ، وهى وثائق ثمينة ليقدمها للملك عائدا الى أسبانيا ينشد الحصول على ترقية ·

ودع ميجل زملاءه فى حامية نابولى ، وصعد الأخوان الى السفينة « سول » (الشمس) فى الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٥٧٥ · وهكذا بعد غيبة ست سنوات يعود ميجل الى أسبانيا ·

— ٥ —

ميجل أسيرا فى الجزائر

كان أقصر طريق للرحيل من نابولى بايطاليا الى بالانثيا فى أسبانيا هو الابحار غربا خلال مضيق بونيفاتشو بين جزيرتى كورسيكا وساردينيا ·· غير أن قبطان السفينة الشمس ، ككل بحارة البحر المتوسط فى تلك الأيام ، كان يعيش فى خوف من القراصنة المغاربة ، ففضل أن يسير فى طريق أكثر طولا على امتداد الساحلين الايطالى والفرنسى · كما سره أن يكون فى صحبة سفينتين آخرتين · وكانت السفن الثلاث تلجأ ليلا الى أحد الموانى أو تلقى بمرساتها على مقربة من الشاطىء ·

وبينما كانت السفن تقترب من جزر ايريس التى لا تبعد كثيرا عن طولون بفرنسا ، اذا بأسطول صغير من القراصنة الجزائريين يحاصرونهم ويستولون على السفن ، ويقع منفيها أسرى بعد أن جردوا قباطنتها وبحارتها وركابها من سيوفهم · وألقى رئيس القراصنة آرنوت مامى أوامره بالاتجاه صوب الجزائر ·

قام القراصنة بتفتيش امتعة كل راكب وفحصه كما لو كان حصانا

أو بقرة · كانوا يفحصـون أسـنانه وعضلاته ، وينعمون النظر بدقة فى أوراقه · فالشبان الأصـحاء الأقوياء يباعون كأرقاء بأثمان مغرية فى الجزائر · أما اذا كانت أمتعة الراكب وأوراقه تدل على مركز أو جاه فمعنى ذلك الحصول على فدية كبيرة ·

وعندما جاء دور رودريجو ليفحصوه ويختبروه راق لرئيسهم قوة عضلاته ومتانة بنائه رغم أنه لم يكن صغير السن · وحل دور ميجل فقطب رئيس القراصـنة جبينه وهو يحدق فى يده المشوهة المعوقة ·· فمثله لا يساوى كثيرا فى سوق النخاسة · فحص أوراقه وهو مازال يلوى سحنته فعثر على الرسائل الممهورة احداها من الجنرال فيجويروا ، والأخرى تحمل توقيع دون خوان النمساوى ، ومعنونة لشخصية لا تقل عن ملك أسبانيا نفسه · انفرجت أسارير الرجل ، وأطلق صفير الاستحسان من بين أسنانه ·

قيدوا الأسرى مع بعضهم البعض ، وحشروا فى عنبر السفينة ، وأغلقوا الأبواب دونهم ، فعانوا يومين من دوار البحر ، ومن الجو الخانق، والمياه المالحة التى كانت الريح تصبها عليهم · كان ميجل وشقيقه يعزيان بعضهما بأنهما سيهربان كما يهرب غيرهم · وأخيرا وصلت السفن الى عاصمة الجزائر · قسم القبطان والقراصنة الأسرى الى مجموعتين ·· الأقوياء والضعفاء · غاص قلب ميجل فى صدره وهو يراهم ينتزعون أخاه من جانبه ، ويدفعون به الى مجموعة الأقوياء ، بينما تركوه بيده العاجزة مع فريق الضعفاء ·

أخرجوا الأقوياء أولا لارسالهم الى سوق العبيد · ثم جاء دور ميجل ليسوقوه مع فريقه الى السوق ·· حيث وجد منصة صغيرة فى وسط المكان وقف فوقها رجل أسود فى ملابس حريرية وبجانبه جزائرى يعرضه فى المزاد وتحلق حوله الناس · كانوا يجلبون العبيد من نواح كثيرة ·· من رجال القبائل من داخل افريقيا مثل الرجل الأسود الذى بيع من لحظة · وكان هناك رجال ونسـاء من الشـرق ، وكثير من الأوروبيين ، مثل ميجل ورودريجو ، الذين أسروا من أعالى البحار ·

كانت عينا ميجل تدوران فى كل اتجاه علّه يرمق أخاه ، ولكنه لم يوفق · وحان دوره فأوقفوه فوق المنصة ، وتحدث القرصان بضع كلمات قصيرة سريعة · وكان يقبض باحدى يديه على السلسلة الحديدية التى قيد بها ميجل ، وأمسك بخطاباته فى اليد الأخرى · لم يفهم ميجل أية كلمة فاه بها الرجل ، ولكنه استطاع ادراك أن القرصان يزايد عليه محاولا أن يعادل يده المعاقة ملوحا بالخطابات ، واعدا من يشتريه بثروة ضخمة تدفع له كفدية · كم هو مفزع مرعب مخيف أن يقف الانسـان هكذا ·· لا شىء غير سلعة تباع وتشترى · ان الخطابات ، ويد ميجل المعوقة قد

جذبته مصيرا أليما ، وهو ان يقضى بقية حياته كرقيق يعمل مجذفا على سفينة شراعية كبيرة   ان عذاب مثل هذا المصير فوق احتمال البشر .

تقدم منميجل رجل جزائرى بدين زايد عليه وهو يبتسم ابتسامة شرهة عريضة فقد أغرته الرسائل . وبعد بضع كلمات متبادلة أمسك أحد اتباع دالى مامى بسلسلة ميجل واقتاده خلفه . كان دالى مامى الذى اشترى ميجل من الأثرياء الذين جمعوا ثروتهم من استثمار البشر من أمثال ميجل . كان الرجل يحتفظ فى فناء قصره بمجموعة كبيرة من الأسرى التعساء منكودى الحظ انتظارا للأموال التى تدفع فدية لهم من أصدقائهم أو أقاربهم فى الخارج . وانضم ميجل اليهم . وسرعان ما أحضروا له ملابس نظيفة ووجبة شهية . ومن ثم اقتاده أحد الحراس ليمثل أمام دالى مامى الذى فحص رسائل الأسير بعناية . طلب من ميجل أن يكتب الى أسرته فى أسبانيا طالبا خمسمائة من الدوكاتيات الذهبية . كانت فدية ضخمة لا يقدر على جمعها أفراد أسرة ميجل وجميع أقاربه وأصدقائه . أعاده الحراس الى الفناء بعدأن زودوه بأدوات الكتابة ، فشرع يكتب فى يأس .

انغمس ميجل فى الحياة الجديدة فكان يتناول غذاءه ويغتسل ويتجاذب الحديث مع غيره من الأسرى ويستمع الى قصصهم وحياتهم السابقة فى أوطانهم .. فرنسا او ايطاليا أو أسبانيا .. وأنصت الى مشاعرهم المتباينة من حب وحزن ، وكيفية أسرهم ، وآمالهم فى المستقبل . كما عرفوا عنه كل شيء . الأيام تمر ، والرتابة والضجر تكتنفهم ، وأصبح كل منهم جزيرة من الوحدة والقنوط ، وقبع ميجل يتأمل فى سخرية مصيره . فبعد خمس سنوات فترت فيها همته لما عاناه منالضجر فى حامية نابولى بدأ المستقبل يبتسم امامه ، وفجأة وئدت هذه الابتسامة ، وتحطمت آماله عندما أصبح أسير القراصنة .. وهاهوذا قد عاد الى سأم ويأس أشد وطأة مما لاقاه فى نابولى قبل عودة رودريجو .

انقضت عدة شهور قبل أن يتلقى ميجل خطـــابا من والدته دونيا ليونور التى تصرفت كامرأة منالنبلاء .. تناشده الصبر وعدم اليأس ، وأنها ستعمل المستحيل مع أبيه لتجمع له الفدية . أغلق ميجل عينيه وقد غمرته موجة من الحزن لما سيكبد أباه .. فالرجل لامحالة سيبتلع كبرياءه ويقف أمام ذوى النفوذ سائلا المعونة ، ناهيك بشقيقاته اللاتى سيضحين بما يملكنه من حلى قليلة عسى أن يقدمن المساعدة من أجل أمل بعيد المنال .

الســـجناء يتحدثون الآن عن الهرب . حاول ميجل أن يهرب هو وبعض زملائه آملين الوصول الى حيث يقطن بعض الأوروبيين ليختبئوا لديهم حتى يمكنهم تأجير سفينة تقلهم الى اسبانيا .

باءت محاولة الهرب بالفشل فقد اكتشفهم حراس دالى مامى فى اليوم

التالى بعد أن غلبهم النعاس لما أصابهم من تعب ونصب · توقعوا عذابا أليما وميتة شنعاء عندما دفعوا بهم أمام دالى مامى · خطا ميجل الى الأمام وبدأ يتكلم على مهل مستعملا ما استطاع أن يتذكره من كلمات لغة الجزائريين ، وسأل الرجل أن يعاقبه هو ، فهو الذى حرض زملاءه على هذا العمل الأحمق وناشده الرحمة بالرفاق ·

- مرت فترة صمت رهيبة أصدر بعدها دالى مامى امرا ، فأمسك الحراس بالأسرى المرتجفين واقتادوهم الى الفناء الذى غادروه الليلة الماضية · وقفوا فى ذهول غير مصدقين · ما هو سر ميجل ـ هذا الجندى الأسبانى الذى بلغ التاسعة والعشرين من عمره ؟ كيف استطاع أن يؤثر على تاجر الرقيق الجشع القاسى ، ويجعله يعفو عنهم ؟ أهى حرارة صوته، وصدق عينيه ووجهه ؟ أم أن دالى مامى قد أبقى على حياة ميجل آملا أن يحصل على الخمسمائة دوكاتيات من ورائه ؟ لا أحد يعلم ·· ربما كان الباعثان معا ·· قليل من الشفقة مع بعض الطمع يكمنان وراء هذا الصفح ·

بيد أن هناك شيئا واحدا نعلمه ، فبعد انقضاء خمسة وعشرين عاما منذ ذلك الوقت ، كان ميجل ثربانتس يكتب الرواية التى تضمنت كثيرا مما رآه ، ومما جال فى فكره ، وخبره فى حياته ، وتسنح لنا مخاطرة من خبراته فى الجزائر · ان دون كيخوتى ·· بطله فى الرواية لم يأسره أى قرصان ، ولكنه فى مشواره الطويل الذى سلكه ، وشق به طريق حياته كفارس جوال ، قابل رجلا كان أسيرا ·

وعندما قص هذا الأسير حكايته على دون كيخوتى الذى افتتن بها وخلبت لبه ، فاننا نعثر على مفاتيح كثيرة لما كانت عليه حياته داخل سجنه ، ليس هذا فحسب ، بل انها تلقى الضوء على ميجل نفسه وتشير شاهدة عليه · فبينما كان فى سجنه بمدريد يكتب روايته لم يستطع ثربانتس ذو اللحية الرمادية أن يقاوم النكتة · انه يبتسم ولسانه يدور فى فمه فيقول الأسير : « ان الشخص الوحيد الذى فهم سيدنا كان جنديا أسبانيا يدعى سابدرا · فرغم أن هذا الرجل قد أتى بأعمال ستظل محفورة فى ذاكرة هؤلاء الناس لسنين عدة قادمة ، وخاصة فى محاولاته للحصول على حريته ، الا أن المغاربة لم ينالوه قط بأى ضر ، ولم يضربوه أية ضربة ، ولم يأمروا بجلده ·· وقد غمرنا الخوف جميعا من أن أقل ماسيناله سابدرا كجزاء على افعاله الكثيرة هو وضعه على الخازوق ، وهو نفسه قد خشى ذلك أكثر من مرة » ·

وهكذا يقدم لنا دون ميجل نفسه عندما كان شابا وهو يضحك فى شىء من السخرية · ونلاحظ أن سابدرا هو مؤلف رواية دون كيخوتى نفسه ، فاسمه الكامل : ميجل دى ثربانتس سابدرا ·

ان المحاولة الفاشلة التي قام بها للهرب من أسر دالى مامى قادته الى أن يحاول مرة أخرى • ولكنه خاب فيها أيضا • وكما حدث من قبل « لم يناله المغاربة قط بأى ضر » •

حدا به فشله الثانى الى التفكير فى خطة أخرى للهرب ، وكانت هذه المرة على نطاق أوسع بحيث تشمل عشرات من الأسرى الأوروبيين فى كل الجزائر لتمكينهم من الهرب فى سفينة تستأجر لهذا الغرض •

وفى رواية دون كيخوتى التى كتبها ثربانتس نجد الأسير يقص حكاية تتضمن كثيراً من العناصر التى كانت بلاشك جزءا من الخطة التى وضعها ميجل • وأخذ الأسير يسرد كثيرا من التفاصيل : كانت تطل على فناء السجن الذى زجوا بى فيه ، نوافذ خلفية لبيت يملكه أحد المغاربة الأثرياء من علية القوم •• ووفقا لعادات هذه البلاد لم تكن النوافذ غير طاقات ضيقة عليها مشربيات غليظة ضيقة الفتحات • ومن هذه النوافذ كانت ابنة المغربى الجميلة ترقب الأسير ورفاقه • وتقع الصبية الحسناء فى حب الأسير الوسيم الذى شاهدته فى الفناء ، وتلقى اليه بالرسائل من نافذتها مبشرة اياه بأنها ستمد له يد المساعدة هو وزملائه حتى يتمكنوا من الهرب ـ وذلك اذا أخذوها معهم • يجيبها الأسير فى رسالة التقطتها منه بعد أن ربطها فى خيط أدلته اليه بأنه جد سعيد ليتعاون معها • وتقذف اليه بكثير من الذهب فى منديلها المعقود ليستطيع أن يستأجر سفينة تنفيذا لخطة الهرب •

ولكن للأسف يبدو أنه لم تكن هناك عذراء مغربية مليحة ضمن خطة ميجل ، بل كما كان الحال فى محاولة هربه الأولى ، احتاج الى حليف يتعاطف معه ويناصره من أهل منزل دالى مامى • واعتمد أيضا على صداقة الحراس التى استطاع أن يعقدها معهم ، وخاصة ذلك الحارس الذى كان ميالا الى ميجل •• فهو الذى جاءه بالأنباء السارة عندما أخبره بأن رودريجو مازال حيا يرزق ، وفى حالة طيبة فى منزل آخر لأحد المغاربة فى الجزائر •

استطاع ميجل عن طريق هذا الحليف وبعض الحراس أن يبعث بالرسائل لبعض الأوروبيين المقيمين على امتداد الساحل الجزائرى يسألهم المعونة فى خطة الهرب وزحفت اليه الوعود بالمال والمعاونة ببطء •• وانتشر الأمر بين السجناء الأسرى فى مدينة الجزائر • تقدمت الخطة وقام الأصدقاء الذين يقيمون بعيدا على الساحل باستئجار احدى السفن التى ستتخفى كسفينة تجارية تتنقل بحذاء الشاطىء ، وما أن يتجمع الأسرى فى المكان المحدد للالتقاء ، فان السفينة سترفع مرساتها وتقلع بهم صوب أسبانيا •

كرس ميجل كل وقته ليضع التفاصيل بعزيمة لاتلين ودقة متناهية وهو

يستغل كل ما يمتاز به من صفات كانت ستؤهله ليصبح قائدا عسكريا لامعا متألقا لولا الحظ الذى مال به · ألم يقل له الكاردينال جوليو أكوافيفا ذات يوم فى روما منذ زمن بعيد : « ســتصبح جنديا عظيمـا ، فأنت تتحلى بالشجاعة والذكاء والرزانة ، ولا ينقصك سوى الحظ » ·

وميجل يحتاج الى هذا الحظ الآن ·· فقد كان كل شىء معدا ، ولم يبق على الخطة الا وضعها موضع التنفيذ · وبلغت الاشارة الى الأسرى فى كل الجزائر ·· « هذه هى الليلة » ·

وفى تلك الليلة أعطى ميجل الاشارة الى الرجال الذين تحلقوا حوله وقد حبسوا أنفاسهم ، فشرعوا يتسلقون الأسوار · وفى نفس اللحظة كان عشرات من الأسرى الآخرين يتسلقون الحوائط فى صمت · وما أن تجمعوا حتى سمعوا أصداء النفير تملأ الآفاق بدويه ·· وأخذت تقترب ، ومعها وقع أقدام الجمال المسرعة وهى تثير سحبا من الغبار تعلن قدوم جحافل الجنود الأتراك ·

لا ريب أنه قد حدثت خيانة ، ولكن لم يكن هناك وقت ليتساءلوا فى دهشة عمن يكون ، وكيف ، أو متى · لقد أحدق بهم الفخ ! وأحاط بهم الجنود من كل جانب وقبضوا عليهم فى غلظة وخشونة وأعادوهم الى مدينة الجزائر ·· لا الى من يمتلكونهم ، ولكن للمثول أمام حسن باشا ، الحاكم التركى للاقليم الذى سيتولى محاكمتهم بنفسه · كان الرجل يظهر سيطرته على هذه الأرض الغريبة وقاطنيها من الجزائريين والأوروبيين الذين كان يتوجس خيفة منهم ، بأن سلك الطريق القسوة التى لا تعرف الرحمة ·

وعندما تكلم الأسير فى رواية ثرباتنس وهو يحكى لدون كيخوتى عن ملك الجزائر فانه كان يتحدث عن هذا الحاكم ·· « كان فى كل يوم يشنق هذا الرجل أو يضع ذاك فوق الخازوق ، ويقطع اذن آخر ·· كل ذلك لأى هفوة صغيرة ، أو بدون سبب على الاطلاق ، ليروى ظمأه لسفك الدماء » ·

كان هذا الحاكم بلا شك رجلا من ذلك الصنف ، رجلا صارت وحشيته أسطورية ·· ذلك الذى جىء بميجل ليحاكم أمامه · أفهمه الحراس أن عليه الاجابة عن ارتكابه لشىء لم يكن مجرد محاولة للهرب ، بل لقد وضع خطة واسعة النطاق جعلتها أقرب الى حركة تمرد وعصيان وثورة · انها مؤامرة استنهض فيها اقليما بأكمله من الجزائر · لقد علق حسن باشا كثيرا من الرجال فى أعواد المشانق لمجرد أن راودهم حلم مماثل ·

وقف ميجل أمام حسن باشا ليجيب عن جريمته ، فتكلم بهدوء · وكما فعل أمام دالى مامى لم يحاول أن يبرىء نفسه والتمس العفو عن الآخرين الذين هربوا معه ·

أيكمن سر ميجل فى أنه وقف مجازفا معرضا نفسه للتهلكة غير هياب ولا وجل ، دون أن يرتعش من أجل الابقاء على حياته ؟ أم أن حسن باشا لأول مرة يسمع رجلا يحدثه كما يتحدث انسان الى انسان مثله ؟ ان الرجل لم يصادفه طوال حياته كحاكم للاقليم الا الخضـــوع والاطراء والمديح والتملق والمداهنة والنفاق أما الآن فهو ينصت الى رجل يتحدث جهارا فى بساطة وأمانة دون لف أو دوران ، وقد امتلأ قلبه بحرارة الانسانية ٠

وكيفما كان هذا السحر ٠٠ لم يستطع الباشا أن يقاومه كما كان الحال بالنسبة لدالى مامى ٠ لقد حدثه ميجل وكأنه يعتقد أن الباشا انسان يعرف الرحمة ويحب السلام ٠٠ وفى لحظة انفعال وصراع داخلى حركت كلمات الرجل قلب الباشا فرق لها ٠

انتهى المشهد بالباشا يصدر أوامره بالاحتفاظ بميجل لديه ، واعادة باقى الأسرى الى من كانوا فى حوزتهم ٠ وأيا كان الدافع وراء ذلك كما يحلو للعالم أن يضع له تفسيرا سواء سمى ذلك ضعفا أو نزوة ، فهناك حقيقة ستظل باقية وهى أن الباشا قرر أن يبقى على حياة الأسبانى ٠٠ ودفع الى دالى مامى الخمسمائة دوكاتيات ٠٠ قيمة فدية ثربانتس ٠٠ وأصبح ميجل منذ ذلك الحين عبدا لحسن باشا يعيش فى السراية ٠

*

كان حسن باشا حاكم أو باى الجزائر يعيش داخل أسوار قصره الفخم الفسيح الأرجاء والذى يضم بيوتا ومساكنا تعرف بالسراية ٠

خطا ميجل داخل الســراية كأنه يدخل عالما عجيبا غير حقيقى ، عالما بدا له ، بفخامته وزخارفه المعمارية ، مسحورا اى واقعا تحت تأثير السحر ٠٠ ذلك الذى سيستهوى فى يوم من الأيام فارسه دون كيخوتى ٠

سبق لميجل أن شاهد فن المعمار المغربى المنتشر فى أسبانيا ٠٠ فكثير من مبانى المغاربة فى أشبيلية وغرناطة وقرطبة كانت من ذلك الطراز المغربى ٠٠ ولكنه كان يرمقها من الخارج ، أما الآن فانه يعيش فى قلب واحد من هذه القصور ٠ وهو يقضى ســاعات لا حصــر لها من الفراغ وقد استيقظت حواسه التى ازدادت حدة بعد أن زال عنه التوتر والقلق والاثارة التى صاحبت هربه ثم القبض عليه ٠ كان مســموح له بالتجول داخل السراية ٠ يالثراء هذا الجمال الذى أبدع بعناية ودقة وصبر ، وكان أيضا جمالا ذا نفع ٠٠ فالبواكى الأنيقة تعطى ظلا يقى المرء من الشـــمس ، والنافورات المزخرفة ترطب الجو ، والخضـــرة اليانعة تريح العيون ٠ وكانت هناك كائنات رقيقة رشيقة ٠٠ سمك ذهبى يسبح فى هدوء ٠٠ غزلان وطواويس تتجول فتضفى حيوية على المشهد دون أن تعكر صفو هدوئه ، وتبعث الألوان البهيجة احساسا بالسعادة لناظريها ٠

ما أغرب هذا السجن الذى يعانى منه ميجل ،اذ لم يطلب منه عمل أى شىء ٠٠ نفس الحال كما كان فى أسر دالى مامى ٠ وهنا كان يسمح له بحرية الاختلاط بالحراس والاتباع ٠ وسرعان ما أصبح واضحا أن حسن باشا معجب بعبده الجديد الذى دافع دفاعا مجيدا بليغا عن زملائه فى الأسر ٠ ازدادت امتيازاته ٠٠ فاصبح يتمتع بحرية الحركة داخـــل السراية وعبر حدائقها الشاسعة ، وكان يجاب الى كل ما يطلبه من الكتب والأوراق وأدوات الكتابة ٠ حقا لقد كان سجنا مسحورا لم يشوهه غير نشاز واحد ٠ فعندما اشتراه الباى بخمسمائة دوكاتيات دفعها كفدية لدالى مامى ، فانه بدوره ضاعف فدينه الى ألف من الدوكاتيات ٠ انها فدية وصلت الى حد الاستحالة ٠ ان دوكاتية واحدة كانت تكفى لشراء بقرتين فى وطنه أسبانيا ، واثنين أو ثلاث دوكاتيات خليقة بأن تقيم أود أسرة لمدة عام ٠

الزمن يمضى وميجل يعيش فى حلم ٠ كان يسمع أحيانا موسيقى ذات الحان غريبة ، وتارة يستنشق عبيرا زكيا يعبق الجو حوله دون أن يعرف مصدره ٠ أيكون ذلك بعضا من الســــحر ! وفى أحيان أخرى كان يجلس بجوار الزهور بالقرب من النافورة ، فيقترب منه بعض الخدم من ذوى الوجوه السوداء اللامعة وهم يسيرون على أطراف أقدامهم ويشيرون اليه بترك تلك البقعة ٠ ينتقل الى ناحية أخرى من السراية ، فلا يلبث أن يسمع من بعيد أصوات ناعمة ويلمح نساء الباشا اللائى قدمن من بيت الحريم ، وهن يقتربن من النافورة للتريض بعضا من الوقت ٠ انهن يسبحن ويغنين كما تنير الشمس ويعبق الزهر ، وينادين الطيور والغزلان ، وعلى حين غرة يقفلن راجعات بسرعة كما أتين ٠

كان ذلك حلما ٠٠ الحراس السود المدججون بالسلاح ، الأصوات الناعمة ، الموسيقى ، العبير الزكى ، النسمات الرقيقة ٠٠ وهو نفسه وسط كل هذه المناظر ٠٠ أكان هوأكثر حقيقة وواقعية منكل هذه الفانتازية المتعددة الالوان ؟! أهو حقا ميجل ٠ ذلك الرجل الذى يرتدى الملابس المغربية المزخرفة ؟ أكان جنديا من قبل أبحر على ظهر ســـفينة حربية واستنشق دخان البارود اللاذع ، وماهى الحقيقة والواقع ؟ أهى الشكل الخارجى ومظهر الأشياء ٠٠ ولها من القوة ما تستطيع به أن تصـــيغ وتشكل روح الانسان فى أعماقه ؟ أم أن روح الانسان هى الأقوى وهى الواقع والحقيقة والأصل الذى لا يشوبه زيف مهما قوبل بالرفض من العالم الجامد ؟

وفى أعوام قادمة ، كان على فارس ميجل ٠٠ دون كيخوتى أن يخوض المعركة فى طول أسبانيا وعرضها مسلما نفسه الى الجانب الروحى بعزيمة لا تقهر ٠ كانت مغامراته هزلية مضحكة فى أعين من شاهدوه ، وبالمثل لكل من قرأوا عنها ٠٠ أهناك شىء أشد عبثا ولامعقولية أكثر منرجل ينازل قطيعا من الأغنام وهو مقتنع انه يخوض معركة ضد جيش ؟ أيوجد شىء أكثر جنونا من هذا الرجل وهو ينحنى أمام فتاة ريفية فظة مشـــاكسة

معتقدا أنها حبيبته النبيلة دولثينيا (وهى نفسها من تلفيق واختلاق خياله) متخفية بقسوة تحت تأثير سحر خبيث ؟ لاشك أنها كانت أعمالا جنونية ، ولكن اخلاص الفارس وتفانيه من أجل ما يدور فى فكره من مثل أعلى . وتكريس نفسه لتحقيق هذه المثالية فى حب ووله شديدين بدا أكثر اشراقا وأشـد سـطوعا من حماقاته ، ففى النهاية هناك شىء آخر وراء كل الضحكات .. انه الاحترام أو الحب .. الروح ! انها الروح اذن ..

عندما ينتهى ميجل من كتابة الرسائل ، التى كان يبعث بها الى أسرته وأصدقائه فى وطنه اسبانيا ، والى أخيه رودريجو الذى لم يكن يبعد كثيرا عنه ، ولكنه مازال أسيرا ، كان يسمح له بزيارة الحى الأوروبى فى مدينة الجزائر ، وحين تغلق أبواب القلعة وراءه كانت الشمس تغمره بأشعتها المحرقة ، بينما يسير الحراس خلفه على مسافة خطوتين أو ثلاث دون أن يلقى اليهم بالا فهم لا يشاركونه هذا الواقع ، اذ يمتون الى عالم آخر خلف الأسوار . انه يخطو داخل طرقات المدينة وسط الضوضاء الصاخبة وروائح الثوم والبصل والزيت المتزنخ ، وروث الجمال والأسماك التى تطرق اليها الفساد ، ودخان شحم الضأن الذى يتصاعد من المطابخ . انه يتدافع وسط الزحام والهرج والمرج وتصك آذانه أصوات نباح الكلاب ونهيق الحمير ، وصرير عجلات العربات التى تجرها الثيران ، وصياح الباعة الجائلين ، ومطارق الحدادين . وهو مازال يغذى السير وسـط أصوات الدجاج ، وصـراخ الأطفال ، مارا بالجمال التى حطت عليها أسراب الذباب .

هذه هى الحياة الواقعية ، الحياة كما هى ، وهى ليست عالما جميلا ، ولكنه يعشقها رغم ذلك . وفيما بعد عندما خلق ثربانتس فارسـه دون كيخوتى .. رجلا نذر نفسه وكرسها من اجل الروح ، منحه تابعا أتى به من هذا العالم الواقعى .. وكان رجلا عمليا بدينا قصير القامة يدعى سانتشو بانثا . لن تجده من أذكى الناس ، ولا يميل الى التفكير المجرد ، ويدمن الأمثال . انه صلب جامد كالأرض يسند ويساعد ويؤيد كل خطط دون كيخوتى الطائشة الحمقاء ، ومشروعاته الوهمية . ويصنع الاثنان واقعا .. روحا تسمو وتحلق عاليا باحثة منقبة ، يشـدها الى الأرض أوانى الطعام ونيران مواقد الطهى والخبز الذى يشبع المعدة .

وفى احدى زيارات ميجل لتاجر أوروبى عقدت بينهما أواصـر الصداقة ، سمع منه أنباء مدهشة ! لقد وصـلت ثلاثمائة دوكاتية من اسبانيا لتدفع فدية له . ان أسرته قد قامت بتضحيات جسيمة حتى جمعت كل هذا المبلغ ، ولكنها للأسف لا تكفى مايطلبه حسن باشا لاطلاق سراحه .. ولكن بهذا المبلغ يمكن اطلاق سراح رودريجو .. وطلب ميجل الاسراع بحمل هذه الأنباء للبيت الذى يعيش فيه أخوه سجينا . وأسعد ميجل أن تعود الى شقيقه حريته وكأنه هو الذى حصل عليها ، وخاصة أنه كان

يخشى على أخيه من قوته البدنية التى كانت تؤهله لأن يقضى حياته مقيدا بالسلاسل الحديدية الى المجاذيف فى قاع السفن ٠

عاد ميجل الى القصر ومرت الشهور وهو يتردد كثيرا على المدينة ليتابع الخطابات ٠

صار ميجل معروفا فى الحى الأوروبى ، وأصبح له كثير من الأصدقاء من بين التجار ، وكذلك من القساوسة والرهبان ٠٠ اتحدوا جميعا لمساعدته ٠٠ كى يحصل هذا الرجل غير العادى على حريته ٠ كما أن أسرته أرسلت مبلغا آخر من النقود غير الثلاثمائة دوكاتيات التى سبق ارسالها ٠ لا أحد يعلم كيف استطاعوا ذلك ٠٠ ولم ينحصر الأمر فى هذا المبلغ اذ أن الأوروبيين فى الجزائر كانوا يجمعون الأموال من أجله ، ويتفاوضون مع الباى الذى كان متمسكا بعبده الاثير لديه ٠ ولكنهم استطاعوا أخيرا أن يخفضوا فديته الى ستمائة دوكاتية ٠ غير أن هذا المبلغ كان كبيرا بالنسبة الى ما أرسلته أسرة ميجل وما جمعه أصدقاؤه ٠ وبينما كان الموقف قد وصل الى حافة اليأس قدم أحد الرهبان الفرانشيسكان لانقاذه باكمال المبلغ وكان يدعى الأب خوان خيل ٠

أطلق سراح ميجل ، فذاق طعم الحرية مرة أخرى فى تلك الليلة ، واستنشق الهواء بطريقة أخرى وكأنه امتلك الدنيا ٠

وأخيرا حلت اللحظة التى لا تصدق ٠٠ واقلعت السفينة بميجل الذى وقف يلوح لأصدقائه الذين جاءوا لتوديعه ٠٠ وما ان أطل الصبح حتى اختفى الساحل الجزائرى وراء الضباب ٠

ـ ٦ ـ

ميجل يجرب حظه مع المرأة والقلم

كان ميجل يبلغ ثلاثة وثلاثين عاما عندما أطلق سراحه من الأسر وأبحر عائدا الى وطنه الذى غاب عنه اثنا عشر عاما بدأت بسنتين أمضاهما فى روما مع الكاردينال أكوافيفا ، ثم خمس سنوات فى الجيش ، تلتها خمس سنوات فى الأسر ٠

تاق للعودة الى الجندية ولكنه واجه الحقيقة : ملازم فى الثالثة والثلاثين من عمره شىء يدعو للضحك والسخرية • لابد أن كثيرا من زملائه السابقين قد وصلوا الى رتبة كولونيل وقد خاضوا غمار الحرب فى شتى المواقع ، وأصبح لديهم خبرة حقيقية بات يفتقر اليها • ولكنه اذا كان لا يستطيع أن يخدم وطنه ومليكه كجندى ، فلابد أن يخدمهما بأية طريقة •

وأخيرا لاحت له أرض الوطن فى الأفق البعيد • ووجد نفسه فى قارب صغير مع جمع كبير من المسافرين ، ونزل على الشاطىء الأسبانى • ومن هناك رحل الى مدريد التى وصلها بعد أيام قلائل • قوبل فى منزله بالترحاب ، والتفت الأذرع حول عنقه تطوقه • وسرعان مارأى مدى الفقر المدقع الذى تعيش فيه أسرته فأمه وشقيقتاه يرتدين ملابس رثة مهلهلة ، وشاهد أحذية ممزقة • كما أن الأثاث لم يكن موجودا • لم تكن هناك حاجة لأن يقول شيئا انه الثمن الذى تكبدته الأسرة لتدفع له الفدية هو وأخيه رودريجو • تمزق قلب ميجل من أجلهم • لقد عاد رودريجو الى الجيش الآن ، ويرسل لهم ماتيسر من مال • وهاقد حان الوقت ليساعدهم ميجل • ان أباه قد تقدم سنه • ومازال حاد الطبع سريع الانفعال ، ويصحو مبكرا ليعود مرضاه • أما أمه ، التى أصبحت فى أواخر الخمسينات من عمرها ، فتنهمك فى الأعمال المنزلية منذ الصباح الباكر حتى يجن الليل كعهده بها ، الا أن خطوط المرارة والتعاسة قد زحفت على وجهها • لا شىء مما كانت ترجوه فى حياتها قد سار كما ودت •• لم تصل الى مستوى النبلاء ، ولاشىء غير الشقاء الذى لانهاية له • ولم تتزوج البنتان فهما لا تملكان بائنة يقدمانها • فأصبحت المسكينتان آندريا وماجدالينا عانستين تحت أمرة والدتهما بعد أن جردا نفسيهما من القليل الذى يمتلكانه لانقاذ ميجل الذى أحس بالألم للثمن الفادح الذى دفع من أجل حريته • ظل يسعى يوميا الى لقاء أصدقائه ومعارفه القدماء او أشخاص جدد لعلهم يستطيعون مساعدته • لقد زار صديقه القديم الجنرال فيجويروا الذى أصبح عمله فى مدريد ، وذكره بالترقية التى كان قد وعده بها منذ خمس سنوات • فقطب الجنرال جبينه وأطل من النافذة وهو يقول ان خمسة أعوام قد غيرت كثيرا من الأشياء ، والموقف ليس ملائما الآن للترقية ، ولكنه سيزكيه ليجد وظيفة فى خدمة الملك • عانى ميجل كثيرا وهو يرى الجميع لا يحركون ساكنا ، ولا شىء غير تمنياتهم الطيبة •

مازال أصدقاء ومعارف المقاهى القدماء يتذكرونه ورحبوا به ترحيبا حارا • وراح كتاب الجماعة يلحون عليه ليكتب بعض ما قصه عليهم ، واستحثه الكتاب المسرحيون لكتابة مسرحيات •• فهناك دراما عجيبة ومثيرة للخيال فى كل هذه المادة التى جمعها • وأصر أصدقاؤه على أن يكتب مسرحية تقع احداثها فى الجزائر • ولكنه نهض من مكانه ليبدأ السعى المضنى من جديد بحثا عن وظيفة ، اذ أن الكتابة لن تحقق له

ما يرجوه • وفى غمرة يأسه استدعاه صديقه القديم الجنرال فيجويروا ليخبره أنه وقع الاختيار عليه لمهمة دبلوماسية فى أوران على الشاطىء الافريقى •

كانت هناك بعض العدالة الشاعرية أن يعود ميجل الى شمال افريقيا كرجل حر • فيرى فى كل مشهد ، ويجد فى كل مقابلة ، أبعادا جديدة كمبعوث الملك أسبانيا لا كعبد رقيق كما كان • الا أن هناك مشهدا لا يملك ازاءه الا الارتجاف ويقشعر بدنه عندما يراه •• عبد يساق الى سوق النخاسة أو جماعة من الأرقاء فى طريقهم الى نفس المصير الذى عاناه من قبل أو أسوأ •

لم يكن عمله فى أوران صعبا ، كما لم يستغرق منه وقتا طويلا لانجازه ثم عاد الى مدريد ، فأسرعوا يبعثون به فى مهمة أخرى بالقرب من البرتغال اقتضته البقاء هناك لعدة شهور •

ثم انقطعت المهام ، وبدأوا يعتذرون له وهو فى دهشة كيف لا يوجد ما يعمله من أجل وطنه ؟ فالامبراطورية الأسبانية تمتد لتشمل نصف العالم • بدأ ميجل يكتب الالتماسات للمسئولين من ذوى النفوذ من الذين يعرفونه أو لا يعرفونه ، واضطر أن يذكرهم بالتفصيل بكل ما خدم به أمته •• وعانى ميجل الأمرين • كان مجتمعا غريبا رآه ميجل فى غرف الانتظار التى قد يقضى فيها يوما كاملا علّه يجد فرصة يقابل فيها أحد الذين يعملون فى البلاط وحوله • لقد رأى المظاهر الكاذبة من انحناءات وابتسامات ومجاملات •

من الغريب أن سوء الحظ ظل ملازما ميجل مما حدا به فى النهاية الى أن يعود موليا وجهه شطر الكتابة التى لن يجنى من ورائها الا القليل •• ففى تلك الأيام لم يكن الكتاب يعملون من أجل الكسب ، فمواهبهم يجب الا تنتهك من أجل ربح مادى • فالكتابة لم تكن حرفة فنية مثل التصوير الزيتى الذى كانت سوقه رائجة • وأقصى ما كان يأمل فيه أحد الكتاب هو أن ينال كيسا من الذهب اذا أهدى عمله الى أحد الأمراء أو النبلاء • لم يكن ميجل يعرف أحدا منهم ، بيد أن الكتابة كانت تحمل اليه سرورا وسعادة ، ولم تكن تحتاج الى رأس مال • وطالما حثه عليها أصدقاؤه فى المقاهى منذ زمن طويل ـ فماذا عساه فاعل لازجاء وقت فراغه ؟ لقد بدأ ميجل يكتب •

فى ذاك الوقت حوالى عام ١٥٨٠ لم يكن باسبانيا سوى بضع مسرحيات ومعظمها كان من الفارصات البدائية • كما أن مسرحيات الآلام الدينية التقليدية كانت تمثل فى الاحتفالات الكنسية ، وكلها كان عرضها يستمر عدة أيام مما يثير الضجر •

كان قلب ميجل منذ نعومة أظفاره ينبض شغفا بالمسرح · وكان المسرح هو الذى يود أن يكتب له الآن · الا أنه كان مثل القلة الذين بدءوا يظهرون هنا وهناك ، أراد أن يخلق عمله من الحياة الواقعية ــ كما أراد أن تكون لمسرحياته حبكة يمكن فهمها · وكان فى هذا مايكفى لاثبات أنه واحد من أوائل مؤلفى أسابنيا العصريين · ومع ما كان يرغبه من التجريب فى الحبكة ، فانه اختار أن يكتب بلغة المسرح التقليدية وهى الشعر ·

وعندما شرع فى الكتابة وجد أن أصدقاءه كانوا محقين حين حثوه على أن يستفيد من بعض المشاهد الغنية بالألوان والنابضة بالحيوية التى التقى بها ابان الفترة التى قضاها أسيرا فى الجزائر · وسرعان ما أخذت مسرحيته تتشكل تحت عنوان : « تجارة الجزائر » · ولما انتهى ميجل من كتابتها قبلها مدير فرقة مسرحية صغيرة · ونقده فيها دوكاتية واحدة ، وأعطاه أيضا فرصة الاشتراك فى التمثيل · استيقظت فى ميجل موهبته الفطرية كممثل أمام هذا الاغراء · وسرعان ما وجد نفسه يخرج المسرحية أيضا فاكتشف فى نفسه موهبة لم يكن يعلم أنه يمتلكها · فأسعده وأثلج صدره أن يرى كلماته تدب فيها الحياة وتتحرك على المسرح · رأى ميجل أن مسرحيته لم تهز المتفرجين الذين لم يقابلوها بالابتهاج ولا بالاستنكار ، فأقبل على أعمال غيره من الكتاب بحماس محاولا اخراجها ·

حين انتهى عرض المسرحية قررت الفرقة أن الوقت قد حان للسفر والترحال كعادة الممثلين فى ذاك العصر ، وسألوا ميجل أن يرافقهم كمخرج للفريق فوافق فى غبطة ·

كانت مسئوليات ميجل كمخرج ومدير للفرقة متباينة ومتعددة ·· فهو الذى يختار المسرحيات التى ستعرض ، وهو الذى كان يعيد كتابتها وصقلها وتغييرها حتى يشعر بأنها ستلاقى نجاحا · وكان هو الذى يعد المسرح والملابس وقطع الاكسسوار · لم تكن هناك مسارح فى مدن أسبانيا الصغيرة ، وكان العرض يتم فى أى مكان تجمع ــ قد يكون فى غرفة رئيسية داخل احدى الحانات أو مخزن محاصيل زراعية أو صالة طعام ·

برزت قدرة ميجل القديمة على السيطرة على الناس · وكما كان الحال فى حامية نابولى أصبح محورا ينشده الكل معتمدين عليه · ويواصل أفراد الفرقة الصغيرة الترحال بعرباتهم من مدينة الى أخرى تحت وهج الشمس ، وأحيانا كانت الأمطار تبللهم ·

لم يحس ميجل بالرتابة رغم تشابه الأيام والمدن ، الا أنها كانت تعلم ميجلا شيئا جديدا عن المسرح والكتابة له ، والناس الذين يكتب من أجلهم، والناس الذين يكتب عنهم · وكان هناك شىء آخر ملأه بفرح وســرور وابتهاج غريب لم يحس بمثله من قبل ·· فهو لأول مرة يحب ! صحيح أنه كان يعجب بالحسناوات وحاول وهو يتعثر أن يطريهن متوددا اليهن ·

ولكنه كان خجولا حييا أمام النساء · انه يقدم لهن كل توقير واحترام ، ولكن مامن امرأة عرفها ـ والدته وشقيقتيه أو غيرهن ـ قد أعطته لمحة حنان ، أو الجمال المرتبط بالدفء العاطفى الذى يمكن أن يمنحه الحب · والآن هاهى ذى حياته تنقلب رأسا على عقب ! كانت تدعى فرانشسكا دى لاروزا ·· سمراء مليحة حسناء ذات أنفة وكبرياء ، ذكية جذابة · انضمت الى الفرقة بعد مغادرتها لمدريد بوقت قصير ، لم ير ميجل لها شبها ولا نظيرا ، وهى تختلف عن بقية نساء الفرقة ،فبجانب أناقتها ورشـــاقتها كانت معتدة واثقة من نفسها ، مما يوحى بأنها ابنة احدى الأسر النبيلة · كان هذا أمرا عسير التصديق ! فاذا كان الاحتمال بعيدا أن نجد رجلا نبيل الأصل كدون ميجل مثلا يجوب الطرق ويجوس خلال القرى والدساكر ، ويتنقل بين المدن مع فرقة متجولة من الممثلين ، فما بالنا بابنة عائلة نبيلة تصعد على خشبة المسرح ! لكأنها قفزت من أعلى صخرة عاتية أو قذفت بنفسها أمام جياد شاردة جامحة ! انها فى هذه الحالة تكون قد انتحرت وماتت فى نظر الأسرة · ولكن فرانشسكا لم تعر الأمر التفاتا · قد يكون من الجنون فى تلك الأزمنة أن يفكر انسان ان امرأة لها حق الحرية ، وأن تشعر أن الحياة يجب أن يحياها المرء وفق ما تمليه عليه ارادته وليس خضوعا لشكليات التقاليد وأنماطها الرتيبة الجامدة · كانت على استعداد لتحمل مسـئوليات ما تعتقده وفق ما صـــوره لها خيالها ، وأن تواجه المضـــايقات والمزعجات وأن تركب متن المخاطرات · كان ميجل يجلس مجاورا لفرانشسكا داخل العربة التى تهتز وترتج بهما فى أثناء سيرها خلال المناطق الريفية وهى تستمع اليه وقد سحرها بحديثه المثير وهو عن الجزائر وروما وليبانتو يحكى · ما أعذب أن يعملا فى احدى المسرحيات وهو يرى فرانشسكا ·· الشعلة السمراء تتألق مضيئة فى دورها الرئيسى ·· ما أمتع أن يخرج المسرحية وقد اندمجت روحاهما وهما يعملان معا لخلق شىء يفيض معنى وجمالا · ولكن كان شيئا عجيبا ورهيبا فى نفس الوقت أن المشاحنات لم تلبث أن دبت بينهما · شىء مخالف لما يعهده ميجل مع والدته وشقيقتيه وقلة من معارفه من النســـاء الأخريات فقد كانت الخلافات والمشاحنات تنشأ من « ماذا سيكون عليه الحال ، وماذا سيظن الناس » · ولكن فى هذه المرة نجمت المشاحنات عن اختلاف فى المبادىء ووجهات النظر وحقيقة ما يعتقده كل منهما فى أعماقه ·فهى تخشى أن كل ماحدثها به عن مواهبها كممثلة سرعان ما سيتبخر اذا ما تزوجا حيث سيرغب فى اعتزالها المسرح عائدا بها الى مدريد فى بيت كئيب لتقبع بداخله الدونيا فرانشسكا لا تبارحه الا لحضور القداس !

ومع ذلك كانت الفترات بين مشاحنة وأخرى تمر حلوة عذبة حتى جاء صباح أغبر عندما لم يجدها من بين أفراد الفرقة الذين جلسوا فى الحانة ينتظرونه · وأخبره صاحب النزل بأنها رحلت فى ساعة متأخرة من الليلة البارحة · وناوله الرجل رسالة مختصرة لم يكن فيها أكثر مما فتئت تقول له · انها تهواه وقد تستمر فى حبه على الدوام · ولكنها تخشاه فهو يفوقها قوة واذا ظلت بجواره فانه سيكسب المعركة ان عاجلا أو آجلا

وسـيصنع منها المرأة التي يود لها أن تكون . وعندما يتحقق له ذلك سيزهد فيها . ولهذا فانها تتركه قبل أن تسنح له فرصة يقلب لها فيها ظهر المجن ويهجرها .

حاول ميجل أن يقتفي أثرها .. أن يعثر عليها ليعيدها ويتزوجها . أعياه البحث عنها وهو يستحث الخطى وراءها قلقا مضطربا بعد أن زايله هدوءه المعهود . ذهبت جهوده كلها أدراج الرياح اذ لم تترك فرانشسكا أثرا ينم عنها بعد أن فرت .

مرت الأيام وميجل يتقلب على الجمر لا يذوق النوم في لياليه الا لماما .. أخذ يستعرض شريط حياته التي لم تستقم له وبدا له أنه خسر كل شيء تمناه . لقد رغب أن تواته فرصة للقتال في شجاعة وبسالة كجندي ولكنه قاتل للحظات قصار في معركة ليبانتو . وعندما كان في طريقه للترقية ولمعاودة القتال مرة أخرى وقع في أسر القراصنة . حاول الهرب المرة تلو المرة فمنى بالفشل . حاول أن يخدم مليكه في أية وظيفة فعاوده الفشل ثانية . وهاهو ذا أخيرا قد وجد امرأة يحبها .. امرأة بكل معاني الكلمة .. أبية النفس .. ذات أنفة وكبرياء .. تتوقد ذكاء والمعية .. ساحرة جذابة .. متقدة العواطف .. وقد فقدها هي الأخرى .

عاد اليه الهدوء في تلكؤ وهو يمضي كئيبا حـزينا في اطـار من الانقباضية . ولكنه مع ذلك كان يبتسم ويضحك لما يصك مسامعه من هزل ومزاح . كانت الضحكات المكتومة تنبعث منه بينما يضيء وجهه عندما يضج النظارة بالضحك أمام احد مشاهده الكوميدية فوق المسرح ولكن لا يلبث أن يعود الى وجهه الوجوم والحزن . فهو لم يكن سوى الفارس الحزين الطلعة الآن ـ كما سيطلق هذا الاسم ذات يوم على دون كيخوتي مستقبلا .

بات السفر مع المجموعة لا يحمل اليه سحره القديم . انه لا يعدو أن يكون حرفة وتجارة . فبعد كل ليلة يحصى عائد المسرحية ، فاذا كان أقل مما يأمله ، كان يذهب الى الممثلين ليخبرهم بالرحيل في صبيحة اليوم التالي . وكان أحيانا لا يجـد من النقود مايكفي لتوزيعـه على أفراد الفـرقة .

بدأ ميجل يراوده التفكير في تأليف كتاب . ولم يكن يدري عما اذا كان ذلك سيدر عليه مالا أكثر أم لا . ولكنه من المؤكد أنه سيحظى بمزيد من الشهرة والتقدير والاحترام اذا لاقى في عمله نجاحا .

لم تمض فترة طويلة قبل أن يتصادف وجود ميجل في مدريد لمدة وجيزة . وهناك قابل الناشر خيل روبلس الذي سأل ميجل اذا كان يروقه أن يكتب له رواية . وافق ميجل في الحال رغم أنه لم يكن يميل كثيرا الى

ذلك النوع من الروايات الذى يبغيه الناشر ·· فهو يريد رواية رعوية تتضمن مغامرات عجيبة وأن تكون حبكتها ذات علو وسمو ويختلط فيها الآلهة والبشر · انه طراز من الكتب لايمل منه الناس · بينما ميجل لا يرى فى ذلك سوى نوع مستهلك من الروايات التى تدور أحداثها فى المراعى · غير أن روبلس كان واثقا من أنميجل سينتج الرواية التى ينشدها حتى أنه نقده مبلغا كبيرا من المال مقدما · كان ذلك تحديا لمهارة ميجل الأدبية ·· انضم ميجل ثانية الى فرقة الممثلين وأمضى وقتا مودعا اياهم وقفل راجعا صوب مدريد ليشرع فى كتابة أول رواية له ·

*

عاد ميجل الى منزل والده فى مدريد ، واتخذ من غرفته القديمة ملاذا له وعرينا يتحرك فيه بحريته · شعر ميجل بأنه أكثر التصاقا بوالده الذى رآه الآن بوضوح رجلا بالغ الكمال ، ومازال محافظا على شخصيته ·· واذا كنا سنتحدث عن طبيب كرس نفسه لمساعدة الآخرين فى تفان واخلاص فاننا لن نجد أحق من دون رودريجو · فهو لا يعنى فقط بمرضاه ولكنه أيضا العالم الذى يريد أن يتعلم كل شىء عن الأجساد البشرية · فبينما كان يبذل قصارى جهده لعلاج احدى القروح ، فانه يلاحظ نموها باهتمام · وعندما يصطحب معه أحد تلاميذه ، فان حماسه يبلغ أشده وهو يشاهد الغنغرينا بعين رجل العلم ·

وفى احوال نادرة قد يمر أحد زملاء دون رودريجو ويستصحبه معه تحت جنح الظلام الى أحد المنازل الغامضـــة للاستماع الى دروس فى التشريح يلقيها بعض الأطباء ·وهذا يعنى تشريح جثة آدمية ·· شىء محرم تماما · وكان الأطباء الذين يشتركون فى هذا العمل يشعرون كما لو كانوا من المجرمين · لاشك أنه لم يكن من الســـهل الحصـــول على المعلومات من الكتب التى لم يكن متوفرا منها غير القليل ، وكانت باهظة الثمن وغير دقيقة · وكان الكتاب الوحيد الهام هو الذى ألفه أندرياس فيزاليوس الذى ولد فى بروكسل عام ١٥١٤ وكان أبوه وأجداده من الأطباء ·· التحق بجامعة لوفان ببلجيكا ثم درس فى جامعتى مونبلييه وباريس · وكان يعجب من جمود أساتذة الطب الذين ظلوا قرونا عديدة يدرسون آراء جالينوس ونظرياته دون تحوير أو تعديل · وكان فيزاليوس يتوق الى دراسة تشريح الجسم الآدمى دراسة صحيحة لمعرفة ما تسببه الأمراض لأجزائه المختلفة · ولكن الكنيسة فى ذلك الوقت كانت تعارض تشـــريح الجسم الانسانى معارضة شديدة ، وكان الموت جزاء كل من يجرؤ على العبث بجثث الموتى · الا أن فيزاليوس كان جريئا مغامرا فاذا به يتسلل الى التلال خارج أسوار لوفان ويسرق جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الاعدام هناك ، وينقلها الى منزله ويعمل فيها مبضعه · وكان يرسم أجزاء الجسم المختلفة بدقة ، وعندما يحس بالخطر كان يجمع رسومه الثمينة ويلوذ بالفرار · وأخذ يتنقل من بلد الى آخر حتى وصل الى ايطاليا حيث

كانت حرية العلم مكفولة فى ذاك الوقت ، وعين أستاذا للتشريح بجامعة بادوا . وهناك أصدر كتابا فى التشريح أسماه « تركيب الجسم الانسانى » .. وقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل مولد ميجل دى ثربانتس ببضع سنوات . ورغم وضوح هذا الكتاب عن تركيب الجسم الانسانى الا أنه كان بعيدا عن أن يكون كاملا بسبب اغفال كثير من التفصيلات .

نعود الآن الى ميجل فى منزل أبيه حيث بدا الزوج والابن غريبا الأطوار فى نظر المسكينة دونيا ليونور . فأحدهما وهو الزوج كان يضيع وقته متلهفا على البحث والدراسة بدلا من السعى وراء المرضى الأثرياء الذين يجزلون له العطاء . والثانى وهو الابن عاد الى المنزل لا لشىء اللهم سوى الانكباب على الكتابة . وكانت تخشى ألا يمكث ميجل كثيرا ، وأن أى استدعاء — قد يكون الى المسرح أو لأى واجب آخر سيبعده عنها ليبدأ حياة التجوال والطواف مرة أخرى . ففكرت مليا فى كيفية جعله يستقر ، فهى برغم أنه خيب أملها عدة مرات الا أنها مازالت متعلقة به ، وهى اذا ما عثرت له على زوجة فان الزواج لاشك سيقص أجنحته .. وهذه الفكرة كانت تراودها منذ جاءوا الى مدريد سواء أكان ميجل قريبا أو بعيدا . كانت تريد له عروسا من عائلة نبيلة . انها تعتبر ميجل رجلا غير عادى لأنه ابنها ، ولكنها لا تنكر حماقته فى شئون الحياة العملية ، وأنه لا يستطيع كسب عيشه . وأخيرا وجدت ضالتها المنشـــودة فى ابنة شقيق أحد القساوسة وتدعى كاتالينا دى بلاثيوس سالاثار بوسميديانو من اسكويبياس وهى قرية لا تبعد كثيرا عن مدريد . وأسرتها تعيش حياة الفلاحين الا أنها ذات طابع نبيل . العروس مليحة طاهرة عفيفة فى الثامنة عشرة من عمرها . وكانت تعيش فى عزلة .

كان ميجل منهمكا فى تأليف روايته التى انتهى من وضع تخطيط لها ، وقرر أن يعطيها عنوانا : « لا جالاتيا » عندما سمع والدته تتحدث عن الزواج ، ولكنه لم يأخذ كلامها مأخذ الجد ، فقد ســـبق أنطرقت هذا الموضوع لعدة سنوات .

أحس ميجل بصدمة من الفزع البارد عندما أدرك أن والدته كانت جادة هذه المرة فى موضوع زواجه ، وأن الأمور وصلت الى الحد الذى يتطلب منه مقابلة عروسه المنتظرة كما أخبرته أمه . واذا به يرفض بشدة ، فلطالما سأل فرانثسكا أن تتزوجه ، ولكنها ذهبت فلم يعد يفكر فى الحب ولا فى الزواج . غير أن دونيا ليونور أصرت قائلة ان من واجب كل رجل أن يتزوج وأن يكون له أسرة . ألا يرغب فى أن يكون له أبناء يحملون اسمه ؟ وزوجة ترعاه بعد أمه التى لن تخلد له ؟ وهكذا ظلت تتحدث وتلح حتى بدأ ميجـــل يلين تحـــدوه رغبة فى أن تعيش أمه فى هدوء مهما كان الثمن . ثم أنها كانت محقة فى كثير مما قالته . ومن أدراه أن هذه الفتاة الصغيرة قد تعيد اليه قليلا من الدفء الذى ولى منذ غادرته فرانثسكا .. ربما . وأخيرا وافق والدته .

وعندما سمح لميجل برؤية كاتالينا ، ذهب مترددا وقد ألحت عليه ذكريات قديمة • انه لا يريد أن يتورط مرة أخرى فى انفعالات مؤلمة • ليس من حقه أن يقدم لفتاة صغيرة بريئة قلبا تمزق وأصبح باردا • ولكنه عندما رآها ، من خلف قضبان نافذة الطابق الأول من بيت المزرعة ، شاهد صبية جميلة ناصعة البياض وجذابة تفيض بالحيوية والثقة فلم يسع ميجل الا أن يقدم لها بعض الكلمات الرقيقة ، وعاد هادئا وهو يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يعترض ؟

حل يوم الزواج فى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٥٨٤ ، ولابد فيه من مظاهر الفرح والسعادة والغبطة • كان كل واحد يعلم جيدا لماذا يتزوج هذان الاثنان ، ومع ذلك كان هناك وهم وخيال يعيش فيه الناس • فهل كان حقا ما يجمع عليه الناس والكتب والشعر والمسرحيات من اطراء ليوم الزفاف كقمة السعادة فى حياة الانسان ؟ أم أن الواقع نفسه ماهو الا وهم ؟ واذا كان الأمر كذلك فماذا يكون الوهم ؟ ومهما كان مايدور فى ذهن ميجل من أفكار خفية ، فان الزواج تمت مراسمه • ومن الطريف أن بائنة كاتلينا ، كانت مكونة من منزل وبعض الأراضى المزروعة بالكروم والفاكهة ، وأربع خلايا نحل • هذا غير الأثاث وبعض الملاعق الفضية ومقلاة ، وخمس وأربعين دجاجة ، وديك واحد •

عاش الزوجان فى الفترة من ١٥٨٥ حتىعام ١٥٨٧ فى اسكويبياس، وكانا يترددان فى أثنائها على مدريد لشئون تتعلق بكتابات ثربانتس •

وتمضى الأيام وميجل مستمر فى كتابة روايته حتى انتهى منها وبعث بها للناشر • وبدلا من أن يسر ويبتهج لذلك كان يشعر باعتلال مزاجه وبالحزن يتسرب الى نفسه يوما اثر يوم ••وكلما ازداد تقبل نساء أسرته لكاتالينا كلما زهد فيها وبدت بعيدة عنه • ماذا دهاه عندما وافق على الزواج ؟ ربما كان مستغرقا فى كتابة روايته حتى أنه لم يكن يفكر على الاطلاق • ولكن ماهى ذى الأمور تتضح أمامه عندما انتهى من روايته • ماله والزواج • يبدو أن فرانشسكا كانت تعرفه أكثر مما عرف نفسه •• فهو حين يظن أنه يريد الزواج ، ويتحقق له ذلك فانه سيشعر بوقوعه فريسة فى الشرك ، يطارده استبداد وطغيان الزواج بما فيه من رتابة وسير على وتيرة واحدة وتمسك بالشكليات •

لم يبتهج ميجل ولم ترتفع معنوياته عندما نجحت روايته «لا جالاتيا» • لقد تردد على المقاهى ليجد أصدقاءه يأخذون الأمر مأخذ الجد ، وشعر بحرج أكثر مما يحتمل • الا يستطيعون رؤية أنه لم يكن هو الكتاب الذى يريده ؟ الم يفهموا أنه لا يتعدى كونه تمرين أدبى سيق اليه وفرض عليه ؟ وهو لا ينكر أنه قام بهذا العمل بطريقة أفضل مما يتوقع ، ولكنه لم يخرج عن كونه رواية رعوية ، زادت تلك الروايات واحدة بمناظرها غير الواقعية وحبكتها التى تترك قارءها يحار اعياء • الا أن الرواية لم تكن تخلو من

الخيال الجامح والطرافة ، وجاءت لغتها أرقى من معظم مثل هذه الروايات .. غير أنها لم تكن تحوى شيئا من نفسه وذاته .

وبعد أن مارس الكتابة ووجد للنجاح طعما مسطحا لا نفع فيه ، عاودته فكرة الالتحاق بالجيش أو العثور على وظيفة تابعة للحكومة . لم يكن مثل هذا التفكير غريبا الآن اذ أن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أن فى امكانه أن يجد شيئا مناسبا لسنه وقدراته . فقد عمت البلاد روح جديدة ، ودب فيها النشاط وانتشرت الأنباء بأن أسبانيا تبنى أسطولا ضخما لمهاجمة انجلترا .

- ٧ -

الـــــكارثة

اجتاح الغضب اسبانيا من أدناها الى أقصاها ، وامتلأت بالعداء نحو انجلترا وخاصة اليزابيث الملكة العنيدة التى كانت تقول عن نفسها انها تمتلك جسد المرأة الضعيف ، ولكن لها عقل الرجل ومعدته . وقد أكدت كل أفعالها ذلك الحكم الذى أصدرته على نفسها .

وقبل أن ترتقى ابنة هنرى الثامن وآن بولين العرش ، كانت انجلترا تتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية . وعندما أصبحت اليزابيث ملكة انجلترا بدأت قسوتها تزداد نحو الكاثوليك ، وصارت تؤيد البروتستانت ضــــدهم .

كانت أسبانيا تحكم الأراضى الواطئة ولكن البروتستانت كانوا دائمى التمرد هناك ، الأمر الذى استدعى وجود الجيوش الأسبانية . ولم يزل رودريجو شقيق ميجل يقاتل هناك مواصلا المعارك التى خاضــــها لعدة ســـنوات مضـــت .

وأمدت اليزابيث المتمردين بالسلاح والمؤن . ليس هذا فحسب ، ولكن كانت سفنها فى أعالى البحار تهاجم الفرقاطات الأســـبانية العـــائدة من المكسيك ، وتقوم بسلب ونهب ما تحمله من كنوز . وكان قباطنة هذه السفن رجال من أمثال دريك ورالى وهوكنز قراصنة فى نظر العالم ، ولكن فى انجلترا كانت الملكة تغدق عليهم الألقاب ، وتكافئهم بنصيب من الغنائم .

هذا عدا بعض المغامرين الانجليز الذين كانوا يرسون على البر في بعض أنحاء أمريكا الشمالية ، ويحتلونها باسم الملكة اليزابيث • وتمادت الملكة في مناوأة أسبانيا فأمرت باعدام مارى ستيوارت ملكة اسكتلندا • وكانت الملكة اليزابيث قد زجت بها فى السجن بتهمة التآمر ضدها • واحتز الجلاد رأسها عام ١٥٨٧ • وتجاهلت أسبانيا أى أسباب سياسية بررت بها اليزابيث فعلتها • لقد قتلت مارى بسبب عقيدتها الكاثوليكية • وغلت مراجل الغضب في عروق الأسبان ، وذاق كل فرد منهم آلاما مبرحة كما لو كانت أخته هى التى سيقت الى الموت •

ووسط هذا الهياج الشعبى لما اعتبروه اغتيالا ، ابحر السير فرانسيس دريك الى ميناء قادس حيث كان أسطول أسبانيا التجارى الرئيسى راسيا هناك • واستطاع دريك أن يحرق ويغرق أكثر من نصف سفن الأسطول • وقبل أن يتمكن رجال المدفعية فى استحكامات الميناء من احكام تصويب مدافعهم ، استدارت سفن دريك مسرعة الى أعالى البحار مرة أخرى •

اشتعلت أسبانيا كلها بالغضب العنيف • وكان فيليب يعد أسطولا ضخما •• الآرمادا كأقوى أسطول حربى لم يشهد له التاريخ مثيلا حيث سيبعث بجيوشه الى انجلترا للاطاحة باليزابيث •

وفى أثناء هذا النشاط والثوران الذى عم أسبانيا عاد ميجل يقدم طلباته ملتمسا وظيفة فى أى مكان لخدمة مليكه • ولم يلبث أن توفى أبوه الذى تجاوز السبعين عاما فى الثالث عشر من يونيو عام ١٥٨٥ فترك ميجل يعانى من فقده كثيرا اذ كانا متفاهمين ، ويحترم كل منهما الآخر ، ولهما نظرة مماثلة فى الحياة •

كان على ميجل أن يقسم وقته بين زوجته وبين أسرته •

جاءت الفرصة التى ينتظرها ميجل حيث عين فى بداية عام ١٥٨٧ فى وظيفة محترمة تتيح له استخدام ذكائه فى خدمة ملك البلاد كضابط امدادات وتموين ووكيل مفوض لتوريد الزاد والمؤن للأرمادا •• الأسطول الذى يبنى على وجه السرعة • انه دائما يحلم بأن يكون جنديا • وضع ميجل شعار النبالة على سترته ، وكان عليه أن يمتطى صهوة جواده يتبعه بضعة جنود وعربة لتحصيل المؤن من الأغنياء والفقراء الذين وجبت عليهم التضحية من أجل نصرة أسبانيا • ولما كان عمله يقتضيه كثرة السفر فقد وجد ميجل أنه من الأفضل له الاقامة فى أشبيلية • أما زوجته فقد ظلت وحدها بمنزل اسكويبياس فى انتظار المبالغ الهزيلة التى يرسلها لها الشاعر ضابط الامدادات والتموين •

ذاق ميجل مرارة الفشل فى زواجه وترك زوجته فى نهاية عام ١٥٨٧

وأمضى عشرين عاما فى السفر والترحال سعيا وراء لقمة العيش ٠

اتسعت منطقة عمليات ميجل لتشمل تلال سييرا مورينا والمناطق المتاخمة لها فى جنوب أسبانيا ٠ سر ميجل لهذا النجاح الذى حققه، فهاهو ذا سوء الحظ الذى لازمه كثيرا قد ولى ٠ ولكن مهلا ٠٠ ففى عام ١٥٨٨ بينما كان يتجول فى المنطقة الجديدة وصل الى دير فى اثيخا ٠ ولكنه قوبل بالمقاومة والتحدى من رئيس الدير ورهبانه وأبوا أن يرشدوه الى مخابىء أطعمتهم وصبوا عليه لعناتهم كما لو كان هو المسيح الدجال ٠ وذهبت كل فصاحة ميجل أدراج الرياح ، فما كان منه الا أن أمر جنوده بتفتيش الدير بحثا عن مخازنه وأقبيته للاستيلاء على جزء عادل من المؤن والمواد الغذائية ٠ وعندما امتطى ميجل جواده راحلا شيعوه بما يشبه المناحة وهم يتوعدونه مهددين ٠

وبينما كان يسير مع جنوده فى أشبيلية بعد عدة أيام لحق به رسول وسلمه طلبا باستدعائه للمثول أمام محكمة التفتيش الرهيبة الشهيرة بتطرفها فى العقوبات من مصادرة للأملاك وحرق للضحايا ٠

وقف ميجل أمام ديوان التفتيش وتليت عليه عريضة الاتهام باللغتين اللاتينية والأسبانية ٠ انه لم يقترف سحرا أو يرتكب هرطقة ضد الكنيسة ٠٠ انصب الاتهام على ما فعله فى أثيخا وما استولى عليه من مؤن الدير، وكان عليه أن يعلم أن الأديرة مستثناة من هذا الأمر ٠ أو لم يدرك من تلقاء نفسه كمسيحى أنه من الواجب احترام اعتراضات الرهبان وعدم المساس بقدسية الدير وحرمته ٠ ولدهشة ميجل كان القصاص أخف ما صدر من عقوبات ٠٠ انه انذار مصحوب بالحرمان الكنسى لعدة شهور ٠ كان يشق على الكاثوليكى الرمن أن يحرم لأى فترة مما تتيحه له الكنيسة من نعمة وعزاء وسلوى وبركات وامتيازات ٠ ولكن ميجل مازال حيا يرزق متمتعا بحريته ولم يفقد وظيفته ٠ وغادر المحكمة ليواصل رحلاته فى طرق الأندلس يحمل العربة بشحنة وراء شحنة من المؤمن من أجل الأرمادا ٠

وفى ربيع عام ١٥٨٨ سمع ميجل بأن الأسطول على أهبة الاستعداد ٠٠ كان مكونا من غلايين ضخمة وهى سفن شراعية عملاقة لم تشهد لها البحار مثيلا من قبل ، والعديد من السفن الشراعية الكبيرة ذات المجاذيف والتى كانت تسمى الواحدة منها باسم القادس ٠ أطلق الملك الحذر على الأرمادا لقب الأسطول الذى لا يقهر والذى سيحمل جيشا يغزو أراضى انجلترا عقابا لاليزابيث التى ستسحق لا محالة ٠

بقى ميجل فى أشبيلية الآن متلهفا على الأنباء ٠ وبينما كان الأسطول على وشك الاقلاع مات قائده الماركيز دى سانتا كروث ،ومرت بضعة أسابيع قبل أن يعين بدله ٠ ثم غادر الأسطول الميناء فأحدقت به عاصفة هوجاء مما اضطرت معه السفن الى العودة لائذة بمرفأ لاكرورونا ٠

انقضت أسابيع عديدة انتشرت بعدها الأنباء فى أشبيلية عن اقلاع الأسطول · كان الوقت ضيقا ، ومع حرارة شهر يوليو لم يكن هناك غير الصمت الذى دهش له ميجل مع رفاقه وهم يجلسون فى المقاهى وكلهم شوق ولهفة لسماع الأجراس وهى تصلصل معلنة النصر · فى ذلك الوقت كان الرسل يعملون مهمازاتهم فى جوانب جيادهم وهى تنهب الأرض ، يحملون التقارير للملك من الشـــاطىء الأوروبى ، غير أن أحدا لم يكن يعرف ما تحويه · خيم الصمت على البلاد ، وبدلا من دقات أجراس الكنائس اقيمت الصلوات داخلها من أجل الذين لقوا حتفهم فى البحر · وبينما رياح الخريف تزمجر فى خليج بسكاى كان الناس ينتظرون وهم يتعلقون فى يأس بحدوث احدى المعجزات · ثم عادت الســـفن ·· فى مجموعات صغيرة تلهث لائذة بموانى أسبانيا · انتظر الناس بقية السفن. ولكنها لم تعد ·

صاح ميجل مع كل أســبانيا : « ماذا حدث ؟ » · وأخيرا بدأت تفاصيل الكارثة تجىء · لقد اجتمع ســوء الحظ ، ورداءة الطقس ، والاستخفاف بقوة العدو ·· فحلت الكارثة · هذا بالاضافة الى عامل آخر هو الاستراتيجية · لقد استعمل الأسبان السفن لتحمل جيشا عبر البحر ليقاتل معركته فوق الأرض · وحتى اذا جاورته سفن الأعداء جنبا لجنب فان الخطة مازالت تقضى بالاستعانة بسطوح الســفن كأرض للمعركة يحارب من فوقها الجنود · لم تهتم اسبانيا ولم تكن على وعى ، بالدور الذى يلعبه البحارة فى الحرب · كانوا يمجدون الجندى مستخفين بالبحار ويرون فيه رجلا يحتاجونه لايصال الجندى الى وجهته · أما الانجليز فقد كانت لهم فكرة مغايرة · ان سفنهم محتشدة بالبحارة لا الجنود ·· وكانت سفنا صغيرة سهلة الحركة تجيد المناورة · كما أن الانجليز من ذوى المهارة الفائقة فى البحر ·

لقد سبق أن خاض ميجل معركة ليبانتو ··فلماذا اذن لم ينتصروا هذه المرة ؟ ولكن أنى له أن يعرف ذلك ·

ان التاريخ يحدثنا عن أن معركة ليبانتو كانت آخر معركة بحرية كبيرة وقعت بالأســلوب القديم الذى يستعمل السفن لحمل الجنود الى مكان المعركة · وسواء حاربوا فوق الأرض أو أسطح السفن فانهم يقاتلون على طريقة الجيوش البرية · ولكن المعركة الكبرى التى دارت رحاها فى القتال الانجليزى بين الأرمادا والأســطول الانجليزى كانت أول معركة بحرية بالأسلوب الحديث حيث تستعمل السفن كسفن وليســت كمنصات أو أرصفة ، مع الاعتماد على دقة التصويب عند اطلاق النار ، والمحاورة والمداورة والمناورة وسرعة الحركة ·

وهكذا لم تستطع السفن الأسبانية الاقتراب من شواطىء انجلترا لتحاول انزال الجنود الى البر ، وتبعثر الاسطول ومنى بالهزيمة · وكان

هناك جيش، يقف على أهبة الاستعداد فوق الأراضى الهولندية ، ولكنه كان فى حاجة الى السفن • فظل محبوسا عند مصب أحد الأنهار لم يبارحه جندى واحد •

حاول الأسبان أن يتجمعوا مرة أخرى ، ولكن الوحدات الانجليزية كانت لهم بالمرصاد • فأدى ذلك ، مع الريح المضادة ، الى ابعاد الأرمادا الى بحر الشمال • ولتفادى الأسطول الانجليزى ، دارت السفن الاسبانية حول الجزر البريطانية الى شمال اسكتلندا محاولة الابحار الى الجنوب مرة أخرى عبر البحر الأيرلندى • انتشرت الأمراض بسبب رداءة المياه وفساد اللحوم • عربد الموت بين الجنود والبحارة من جراء تفشى التيفوس والكوليرا • واكتسحت الأمواج الهائجة والرياح العاتية الكثيرين من فوق ظهور السفن وألقت بهم الى البحر • لم يعد من السفن سوى النصف ، وبقى جزء صغير من بحارتها فى صحة سليمة • ونقل الجرحى والمرضى الى الثكنات والمستشفيات للعلاج • وهكذا أفل نجم اسبانيا ، وانتهى مجدها ، وضاعت سيطرتها على البحار ، وفقدت حكم الأراضى الواطئة ، وزالت عنها السيطرة على العالم •

لم يكن كل هذا واضحا لميجل ولا لأصدقائه ومعارفه • شىء واحد كان واضحا وهم جلوس مثقلى النفس حول المناضد فى المقاهى محاولين أن يتقبلوه وهو أن الأرمادا •• الأسطول الذى لا يقهر قد لاقى الهزيمة وتحطم ، ولم تعد له قائمة رغم ما بذلوه من جهود ، وماداعب أحلامهم من آمال ، وما أدوه من صلوات • اللهم لا اعتراض على مشيئته ، ومازالت أجراس الكنائس تصلصل مختلطة بأصوات المصلين وهم يسبحون بحمد الله • وركع الملك لساعات طويلة وهو يؤدى الصلاة •

لم تعد هناك حاجة الى ضباط امداد ولا لمتعهدى توريد المؤن لأسطول أو جيش • ولكن ميجل مازال اسمه مدرجا فى قائمة العاملين • واستمر يقدم التماساته لالحاقه بأى عمل يتاح له ضمن العديد من الوظائف الحكومية • كان يتوق الى الحصول على أحد المناصب من التى لا يقوم أصحابها بأى عمل فى المكسيك أو بيرو •• وهما من الأسماء التى كان يطرب لسماعها الناس لما يرتبط بهما من اغراء وثراء • ولكن حلمه تبخر وعين فى عام ١٥٩٤ جابيا للضرائب •• وهى وظيفة شاقة ، وظل مركز الادارة التابع له فى اشبيلية بعضا من الوقت •

- ٨ -

ميجل فى السـجن

اقام ميجل فى اشبيلية فى غرفة صغيرة بسيطة فى نزل يمتلكه احد أصدقائه ، كان يعمل ممثلا وتعرف به من أيام المسرح ٠

واصل ميجل طوافه وتجواله فوق صهوة جواده عبر جبال الأندلس الوعرة ٠ وخلال مهمته الشاقة رأى القحط يستشرى فى كل مكان ، وأذل الفقر أعناق الرجال ٠ ٠هل يعلم الملك ذلك ؟ نعم ٠٠ وكانت النتيجة مزيدا من الضرائب ٠

اختلط ميجل بالفلاحين والتجار وأصحاب الحرف والنبلاء فى القرى والمدن الصغيرة واستمع لحكاياتهم كما استمعوا لما كان يقصه عليهم من أنباء وقصص ٠ وتعلم ايقاع حياة الناس فى الأندلس ولغتهم ٠ وهكذا عرف أسبانيا التى تحيا بعيدا عن الشكليات التقليدية من طقوس المراسم والتشريفات ، وسلوك المنافقين فى مدريد واشبيلية ٠ نعم ٠٠ لقد رأى أسبانيا من خلال أبنائها الذين يفلحون أرضها وظلوا محتفظين بقلبها مستمرا فى نبضه ٠

ظل ميجل سنينا عدة يواصل عمله لا فى الأندلس فحسب ، بل أحيانا فى قشتالة أيضا أو ليون أو لامانتشا ٠

انه الاسم الذى سيجعله ذات يوم شهيرا تدوى أصداؤه فى كل انحاء العالم ، فقد اختاره من بين أقاليم أسبانيا كلها ليكون موطنا لفارسه العبقرى النبيل دون كيخوتى ٠ فهل كان هناك شيء خاص بإقليم لامنتشا جعل هذا الاسم يظل حيا فى عقل ميجل ؟ لا نظن لأنه فى لامانتشا كان هناك نفس الفقر الذى وجده فى كل مكان ، وكانت هناك نفس الشكاوى ، ولكنه وجد وراءها نفس الناس عندما سـبر ما تحت السطح ٠٠ متلهفين قلقين مشغولى البال من اجل المستقبل ينشدون فيه املا وفجرا جديدا ٠

الاعوام تنقضى وميجل يراقب ويلاحظ ٠٠ فهنـاك من يخدعونه فيظهرون مالا يبطنون ، وهناك من يطلبون منه الرحمة والشفقة كما لو كان جلادا ، بينما يتعاون معه آخرون بحثا معه عن حل مناسب لمشاكلهم ٠ وكان هذا من ميجل فهما لروح القانون لا حرفيته ٠٠ وهو ما درج عليه فى مهنته هذه ٠ ورويدا رويدا وجد انه يمكنه الاعتماد على حكمه وفراسته عندما يمنح أحد الرجال ثقته ، فلم يخيب ظنه أحد ٠٠

ولكن فى عام ١٥٩٢ جاء الوقت الذى لم تكن فيه ثقة ميجل فى محلها

•• لقد أقسم له أحد التجار بيمين مغلظة أنه سيدفع ما عليه فى اليوم التالى • صدقه ميجل واستأمن جانبه وخاصة أنه فى ذلك المساء كان عليه أن يسوى دفاتره كما اعتاد ذلك ، فدون دين التاجر على أنه دفعه •• وعندما توجه ميجل الى التاجر فى اليوم التالى لتحصيل المال وجده قد اختفى ولم يعثر له على أثر • ولسوء حظ ميجل كان الوقت قد حان لتقديم دفاتره فى اشبيلية للفحص الدورى ، وهناك اكتشفوا المخالفة ، ولم يجد الشرح والايضاح فتيلا أمام أولئك الموظفين الصـــغار الذين لا يعلمون شيئا عن السنين الطويلة التى خدم فيها ميجل أمته وأدى عمله من اجلها فى أمانة • هزوا أكتافهم ولووا أعناقهم مستنكرين ما وقفوا عليه. وأخبروه أنه حتى يتم التحقيق والبحث والتحرى عن هذا الموضوع فانه لابد أن يزجوا به فى السجن • واقتيد ميجل خلال ممرات طويلة وصعد درجات كثيرة ، وهبط أكثر منها حتى أوصلوه الى أحد الأبواب التى تنبعث من خلفه جلبة وضوضاء • فتح الباب ودفعوا بميجل فى قسوة الى داخل غرفة معتمة حيث استقبل بصياح أشبه بالنباح ، ورمقه النزلاء بنظرات عدائية وأطلقوا صفيرا عاليا إستهزاء به • كان الهواء عفنا فاضطر ميجل أن يمسك شهيقه وهو يدير عينيه خلف الجدران باحثا عن مكان يجلس أو يرقد فيه فاذا به يلاحظ أن الغرفة كانت مرتعا للفيران • استطاع ميجل بعد بضعة أيام أن يكتسب ثقة النزلاء واستمع اليهم فى صبر وأناة وثقة • ولو أن القصص التى سمعها كانت من نشالين ولصوص وقطاع طرق وقتلة ماجورين • استمع ميجل اليهم دون أن يستطيع لهم نصحا أو قولا أو فعلا ماعساه يغير من المصير الذى ينتظرهم •• كانت المشانق تنتظر ظامئة أعناق القتلة • ملأت حكاياتهم قلبه حزنا • فبرغم كل ما شاهده وعرفه من بؤس وشقاء وفزع ، لم يكن يعرف رجالا يمكن أن يهبطوا الى هذا الدرك من الخسة والاجرام ، وفساد الأخلاق • ولكن رغم كل هذا الانحطاط والفحش والشناعة فقد كانوا لايزالون بشرا مثله يرتجفون خوفا أمام المجهول ، يبحثون عن العزاء والسلوى فى التعاطف الانسانى معهم وأن يلاقوا قبولا لدى الآخرين •

قام موظفون كبار ، فى مرتبة أعلى من مستوى الموظفين المحليين ، بفحص دفاتر ميجل وأثبتوا أن كل ما أدلى به كان صدقا وكتبوا تقريرا عن كفاءته كجابى ضرائب ، ومهما كانت طريقته فقد أثبتت نجاحها بعد أن اكتشفوا أنه استطاع أن يحصل الضـــرائب من نبلاء وفلاحين على السواء كانوا قد أسقطوهم من الحساب كحالات ميئوس منها •

أطلق سراح ميجل ، ومنحه موظفو الملك ثقتهم فضموا الى دائرة نفوذه عقارات هامة وحالات تتضمن مبالغ ضخمة •

*

مرة أخرى جلس ميجل فوق السرج وحصانه يركض به عبر الفيافى والقفار متنقلا من مكان الى آخر ، وتمضى خلفه العربة يحف بها الجنود

من الجانبين لحراســـة ما تحمله من عملات معدنية يســـيل لها لعاب اللصـــوص ٠

لم يكن لدى ميجل وقت للكتابة ٠ ومرت اربعة عشر عاما وهو مازال يتجول فوق صهوة حصانه فى مهمة من اجل الملك بينما حالة اسبانيا المالية تجرى من سىء الى اسوأ ٠ فكان ميجل فى بدء تعيينه قد رأى الفضة، والآن لا يرى شيئا غير النحاس ٠ وحتى ذلك المعدن كان ممتزجا بالقصدير ٠ ان الضرائب المدفوعة بهذه العملات المعدنية كانت تثقل صناديقه ٠ وكان نقلها من منبع الدفع الى حيث تسلم يكلف أحيانا اكثر من قيمة المال المنقول الأمر الذى أقلق ميجل حتى وجد للمشكلة حلا ، فاختار بنك سيمون فرير بمدينة أشبيلية ليودع فيه المبالغ المتحصلة باسم صاحب الجلالة ٠ وأثبتت الخطة نجاحها ، فقد أصبح ينجز عمله على وجه أسرع ٠ وذات يوم لم يصدق ما حدث عندما وجد أن صاحب المصرف قد اختفى فضاعت عليه الأموال التى أودعها من عدة أشهر مضت ، والتى بلغت ثلاثة ملايين مارابيديس ٠ جاءت الأوامر الى ميجل للعودة فورا الى مدريد لعـــدم انتظامه فى دفع مايحصله من ضرائب ٠ وقف ميجل أمام قضاة كانوا يطبقون حرفية القانون ، فبسبب اهماله خسرت الدولة كمية من الأموال ما كان أشد حاجتها اليها ٠ وانه من تلقاء نفسه وعلى مسئوليته ودون أن يرجع الى رؤسائه لجأ الى صاحب مصرف خاص كوسيط ٠ وهو بفعلته هذه يكون قد تجاوز سلطته وتعداها ٠

وهكذا دخل ميجل السجن مرة أخرى ٠ انه رجل لازمه سوء الحظ ٠٠ رجل أصبح الآن معتادا على السجن ٠ فقد كان سجينا فى الجزائر ، سجين أحساسه فى قلعة نابولى ، سجين ديوان التفتيش ، سجينا فى بلاده منذ ست سنوات مضت ٠

وهناك من وراء قضبان سجن أشبيلية ، ومضت فكرة دون كيخوتى فى ذهن ثربانتس اذ نراه يقول فى مقدمة روايته انها نبعت فى سجن موحش حيث يعشش البؤس والشقاء ، وتردد الجدران أصوات مفعمة بالأحزان والآلام ٠ وهاهو ذا يطلب ورقا وريشا قلميا وحبرا ويجلس الى منضدته الكسيحة ويبدأ يكتب :

« فى قرية من قرى المانتشا ، لا أريد أن أذكر لها اسما ، ومن زمن غير بعيد كان يعيش نبيل ممن فى معلف دوابهم رمح ، وترس عتيق ، وفرس هرم هزيل ، وكلب سلوقى للصيد » ٠

كان القلم فى يده يسرع تارة ، ويتردد تارة أخرى ، ويتوقف أحيانا ثم يعود فيسرع مرة أخرى ٠ « وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا مولعا بالصيد ٠ وكان يقال انه يلقب كيخادا أو كيسادا ٠٠ » ٠

اذن فقد بدأت الرواية ، رواية كيخادا أو كيسادا ٠٠ هذا النبيل الذى سمى نفسه باسم دون كيخوتى !

وهكذا نبضت الشخصية بالحياة وأصبحت ذات اسم وتمتلك جوادا وصارت على أهبة الاستعداد لامتطاء صهوته ٠

لم يكن ميجل كاتبا سريعا ، وهو كثيرا ما يجلس الى المنضدة فى وضع وصفه بنفسه فى مقدمة روايته فنراه يقول : « **الورق أمامى ، والقلم على أذنى ، ومرفقى على المنضدة ، ويدى على وجنتى ، أفكر فى ماذا أقول ٠٠** » ٠

ولكنه كان فى جعبته الكثير الذى يريد أن يرويه الآن ٠ فطـوال خمسة عشر عاما لم يكتب شيئا ، وهى تعتبر ثغرة فى سيرته الأدبية ٠٠ كان فقط يتجول ويستمع ويسـتوعب ماعند الناس من أحاديث ٠ حان الوقت الذى تكدس لديه كل ما سمعه ولاحظه يلح على ذهنه باحثا عن منفذ ٠ وحتى المجرمين والأوغاد الذين التقى بهم فى السجن ظهروا فى روايته وصور سلوكهم ولغتهم تصويرا واقعيا ٠

— ٩ —

ميجل يفلت من طوفان الزمن

قضى ميجل ستة أشهر فوق المقعد المتمايل يكتب فوق المنضـدة الصـغيرة ٠ ثم برئت سـاحته وأطلق سراحه فى عام ١٦٠٣ حيث بلغ السادسة والخمسين من عمره ، وأصبح سنه غير مناسب للعمل فى خدمة الملك ،ومنح معاشا ضئيلا يبعث على السـخرية ٠ أما روايته فلم ينته منها بعد ٠ عاد الى منزل الأسرة ممزقا رث الثياب وقد وخط الشيب شعره بعد غيبة طالت الى خمسة عشر عاما ، فوجد والدته قد انتقلت الى العالم الآخر ٠ أصبح ميجل هو الرجل الوحيد فى الأسـرة اذ أن أخاه رودريجو قد خر صريعا فى ساحة الوغى بالأراضى الواطئة فى عام ١٦٠٠ ٠

وفى عام ١٦٠٤ رحل مع شقيقتيه وابنته غير الشرعية ايسابيل وابنة عم له ليعيش فى بالبادوليد حيث أقام فيليب الثالث قصره هناك ٠ وقد

أنجب ايسابيل قبل زواجه بعام أو عامين كثمرة لعلاقة غرامية مع صديقة له تدعى آنا فرانكا دى روخاس أو آنا دى بيافرانكا • ولم ينجب ميجل أطفالا من زوجته كاتالينا •

وينسب بعض كتاب السير ايسابيل الى سيدة برتغالية كان ميجل على علاقة غرامية بها عندما كان فى لشبونة عام ١٥٨٣ اذ عاد والتحق بالجيش الاسبانى مرة أخرى فى تلك الفترة • ولم تلبث هذه السيدة البرتغالية أن تزوجت تاركة هذه الابنة لميجل ليتولى رعايتها وكانت الأخيرة تطلق على نفسها اسم ايسابيل دى سابدرا •

ولكن هناك وثائق محفوظة فى سجلات البروتوكول بمدريد تشير الى أن هذه الغراميات كان من ثمرتها ايسابيل التى جاهرت فى تقرير ممهور بتوقيعها أنها « ابنة ميجل دى ثربانتس وآنا دى روخاس » •

وهناك اشارة الى ايسابيل هذه فى بالبادوليد فى عام ١٥٩٩ ـ أنها تعيش مع ثربانتس وشقيقته ماجدالينا ، وأنها خادمة لهذه الاخيرة •• وهذه الحيلة لا تخفى على أحد يعرف تماما كيف ينظر المجتمع الاسبانى فى تلك الحقبة الى الفضائح • كما أن ثربانتس نفسه آثر تجنب المشاكل التى لا طائل منها فكان أبا كريما لابنة يبدو أنها سببت له كثيرا من المتاعب • وعندما تزوجت حدثت مشاكل ، وبعد وفاة هذا الزوج عادت الى منزل والدها الذى قرر أن يخصص مبلغا كبيرا من المال كبائنة لها يغرى به الراغبين فى الزواج حتى يتخلص من متاعبها •

وقد انتهى المطاف بايسابيل فى أحد الأديرة ، وهو نفس الدير الذى طلب والدها أن يدفن فيه •

وأخيرا أتم كتابه فى مخطوط يدوى ضخم عنوانه :

« النبيل العبقرى دون كيخوتى دى لامانتشا » •

وقد وجد ميجل ناشرا فى مدريد هو خوان دى لاكويستا •• وظهرت الطبعة الأولى من الكتاب فى يناير عام ١٦٠٥ وكان ميجل وقتئذ قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره •

خالجت الريبة والشك باعة الكتب ، فقد وجدوا فى الرواية جرأة وغرابة فاقت الحد ، وكانوا يفضلون أن يروا بطلا وسيما حسن المظهر على الأقل • فالأبطال من ذوى الشخصيات الجذابة لهم سوق رائجة •• ولكن حدثت معجزة •• فعلى عكس ماتوقعه خبراء السوق ومعرفتهم لذوق الجمهور ، وبرغم المظهر الحزين للبطل لاقت الرواية نجاحا باهرا • ولم تستطع المطابع فى مدريد وبالانثيا أن تلاحق الالحاح فى طلب الرواية ، وتوالت الطبعات وهى مقياس النجاح الساحق فى ذلك الوقت • ولم يتلق

المؤلف من الناشر الا الفتات التى كانت لاتكاد تكفى لمساعدته على مواجهة ديونه الفادحة ٠

ولم يكف سوء الطالع عن ملاحقته ففى السابع والعشرين من يونية عام ١٦٠٥ أصيب أحد النبلاء وهو جاسبار دى اثبليتا بجراح بالغة خارج منزل ثربانتس ومات بعد يومين من الحادث دون أن يفصح عن اسم القاتل ٠٠ وتبين من التحقيق أن القتيل كانت له علاقة غرامية باحدى السيدات المتزوجات اللواتى تسكن فى بيت ثربانتس ٠ ولهذا لا يستبعد أن يكون زوجها هو الذى جرح اثبليتا فى مبارزة بينهما بعد تراشق بالعبارات ٠ واتجهت الظنون الى ايسابيل ابنة ثربانتس ، ولهذا حام الشك حول ثربانتس نفسه وأنه هو المتعارك مع اثبليتا فصدر الأمر باعتقال ثربانتس وابنته وآخرين ٠ وبعد تحقيق طويل تبين أن اثبليتا كان على علاقة مع زوجة أحد القضاة ويدعى جلفان ، وأن المعركة دارت بينه وبين جلفان هذا ٠ وبرغم تبرئة ثربانتس وعائلته الذين أطلق سراحهم ، الا أن الحادث جر عليه الويلات ، اذ كان ينظر الى العائلة بعدم الاحترام والتوقير الكافى ربما بسبب ابنته ايسابيل التى لم تكن حياتها مثالية ٠

وفى عام ١٦٠٩ انتقل ميجل الى مدريد بعد أن عاد اليها فيليب الثالث ٠ واستقر ثربانتس هناك بقية حياته ٠

وفى عام ١٦١٣ صدر له « قصص نموذجية » ٠

وفى عام ١٦١٤ أنتج مجلدا شعريا بعنوان : « رحلة الى بارناسو» ٠

وبينما ثربانتس يعمل بجد فى الجزء الثانى من روايته روع فى نفس عام ١٦١٤ بمؤلف مازال مجهولا حتى الآن ينشر تكملة مزيفة لمغامرات دون كيخوتى ووقعها باسم مستعار : آلونسو فرناندث دى آبيانيدا ، ونشر هذا الجزء الثانى لحسابه مستغلا نجاح ثربانتس فى روايته دون كيخوتى ٠٠ وبرغم جرأة وصفاقة هذا المؤلف المجهول وقلة حيائه الا أننا قد نكون مدينين له بأن الجزء الثانى من الرواية قد كتبه ثربانتس بعد أن حفزه ماحدث الى اتمام روايته ليثبت أنه المؤلف الحقيقى لدون كيخوتى ٠ وظهر الجزء الثانى وعرض للبيع فى مدريد فى السنة التالية ٠

ونحن نجد رد الفعل لدى ميجل ازاء أبيانيدا الذى كتب دون كيخوتى المزيف واردا فى المقدمة التى استهل بها ثربانتس الجزء الثانى من روايته الذى ظهر عام ١٦١٥ ، وفيها يقول :

« كان الله فى عونى ! بأية لهفة أيها القارىء لابد أنك تنتظر هذه المقدمة ، متوقعا أن تجد فيها انتقاما من مؤلف دون كيخوتى الثانى ، وهجوما عليه وصبا للشتائم فوق رأسه ٠٠ أنت ربما وددت أن أقول عنه انه حمار ، أحمق ، وقح ؟ لكن هذا ليس فى نيتى ٠ وليكن فى خطيئته عقابه ، وليلزمها فى علقه ، وليهنأ بها » ٠

وكم حز فى نفس ميجل ما عيره به أبيانيدا من أنه عجوز وبذراع واحدة ، ونحن نجد صدى لذلك فى قوله فى نفس مقدمة الجزء الثانى من دون كيخوتى :

« لكن أشد ما آلم نفسي هو أنه يقول عني أنى عجوز بذراع واحدة، وكأنه كان فى مقدورى أن أقف عجلة الزمان فلا تدور بالنسبة الى ، أو كأن يدى تحطمت فى حانة من الحانات ، لا في أعظم عمل يستحق الخلود عرفته القرون الماضية ، وتعجب به القرون الحاضرة ، ويمكن أن تحلم برؤيته الأجيال المقبلة • واذا كانت جراحى لاتلمع فى عيون من يرونها ، فهى على الأقل موضع تقدير ممن يعرفون كيف أصـــبت بها • ومخاطر الجندى فى المعركة تشرفه أكثر من السلامة التى يجدها فى الهرب » •

ثم يقول :

« ان الجراح التى يحملها الجندى هى بمثابة نجوم تهديه وتقوده الى سماء الشرف » •

وقد قص ميجل بعض المزح والنكات يغمز بها رغبة آبيانيدا فى أن يظل مجهولا • وختم تلك المقدمة قائلا :

« ولن أطيل عليك أيها القارىء العزيز • وانما انبهك الى أن الجزء الثانى من دون كيخوتى الذى أقدمه اليك الآن ، قد فصل على نفس نموذج الجزء الأول ومن نفس قماشـــه • وفيه أقدم اليك تتمة مغامرات دون كيخوتى حتى وفاته ودفنه ، كيلا يخطر ببال أحد أن ينســـب اليه أفعالا جديدة • ان أفعاله القديمة تكفى ، وحسب رجل شريف أن يكون قد أفضى اليك بنبأ حماقات دون كيخوتى العاقلة ، دون أن يأتى انسان فيحشر نفسه فيها • فوفرة الأشياء الجيدة تبخس من قدرها ، أما ان كانت رديئة فان ندرتها قد تعطى له بعض التقدير » •

وكان بقية ردّه على المقلد المزيف هو تأليفه لذلك الجزء الثانى من الرواية والتى فاقت الجزء الأول فى عمق النظرة ، وما يفيض به من عذوبة ، ونضج القيم ، والتى تعطى له قوة وفكاهة تبعث بهجة خالدة •

وفى أثناء حياة ميجل ظهرت روايته فى فرنســـا وايطاليا وانجلترا والمانيا وهولندا وبولندا والسويد ثم انتشرت ترجمات أخرى لا تعد ولا تحصى •

وقد أصبح دون كيخوتى رمزا يجسد عصرا انتقاليا ، زد على ذلك أن أبطال الرواية أصـــبحوا مرآة لكل من يقرأهم ،ولهذا خلدوا حتى أيامنا هذه •

وظهرت لميجل مجموعة من المسرحيات بعنوان : « ثمان كوميديات وثمانية فواصل هزلية جديدة لم تعرض أبدا » ٠

طبقت شهرة كاتبنا الآفاق كعلم بارز من أعلام الادب فى الأعوام الأخيرة من حياته الا أنه ظل يعانى من الفقر وشظف العيش حتى آخر نسمة له ٠ لقد أتته الشهرة متأخرة ٠٠ فقد أنجز عمله وانتهى مشواره ٠

واستمر ميجل الذى بلغ التاسعة والستين من عمره يعمل كعهدنا به دائما رغم أنه كان طريح الفراش بعد أن ساءت صحته وتساقطت أسنانه ٠ وذات ليلة خفت ضوء الشموع المحترقة دون أن يلحظ ذلك ٠ وما جاء فجر الثالث والعشرين من ابريل عام ١٦١٦ حتى أسلم الروح وحيدا فى ساعاته الأخيرة كما كان خلال حياته التى لم يذق خلالها السعادة الا لمحات خاطفة ٠٠ ومع ذلك لم يخرج انسان هذا القدر من البشر والمرح من ثنايا الشقاء والحرمان كما أخرج ثربانتس ٠

وقبيل وفاته ببضعة أيام كان قد انتهى من رواية « أعمال برسيلس وسيجيسموندا » والتى نشرت فيما بعد فى عام ١٦١٧ ٠

ويقال انه يوم شيع جثمانه سار خلفه حشد هائل من الناس وازدحمت الطرقات بالرجال والنساء وقد ركعوا أمام المشهد الجليل ٠٠ وتجاور الأمراء والنبلاء والدهماء والمطارنة والرهبان جنبا الى جنب وقد آخى الحزن بينهم جميعا ٠

وعندما توقفت أجراس الكنائس عن ارسال دقاتها الحزينة ،تفرقت الجموع وغابوا فى زحمة الحياة ٠

ومن العجيب أن قبر ثربانتس غير معروف ، وهو الرجل الذى كرمته أسبانيا اليوم ٠٠ ففى معظم المدن والقرى والدساكر يوجد ميدان وشارع هام يحمل اسمه ، واقيمت له مئات من النصب التذكارية ، بعد أن ظل منسيا ردحا طويلا من الزمن ٠

واذا كان مثوى ميجل مجهولا ، ومنبت رأسه غير معروف تماما ، فان دون كيخوتى مازال عائشا ، ومن خلاله أفلت ميجل من طوفان الزمن وسطر اسمه فى سجل الخالدين ٠وكما قال ثربانتس فى خاتمة الجزء الثانى من روايته ،على لسان سيدى حامد بن النجيلى ، موجها كلماته الى قلمه :

« أى قلمى الصغير ٠٠ ابق معلقا فى هذا المسمار بهذا السلك النحاسى ٠ وستبقى قرونا طويلة اذا لم ينتزعك مؤرخون لصوص ليدنسوك ٠ لكن قبل أن يفعلوا ذلك قل لهم بأعلى صوتك ٠٠ كفوا أيديكم أيها الأوغاد ٠٠ » ٠

ثم يقول :

« فمن أجلى أنا ولد دون كيخوتى ، وأنا ولدت من أجله ٠ وكان عليه أن يعمل ، وكان على أن أكتب ٠٠فنحن الاثنان واحد ٠٠ وداعا ! » ٠

الفصـــل الثالث

سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ
في حيـــاة ثربانتس

١٤٥٧

ولد ميجـــل دى ثربانتس بن رودريجو دى ثربانتس وليونور دى كورتيناس · وكان الرابع بين سبعة أبناء · عمد فى التاسع من أكتوبر ·

١٥٦٤ ـ ١٥٦٥

درس فى أشبيلية لدى اليسوعيين ؟

١٥٦٨ ـ ١٥٦٩

نشرت أشـــعار ثربانتس فى ذكرى وفاة ايزأبيل دى فالوا الزوجة الثالثة لفيليب الثانى · وقد أعدها للطبع والنشر لوبيث دى أويوس ، وكان ثربانتس تلميذا له ·

١٥٦٩

فى روما فى خدمة المونسنيور أكوافيفا الذى رقى الى كاردينال فى ١٧ مايو عام ١٥٧٠ ·

١٥٧١

بطولة عسكرية فوق سطح الماركيزا فى معركة ليبانتو فى السابع من أكتوبر ، التى انتصر فيها دون خوان النمساوى ، الابن غير الشــــرعى لشارل الخامس عاهل أسبانيا ، على الأتراك ·

وفى هذه المعمعة فقد ميجل استعمال يده اليسرى ·

١٥٧٥

بعد اقامة مستمرة فى ايطاليا ، أبحر على ظهر السفينة « الشمس » مع أخيه رودريجو ·

أسرهما القراصنة ورحلوهما الى الجزائر ضمن عبيد دالى مامى ·· يونانى اعتنق الاسلام ·

١٥٧٥ ـ ١٥٨٠

اسيير فى الجزائر حيث دبر أربع محاولات للهرب مع رفاقه من الأسرى الأوروبيين بسعة حيلة ودهاء وبطولة الا أنها باءت بالفشل ·

١٥٧٧

اطلاق سراح رودريجو بعد أن دفعت أسرته فديته ، وغادر أسبانيا ليدبر عملية انقاذ شقيقه بالقوة من السجن ، ولكنها فشلت ·

١٥٨٠

دفع فدية ثربانتس بوساطة الراهب الثالوثى خوان خيل ·

١٥٨١ ـ ١٥٨٧

بعد القيام بمهام سرية فى البرتغال وأوران ، حاول السير فى ركاب الأدب فى مدريد ككاتب مسرحى فلم يلق الا نجاحا ضئيلا ·

علاقة غرامية مع آنا فرانكا دى روخاس والدة ابنته غير الشرعية ايسابيل دى سابدرا ·

١٥٨٤

طبع «لاجالاتيا » وهى رواية رعوية ·

تزوج كاتالينا دى سالاثار بلاثيوس ·· فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ، وكانت تصغره بما يوازى نصف عمره تقريبا ·

١٥٨٥

١٣ يونيو : وفاة والد ثربانتس ·

١٥٨٧ ـ ١٥٩٥

عين مأمورا للتعيينات فى الأرمادا ثم جابيا متجولا للمؤن والأقوات وأمضى معظم وقته فى الأندلس ·

تورط فى مشاكل قانونية ومالية بخصوص حفظ حساباته ·

١٥٩٣

١٩ أكتوبر : وفاة والدة ثربانتس

١٥٩٧

سجن فى أشبيلية على زعم أنه أساء استعمال وظيفته ·

١٥٩٨

وفاة آنا فرانكا دى روخاس ·

١٥٩٩

التحقت ابنته ايسابيل بخدمة شقيقته ماجدالينا ·

١٦٠٠

مصرع رودريجو شقيق ثربانتس فى ساحة الوغى ·

١٦٠٢

ربما دخل السجن مرة أخرى بسبب حسابات قديمة ·

١٦٠٤

بدأت كلمتا دون كيخوتى تنتشران ·فقد ذكرت عرضا فى خطاب بعث به الأديب الشهير لوبى دى بيجا فى ١٤ أغسطس الى صديق له قائلا : « ليس هناك شاعر أسوأ من ثربانتس ، ولاشىء أسخف من أن تمتدح الدون كيخوتى » · وكان لوبى دى بيجا يبغض ثربانتس ولايرى فيه الا دعيا على الأدب · ولم تكن الرواية طبعت بعد ، ولكن يبدو أن الأيدى تداولتها مخطوطة ·

منحت الرواية حق الطبع فى ٢٦ سبتمبر ·

١٦٠٥

نشرت رواية دون كيخوتى (الجزء الاول) وبيعت حقـــوق الطبع الى الناشر ·

ظهرت طبعات مســــروقة فى البرتغال · وظهرت الطبعة الثانية فى مدريد مؤخرا فى نفس العام ·

تفجرت فضيحة مخمة فى باليادوليد توحى بأن شقيقتيه وابنته غير الشرعية يعشن حياة سائبة · ولكن ثربانتس كان بريئا ·

١٦٠٨

تزوجت ايسابيل زوجا ثريا ، ولو أن ذلك كان مشوبا بظروف من الخداع والجشع ·

١٦٠٩

ثربانتس ينضم الى جمعية عبيد القربان المقدس فى مدريد · وقد انضم بعض أفراد أسرته اليها ·

وفاة أندريا الشقيقة الكبرى لثربانتس فى التاسع من أكتوبر ·

١٦١١

وفاة ماجدالينا الشقيقة الصغرى لثربانتس فى الثامن والعشرين من يناير ·

١٦١٣

نشرت « قصص نموذجية » ·

اصبح ثربانتس عضوا من الدرجة الثالثة فى رهبنة الفرانشيسكان

فى آلكالا دى أناريس • وعضو الدرجة الثالثة يشارك فى حياتها الدينية ولكنه غير ملزم بما يلزم به أفرادها أنفسهم •

معاش تقاعد من كونت ليموس •

١٦١٤

نشرت « رحلة الى بارناسو » •

ظهرت رواية دون كيخوتى المزيف وهى تتمة مقلدة كاذبة للجزء الأول من رواية ثربانتس ، طبعت فى تاراجونا بوساطة شخص مجهول ، وربما تحت الاسم المستعار ألونسو فرناندث دى آبيانيدا •

١٦١٥

نشر الجزء الثانى من دون كيخوتى الذى طبع فى ديسمبر • وأيضا نشر فى نفس العام « ثمان مســرحيات وثمانية فواصل هزلية جديدة لم يسبق عرضها من قبل » •

١٦١٦

لفظ ثربانتس أنفاسه الأخيرة فى مدريد يوم السبت ، الثالث والعشرين من أبريل ، تاركا أرملته وأحد الأخوة الرهبان كمنفذى وصيته •

١٦١٧

طبعت بعد وفاته « أعمال برسيليس وسيجيسموندا » •

الباب الثانى

دراسة تحليلية لنص الرواية

الفصل الأول : العناصر الرئيسية للرواية

الفصل الثاني : شخصيات الرواية

الفصل الثالث : عرض لآراء الكتاب والنقاد فيالعمل

الباب الثانى

بلغ عدد الشخصيات ستمائة وتسع وستين شخصية وردت فى رواية « النبيل العبقرى دون كيخوتى دى لامانتشا » التى صـاغها ميجل دى ثربانتس فى أربعمائة وواحدة وستين ألف كلمة ، فضلا عن أن ثربانتس كان ولوعا بالتلاعب بأسماء شخصياته فرأيناه يسمى تابعه سانتشو باسم بيرنخينا ،وكذلك يستخدم أسماء أصدقائه ووالديه . وليس هذا فحسب ، بل وصل التلاعب الى اسمه نفسه فأطلق على مؤلف رواية « دونكيخوتى » اسما عربيا هو ابن النجيلى . وفى هذا ما قد يبعث على حيرة الباحثوالناقد والمحلل ، اذ لو تصورنا أننا كتبنا صفحة واحدة لا غير عن كل شخصية لوصل عدد صفحات الباب الثانى فى هذا الكتاب الى ٦٦٩ صفحة !

وقد اكتفينا فى دراستنا التحليلية لنص الرواية بمناقشة العناصر الرئيسية لها فى الفصل الأول من هذا الباب . ووقع اختيارنا فى الفصل الثانى على الشخصيات الرئيسية التى رأينا أنها ذات أهمية ، ولها دلالتها ومغزاها ، فتناولناها بالتحليل .

وأفردنا الفصل الثالث لعرض آراء الكتاب والمعلقون والشـراح والنقاد فى العمل ، والذين وجدوا كل أنواع المعانى فى الرواية رغم أن مؤلفها ميجل دى ثربانتس نفسـه يحدث القارىء فى مقدمة روايته على لسان صديق له بأن ألفاظها بسيطة صافية أمينة حسنة السبك ، وفواصلها رنانة ، ومعانيها مفهومة خالية من العبث والغموض ، وحكايتها مسلية ،

وقراءتها تثير الضحك فى الحزين ، وتزيد من بهجة الضاحك ، وتطرد الملل عن البسطاء ، وتدعو الى اعجاب الحاذقين بابداعها ، ولا يرى الحكيم مندوحة من اطرائها · ويعترف مؤلف « دون كيخوتى » بأنه لم يقصد من روايته سوى شجب هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية ومافيها من عبث وهوس خيالى ·

ولم نقتصر فى عرض آراء الكتاب والنقاد على أسبانيا فحسب ، بل حرصنا على انتقائهم من شتى البلدان والدول لعل الصورة تصبح أوضح وأكمل ·

الفصـــل الأول

العناصر الرئيسية للرواية

– ١ –

هـــذه الـــرواية

« دون كيخوتى » هى قصة نبيل ريفى عجوز يدعى دون ألونســو كيخادا أو كيسادا قضى عمره متعطلا كســولا فى قرية صغيرة باقليم المانتشا . وكانت تسليته الوحيدة قراءة كتب الفروسية ومغامرات الأبطال .. وقد امتلأ خياله منذ صغره ، كما امتلأ خيال ثربانتس الذى أبدعه ، بكل ما قرأ فى قصص الفروسية ، وجن جنونه شغفا بها حتى باع أرضه ليشترى كتبا ، وامتلأت نفسه خيالات وأوهاما ، وألحت عليه صــور المعارك ومشاهد الحب والغرام .

وفى أثناء هذه القراءات يفقد الادراك السليم ، ويتخذ من الخيال حقيقة .

وقد دفعه جنونه الى تنفيذ ما تصوره فى خياله ، فيترك منزله ، ويختار لنفسه اسم دون كيخوتى دى لامانتشـــا ، وقرر أن يجوب هذه المقاطعة ممتطيا صهوة حصانه الهزيل الأعجف العجوز مثله ، وقد ارتدى زى فارس متجول ، وأمسك رمحا طويلا ، وعلق السيف فى حمائله ... خرج ليلقى الظالمين وقلبه عامر بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو اصلاح ما فى العالم من شرور .

وتقص الرواية كل ماحدث لبطلنا خلال هذا المشــوار الطويل ، وتتكون من مائة وأربعة وعشرين فصلا وتنقسم الى جزأين :

الجـــزء الأول :

ويمتد حتى الفصل الثانى والخمسين · وقد كتب فى السنوات مابين ١٥٩٨ ، ١٦٠٤ ·

الجـــزء الثـــانى :

ويتكون من اثنين وسبعين فصلا · وقد كتب فيما بعد ، وطبع عام ١٦١٥ ·

وفى مقدمة الجـــزء الأول الذى نشـــر فى مدريد عام ١٦٠٥ يؤكد ثربانتس على أنه ليس الا مترجما للقصة التى وجدها فى كتاب باللغة العربية ينسب تأليفه الى رجل عربى يسميه سيدى حامد بن النجيلى · ولكن هناك أمثله عديدة لما لجأ اليه ثربانتس لاضفاء صفة الغموض على الرواية ، وليخلع على كتابه طرافة وأصالة · الا اذا عثرنا على ادلة ووثائق تثبت ما يقوله مستقبلا ·

ويؤكد ثربانتس فى المقدمة نفسها الحقيقة التاريخية لشخصية بطله ·· دون كيخوتى ، ويقول ان جميع سكان مقاطعة المانتشا يذكرون عنه انه كان « أعف عاشق وأشجع فارس شوهد فى هذه المنطقة منذ زمن طويل » ·

وحتى نفهم هذا المديح والاطـــراء ، يجب أن نعرف أن روايات الفروسية فى أسبانيا فى القرن السادس عشر كانت هواية جماعية وفكرة قومية متسلطة أكثر مما تكون نوعا أدبيا · ان بطل هذه الروايات هو خليفة عالم الفروسية كما كان موجودا فى عهد الصليبيين · وكان ذلك انطلاقا الى عالم الأحلام الجميلة ، وخروجا من الجو الذى كانت تمزقه الأزمات السياسية والدينية التى شـــابت عهد فيليب الثانى · فهؤلاء الفرسان الشجعان الذين وهبوا أنفسهم للرب والوطن كانوا محببين الى عامة الشعب ·

وكانت أسبانيا تتمثل فى هذا الفارس الذى يســـتطيع أن يهـــزم المخلوقات الخرافية ، وأن يتسلق أعلى القمم ، ويواجه أعمال السحر والشعوذة ، ويمحو من الأرض أخطر أعدائها لنصرة الحق والعدل ·

وقد أدت هذه الهواية الى ظهور الكثير من قصص المغامرات التى كان الناس يتخاطفونها · ولم يسلم أحد من جـــاذبية هذا الأدب رغم تنبيهات الكنيسة التى لم تكف عن التذكير بتأثيرها الخطير على الشباب ·

لقد أدرك ثربانتس ما تحمله هذه الهواية فى نفس الوقت من تفاهة وتأثير ضار ، فأراد أن يضع روايته فى قالب من السخرية اللاذعة ، فقدم لنا مغامرات بطله كما أمكن لخياله أن يقدمها ، ونراه يقول فى مقدمة

الجزء الأول من الرواية : « أيها القارىء الخلى ! تستطيع أن تصدقنى دون أن تستحلفنى اذا قلت لك انى كنت أود لهذا الكتاب ، لأنه وليد عقلى، أن يكون أجمـــل وأروع واظرف ما يمكن تخيله . بيد أنى لم أقو على مخالفة نظام الطبيعة الذى يقضى أن يلد الشىء شبهه » . بينما كان الكتاب الآخرون يكتبون قصص الفروسية بحماس وعن اقتناع : « ان الراحة وسكون المقام وطيب المروج وسجو السموات وخرير الينابيع ودعة الروح ـ كل أولئك ترد عقمم ربات الوحى خصبا بالغا ، وتهب الدنيا ثمارا تملؤه رضى واعجابا » .

هكذا شـــرح لنا ميجل دى ثربانتس الظروف التى ولد فيها دون كيخوتى .

ودون كيخوتى مخلوق غريب الأطوار لم يكن فارسا ولكنه يريد التشبه بواحد من الفرسان كأنه مثل أعلى يصعب الوصول اليه ، وقصة حياته هى قصة الكفاح الذى ينبغى على الانسان أن يخوضه اذا أراد التوفيق بين المثل الأعلى وبين تفاهة الحياة اليومية الواقعية .

ولزيادة هذا التباين والتناقض خلق ثربانتس شـــخصية سانتشو بانثا السائس الذى يجمع بين البلاهة والتعقل ، الذى يجيب بصوت أرضى على خيالات سيده .ويختتم ثربانتس مقدمته بهذه الكلمات : « أريد منك أيها القارىء أن تشكرنى عندما تتعرف بسانتشو بانثا وفيه سترى فيما أعتقد ، كل مناقب المهنة مجتمعة بعد أن كانت مشتتة فى هذا الحشـــد الهائل الزائف من كتب الفروسية » .

ـ ٢ ـ

مـــولد فـــارس

تبدأ المغامرة بكلمة عن دون ألونسو كيخادا أو كيسادا ، أحد النبلاء الريفيين الذين يعيشون فى ناحية من نواحى اقليم المانتشا . وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا ، مولعا بالصيد ، وهو ممن فى مسلحتهم رمح ، ولهم ترس عتيق وبرذون ضامر وكلب سلوقى . ويقضى الأوقات التى لا عمل فيها ، أعنى طوال

العام تقريبا فى الانكباب على قراءة كتب الفروسية بلذة ونهم يبلغان حدا جعله يكاد ينسى الخروج للصيد وادارة أمواله ٠

وغرق فى قراءاته ، وامتلأ خياله بكل ما قرأ فى هذه الكتب ، عن ألوان السحر والخصومات والتحدى والمعارك والجروح ولفتات المجاملة، والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة ، وامتلأ وهمه يقينا بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام هو الحقيقة بعينها ٠

وأخيرا وقد فقد صوابه ، استبدت به فكرة هى أغرب ما يتخيله مجنون فى هذه الدنيا : فقد رأى من اللائق بل من الضرورى ، سواء لتألق مجده ولخدمة وطنه أن يصبح فارسا جوالا ، فيسعى فى مناكبها ، بفرسه وسلاحه ، وراء المغامرات ، وأن يمارس جميع ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه : فيصلح الأخطاء ، ويتعرض للأخطار فى كل المناسبات حتى ينال بمجابهتها والتغلب عليها ذكرى لا تمحى أبدا ٠

وحتى نرى مدى امتلاء خياله بقصص الفروسية ، سنستمع الى ما قاله ردا على سؤال عن معنى الفرسان الجوالة وجهه اليه سيد يدعى فيفلدو قابله فى الطريق :

« أولم تقرأوا ياسادة أخبار انجلترا وتاريخها ، حيث تروى مغامرات الملك آرثر الشهيرة ، والذى نسميه فى لغتنا الأسبانية باسم آرتوس ، وما يقال عنه فى السنة القديمة المروية فى مملكة بريطانيا العظمى كلها من أنه لم يمت أيضا ، وانما تحول بفعل السحر الى غراب ، وأنه سيأتى ذات يوم بعد مرور أزمان فيسترد تاجه وصولجانه ٠

نعم ! فى عهد هذا الملك الطيب أنشئت طريقة الفرسان الشهيرة المسماة « المائدة المستديرة » وجرت الوقائع الغرامية بين لونسلوت وبين الملكة جينفيرا ٠

ومنذ ذلك التاريخ وهذه الطريقة للفروسية تنتقل من يد الى يد ، وتنمو وتنتشر فى شتى أصقاع الدنيا ٠ ففى أحضانها نشأ وترعرع وذاع صيت الشجاع أماديس الغالى بفضل مغامراته ، هو وابناؤه جميعا وأحفاده حتى الجيل الخامس ، ثم الشجاع فليكسمارته الهركانى ، وذلك الآخر الذى لن يبالغ المرء مهما أطنب فى مديحه ونعنى به تيرانتى الأبيض، وأخيرا وفى عصرنا هذا تقريبا ، رأينا وسمعنا وعرفنا الفارس الذى لا يقهر دون بليناس الرومى ٠ هذا ياسيدى معنى أن يكون المرء فارسا جوالا ، وتلك هى طريقة الفرسان التى حدثتك عنها ، واليها انتسبت وان كنت محملا بالخطايا ، مؤمنا بكل ما آمن به أولئك الفرسان الذين أتيت على ذكرهم ٠ ومن أجل هذا أسعى فى هذه القفار الموحشة ، باحثا عن المغامرات ، عاقد العزم على المخاطرة بذراعى وحياتى فى أخطر ماعسى

أن يلقى بى فيه المصير ، مادام فى سبيل اغاثة الملهوفين واسعاف المحتاجين » ·

وراح صاحبنا النبيل ،نشوانا بهذه الأفكار الحلوة وما فيها من اغراء لا يقاوم ، راح يبادر الى وضع هذه الأمنية موضع التنفيذ · فكان أول شىء عمله هو أن ينظف مشكا (مجموعة من الأسلحة) كان ملكا لأجداده ثم ظل قابعا فى ركن من الأركان منذ قرون فريسة الصدأ والرطوبة ، فغسله وحكه وأصلحه بقدر ما تهيأ له · ثم راح يفتش عن برذونه ·· وعلى الرغم من أنه كان فيه من الأوجاع أكثر مما فيه من الأعضاء ، فانه تراءى له أن فرس الاسكندر المدعو بوكفالوس لا يدانيه · وظل أربعة أيام يتخيل أى اسم يعطيه لهذا البرذون · وكان العقل يقضى بأنه مادام سيده قد غير من أحواله ، فيجب أن يتغير اسمه فيصبح اسما فخما رنانا حسبما يقتضيه الوضع الجديد والمهنة الجديدة التى اتخذها · وهكذا بعد أن استعرض أسماء ألفها ثم محاها ، وقضمها ثم زادها ، وركبها وحلها فى ذاكرته وخياله ، توصل أخيرا الى تسميته باسم : روثينانتى ·

ولما أعطى فرسه هذا الاسم الذى وافق مزاجه ، ود أن يعطى لنفسه اسما ، فأنفق ثمانية أيام أخرى فى هذا الأمر ، توصل فى نهايتها الى أن يسمى نفسه باسم دون كيخوتى ! ·

ثم تذكر أن الشجاع أماديس لم يقنع بأن يلقب باسم « أماديس » فحسب ، بل أضاف الى اسمه اسم بلده ليشتهر ، ولهذا تلقب بلقب : أماديس الغالى ، فشاء أيضا ، شأن كل فارس حقيقى ، أن يضيف اسم بلده الى اسمه ، ولهذا تسمى « دون كيخوتى دى لامانتشا » وخيل اليه بهذا أنه دل بوضوح على جنسه ووطنه ، وأنه شرف وطنه بأن اتخذ نسبة اليه ·

تبين لدون كيخوتى أن المشك ينقصه شىء مهم وهو أنه لم يكن فيه خوذة كاملة بل بصلة فحسب ، والخوذة غطاء حديدى للرأس مستدير نصف كروى يلبسه المقاتل ، أما البصلة فكانت بيضا مرتفع الجوانب · وقد عالج دون كيخوتى الأمر بمهارته بأن أتى بورق مقوى وصنع منه شبه نصف خوذة عشقها مع البصلة فبدت على هيئة خوذة كاملة · وأراد أن يجرب اذا كانت ستصمد لحد السيف فأهوى به عليها بضربتين كانت الأولى كافية لأن تحطم فى لحظة عمل أسبوع ·فتضايق من سهولة تمزيقها . ولكى يطمئن على هذا الخطر شرع فى عملها من جديد ، وبطنها بقضبان حديدية خفيفة ، حتى اطمأن الى صلابتها ، واعتقد أنها خوذة من أدق الأنواع ، دون أن يحاول تجربتها مرة أخرى ·

ولما نظف سلاحه ، وصنع من البصلة خوذة ، وأعطى لبرذونه اسما ،

اقتنع بأنه لم يعد ينقصه شيء اللهم الا البحث عن سيدة ليعشقها · وغلبت على صاحبنا الفارس نشوة الطرب عندما وجد من سيعطيها اسم سيدته · اذ يقال ان هذه كانت فتاة فلاحة مليحة الوجه تسكن فى قرية مجاورة لقريته ، وكان يعشقها حينا من الزمان ، وان كانت هى لم تعرف عن هذا الأمر شيئا ولم يكن يعنيها فى قليل أو كثير · وكانت تدعى الدونثا لورنثو ، فاستحسن أن يطلق عليها اسم السيدة التى سيطرت على أفكاره · فبحث لها عن اسم لا يبعد كثيرا عن اسمها ، اسم يشتم منه ويمثل السيدة العظيمة والأميرة ، فلقبها بلقب : دولثينيا دل توبوسو ، لأنها كانت من قرية توبوسو ، وقد بدا له اسما موسيقيا نادرا ممتازا ، لا يقل عمقا فى التعبير عن سائر الأسماء التى أطلقها على نفسه وعلى أشيائه ·

ولما تجهز بجهازه ، لم يشأ أن ينتظر أكثر مما انتظر لتنفيذ ما انتواه · ودفعه الى الاسراع اعتقاده أن العالم سيفقد الكثير اذا تأخر ، فكم كان يرجو أن ينتقم من مظالم ، وأن يصلح من أخطاء ، وأن يعالج من اهانات ، وأن يصحح من اساءات ، وأن يسدد من ديون ! ولهذا ، ودون أن يسر لأحد بما انتواه ، ودون أن يراه أحد أفاق ذات يوم حار شديد القيظ من أيام شهر يوليو قبل أن يمد الفجر لسانه الدقيق ، وتسلح بكل سلاحه ، وامتطى صهوة روثينانتى ، وارتدى خوذته الغريبة ، وأمسك برمحه ، وخرج الى الحقول من باب خلفى ناحية فناء الدواجن فرحا جذلا اذ شعر بالسهولة التى استهل بها تنفيذ غرضه النبيل وهو فى طريقه ليبدأ مغامرته العجيبة ·

والرواية تسلك فى سردها ثلاثة طرق متشابكة فى تناسق منتظم :

الطريق الأول :

يتابع مغامرات دون كيخوتى مع شيء من انحرافات بعض مغامرات الشخصيات التى يقابلها فارسنا ·

الطريق الثانى :

يشمل مجموعة من اللقاءات التى من أهدافها ابراز صفات بعض الشخصيات ، والتى تنتهى بالأسلوب الأدبى الساخر ·

الطريق الثالث :

عبارة عن القصص التى تقوم شخصيات مختلفة بسردها فى أثناء فترة راحة أو فى احدى السهرات ·

— ٧ —

عالم الطواحين الهوائية

ان قصة مغامرات دون كيخوتى الشخصية تقع فى خمسة وعشرين فصلا من الجزء الأول ومثلها من الجزء الثانى ، وهى مليئة بالخيال تحكى أحداثا فى منتهى الغرابة وأساس كل هذه الأحداث الجنون ، وهو جنون من نوع خاص تحدوه الرغبة فى اضفاء رداء من النبالة والجمال على عالم تافه خشن فظ •

ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، واتقدت أشعتها وظل فارسنا سائرا اليوم كله دون أن يقع له ما يستحق الذكر ، حتى اذا ما وافى المغيب كاد هو وحصانه يتساقطان اعياء ويموتان ظمأ • فراح يتفرس فى المكان من كل ناحية عله يجد المأوى والعلاج ، فلمح غير بعيد من الطريق الذى كان يسير فيه فندقا فحث الخطى حتى بلغه ، وحط رحاله أمام فندق ريفى عادى •وتصادف أن وقفت امرأتان من بنات الهوى عند الباب ، وكانتا فى الطريق الى أشبيلية مع بعض البغالين الذين قرروا النزول بهذا الفندق تلك الليلة • وعندما اقترب من الباب وشاهد البنتين ، بدتا له آنستين فاتنتين أو سيدتين رشيقتين تسترفهان • ولكنهما ما كادتا تبصران هذا القادم المدلح بالرمح والترس حتى أسرعتا الى داخل الفندق وقد روعهما منظره • فاذا به يرفع حافة الخوذة الكرتونية ، ويكشف عن وجهه الجاف الأغبر ، قائلا فى رقة : « لاتراعا ياصاحبتى العصمة ، ولا تهربا ، فان نظام الفروسية الذى انتسب اليه يقضى بعدم اهانة أحد ، خصوصا أن كان مثلكما آنستين من ذوات الحسب » • ولكنهما عندما سمعتاه يدعوهما باسم « آنستين » وهذا أمر بعيد جدا عن مهنتهما ، لم يتمالكا من الضحك الأمر الذى جعل دون كيخوتى يغضب ويقول لهما بلهجة جادة : « الأدب من شيمة الجمال ، والضحك لسبب تافه حماقة ، غير انى لا أقول لكما هذا لأضايقكما أو أعكر صفو سروركما ، فسرورى انما هو بخدمتكما » •

فزادت هذه اللهجة التى لم يفهماها وعبوس وجه دون كيخوتى من ضحكاتهما ومن غضبه ، غير أن صاحب الفندق ظهر فى تلك اللحظة ، وكان رجلا بدينا وديعا ، فقال : « أى سيدى الفارس ! ان كنت تبحث عن مأوى ، دون فراش فستجد سائر ماتبغى موفورا جدا » • وأجاب الفارس : « أى شىء يكفينى ياصاحب القصر » •

• وهنا يظهر خيال دون كيخوتى بأن يحول كل شىء ويختلق ماليس موجودا كما توحى به قوة خياله ، فالفندق المتواضع يصبح قصرا لا ينقصه شىء ، وخاله قصرا له أربعة أبراج وتيجان فضية لامعة ،

ولا ينقصه الجسر المتحرك ولا الخنادق ولا أية تفصيلات توصف بها أمثال تلك القصور على غرار ما ترا ٠

أعدت لدون كيخوتى مائدة عند باب الفندق ، وأحضر له صاحبه قطعة من سمك البكلاه رديئة الطهى ٠ ولكن الأمر الذى كان يقلقه هو أنه لم يسلح فارسا ، اذ خيل اليه أنه لاحق له شرعا فى المغامرة قبل أن يتلقى مراسم الدخول فى نظام الفروسية ، فعجل بالفراغ من عشائه الهزيل ، والتمس من صاحب القصر (الفندق) أن يسلحه فارسا ٠

يكتشف المحيطون بدون كيخوتى جنونه ، وكان صـــاحب الفندق خبيثا الى حد ما ، فقرر أن يتابعه على هواه لكى يهيىء زادا من الضحك تلك الليلة ٠ وأجاب دون كيخوتى بأنه على حق تام فى أمنيته هذه ، وأن هذا القرار طبيعى ، وأردف قائلا انه كان فى سنى شبابه يزاول هذه المهمة الشريفة ، فطاف بأرجاء الدنيا سعيا وراء المغامرات ، وفى النهاية جاء الى قصره هذا يعيش معتزلا ، ويستقبل فيه سائر الفرسان الجوالين ، من أية طبقة ومنزلة كانوا ، لا لشىء الا لانه يحبهم حبا جما ٠ وأســـرع صاحب الفندق باجراء المراسم والطقوس ليمنح دون كيخوتى رتبة فارس ، فأمر هذا الأخير أن يجثو على ركبتيه ، ثم راحل يتلو من دفتره ، الذى سجل فيهما أعطاه من تبن وشعير للبغالين ، كأنما يتلو صلوات ، وفى أثناء القراءة رفع يده وصفعه على قفاه صفعة قوية ، ثم ضربه بسيفه ضربة أخرى على كتفه ، وأمر احدى السيدتين بأن تمنطقه بالســـــيف ففعلت ما أمرت به برشاقة وحشمة بالغتين حتى تتمالك من الضحك فى كل نقطة من نقاط هذه المراسم ، متمنية له من الله أن يجعله فارسا سعيدا وافر الحظ فى المعارك ٠ ووضعت السيدة الأخرى المهماز فى قدميه ٠

ولما انتهت هذه المراسم ، شد دون كيخوتى السرج على روثينانتى فى عجلة ،ووثب ممتطيا صهوة جواده واحتضن صاحب القصر (الفندق) وأسرع راحلا بحثا عن المغامرات ٠

وهكذا تعود أسباب تعاسة الفارس الى رغبته فى عدم رؤية الواقع رؤية سليمة ، ولكن حسب خياله ، وكما يريد هو أن يكون ٠

وفى الطريق اكتشف حشدا من التجار ، وكانوا ســـتة يحملون مظلاتهم ، ومعهم أربعة خدم على خيول ، وثلاثة صبيان بغال يسيرون على أقدامهم ٠ ولم يكد دون كيخوتى يلمحهم حتى خيل اليه أنه بازاء مغامرة جديدة ، فوقف فى وسط الطريق وانتظر مقدم هؤلاء الفرســـان الجوالين كما حسبهم ٠ ولما وصلوا الى مرمى السمع والبصر صاح دون كيخوتى بلهجة ملؤها العجرفة : « فليقف كل فى مكانه ، اذا لم يعترف بأنه لا يوجد فى الدنيا بأسرها فتاة أجمل من امبراطورة المنتشا العديمة النظير دولثينيا دل توبوسو ! » ٠

ولما رفضوا أن يمتدحوا جمال فتاة أحلامه ، وجه لهم السباب واندفع مرخيا رمحه فى وجه أحدهم ، وكان مهذارا تمكن من اغاظته واثارة غضبه ، ولولا أن روثينانتى كبا لأصاب التاجر ضرر بالغ .. وعندما هوى الفرس على الأرض ألقى بسيده يدور بعيدا فوق التراب . وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع أبدا لأنه كان مثقلا بالرمح والترس والمهازين والبصلة وسلاحه العتيق . وفى خلال محاولاته اليائسة للنهوض وجه حديثه اليهم قائلا : « لا تهربوا أيها الجبناء ، أيها العبيد الأنجاس انتظروا ، فما بسببى ولكن بسبب فرسى وقعت » .

غير أن أحد خدم البغال من أتباع التجار ،الذين تبينوا من وجه دون كيخوتى وكلماته جنون صاحبها ، لم يستطع أن يتحمل هذه الكلمات المليئة بالتحدى والغطرسة ، فاقترب منه وانتزع رمحه وكسره ثلاث أو أربع قطع ، وأهوى باحداها على دونكيخوتى وانهال عليه بالضرب المبرح فى شدة وقسوة دون أن يستمع لنداء أسياده له بألا يسرف فى الضرب وأن يدعه وشأنه . ولكنه لم يشأ أن يخلى عنه قبل أن يصب عليه جام غضبه . ثم جمع سائر قطع الرمح ، وكسرها الواحدة بعد الأخرى على جسم هذا الراقد المسكين الذى ظل طوال هذه العاصفة من الضرب المتهاوى عليه فاغرا فاه يهدد السماء والأرض وقطاع الطرق ، اذ خالهم كذلك .

وأخيرا تعب البغال من الضرب ، وتابع التجار سيرهم ، وهم يحملون فى جعبتهم ما يصلح للتندر به طوال الرحلة عن حادث هذا المجنون المسكين الذى شبع ضربا . ولما رأى هذا نفسه وحده حاول النهوض دون جدوى .. وأنى له أن يستطيع ذلك وقد طحن ومزق .. ورغم هذا كان مسرورا راضيا ، اذ رأى فى هذه المحنة أمرا شائعا لدى الفرسان الجوالة ، ونسب الخطأ كله الى فرسه .

وشاء القدر فى تلك اللحظة أن يمر فلاح من أبناء ضيعته وكان جارا له ، أقبل يحمل حملا من القمح الى الطاحونة . واستطاع الرجل بمشقة بالغة أن يركبه على حماره اذ بدا له ركوبة أكثر وداعة . وبعد ذلك جمع أسلحته حتى شظايا رمحه ، وحزمها ووضعها فوق روثينانتى .. وأمسك هذا من عنانه وحماره من مقوده وسار فى اتجاه قريته الى أن بلغها ساعة المغيب . انتظر الفلاح حتى يكتمل الظلام كى لا يرى الناس هذا السيد المحطم على هذه الحال البائسة . فلما أرخى الليل سدوله دخل القرية وأوصل دون كيخوتى الى منزله .

استدعى دون كيخوتى أحد جيرانه وكان فلاحا طيبا يدعى سانتشو بانثا يعيش فى فقر ، وراح يقص عليه ويحاول اقناعه باذلا له الوعود المعسولة حتى قرر الرجل المسكين أخيرا أن يرحل معه وأن يعمل سائسا له وحاملا لسلاحه . ومن بين ماقاله له أن يستعد لصاحبته بقلب سليم ،

اذ قد تقع له مغامرة فيستولى فى لحظة على جزيرة ، يعينه حاكما لها مدة حياته • فأغرت هذه الوعود وأمثالها سانتشو بانثا فترك زوجه وأولاده وعمل حامل سلاح لجاره • عندئذ احتال دون كيخوتى لكى يحصل على المال فباع أشياء ورهن أخرى وبدد كل ما يملك حتى جمع من هذا كله مبلغا معقولا • وتجهز بترس من حديد اقترضه من أحد أصدقائه ، وأصلح ما استطاع خوذته المحطمة • ثم أخبر حامل سـلاحه سانتشو باليوم والساعة اللذين قرر فيهما الرحيل حتى يتزود بما يراه ضـروريا • وأوصاه أن يحمل معه خرجا ، فوعد سانتشو بذلك وأضاف مستأذنا فى أن يسير خلفه على حمار • فراح دون كيخوتى يفكر ليتذكر ما اذا كان أحد الفرسان الجوالة قد اصطحب معه حامل سلاح يركب حمارا • لم يقرأ فارسنا ان تابعى الفرسان يركبون حميرا ، وشعر ان فى ذلك مهانة لمقام الفروسية الجليل ، وبعد لأى وافق على السماح لسانتشو بالخروج معه على ظهر الحمار ، مقترحا فى نفسه أن يزوده بركوبة أشرف متى واتت الفرصة ، وذلك بأن ينتزع الفرس من أول فارس سىء الأدب يعترض طريقه • ودون ان يودع أى منهما أهل بيته ، خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون ان يراهما احد . وغذيا السير طوال الليل حتى اذا ما أقبل الصبح كانا على يقين من أن أحدا ان يكتشف امرهما ويلحق بهما حتى لو عدا فى اثرهما •

وتبدأ المغامرة المأمولة اذ يصادفهم جبابرة عتاة فقد اكتشـفوا ثلاثين او أربعين عملاقا ، لم يكن دون كيخوتى يراها حتى قال لحامل سلاحه :

— ان الحظ يسوق أمورنا خيرا مما تسـتطيعه رغبتنا • أنظر ياصديقى سانتشو بانثا : أمامنا على الأقل ثلاثون من المردة العتاة او يزيدون ، ارى أن أنازلهم وأسلبهم الحياة جميعا بلا استثناء • وبأسلابهم تبدأ ثروتنا ، لأن هذا جهاد نبيل ، وفى سبيل الله ابادة هذه العصـابة الشريرة من وجه الأرض •

فسأله سانتشو بانثا قائلا :

— أى مردة ؟

فأجابه دون كيخوتى :

— أولئك الذين تبصرهم هناك بأذرعتهم الطوال اذ منهم من يبلغ طول ذراعه قرابة فرسخين •

واذا بسانتشو يقول محذرا :

— انتبه جنابك ، فتلك التى ترى هناك ليست مردة ، بل طواحين

هوائية ، وما يبدو أنه أذرع ليس الا أجنحتها التى تديرها الريح فتدير بدورها حجر الطاحونة ٠

فأجابه دون كيخوتى :

ــ هذا يدل تماما على أنك لست خبيرا بشئون المغامرات ، هده مردة ، أقول لك ٠واذا كنت خائفا فاذهب عنى وأقم الصلاة بينما أنازلها أنا فى معركة رهيبة غير متكافئة ٠

ولكن فرسه روثينانتى دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه سانتشو الذى صرخ مؤكدا له أن هذه طواحين هوائية وليست مردة تلك التى راح يهاجمها ٠ أما هو فقد رسخ فى ذهنه أنها مردة الى حد جعله لا يسمع صراخ حامل سلاحه سانتشو ، بل ولا أن يتعرف الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب ٠ على عكس هذا راح يعدو وهو يصيح بصوت مدو :

ــ لا تهربى ، أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسة ، فان من يهاجمك ليس الا فارسا واحدا ٠

وكان وهو يتفوه بهذه الكلمات يتوجه من أعماق قلبه الى سيدته دولثينيا ، داعيا اياها أن تعينه فى هذه المعمعة الخطرة ، ثم اندفع ، مغطى بترسه ومشرعا رمحه ، يركض بأقصى ما يستطيعه روثينانتى فى وجه أول طاحونة صادفته ، بيد أنه فى اللحظة التى خرق فيها الجناح بضربة قاصـــمة من رمحه ، دفعته الريح بعنف حطم الرمح ٠ وجذب الجناح الفارس وفرسه ليقذف بهما ، ويرميهما شر رمية وتدحرج دون كيخوتى على التراب فى أسوأ حال ٠

ــ ٤ ــ

فى الطـــريق الى الفنــدق المســـحور

بعد هذا الحادث الذى نجا منه دون كيخوتى وتابعه سانتشو يعثر الاثنان على مرج مغطى بالعشب النضير ينســـاب فيه جدول عذب ، فيغريهما جمال المكان على قضاء ساعة القيلولة هناك لأن وهج القيظ فى الظهيرة بدأ ينتشـــر ويعنف ٠ فترجلا وتركا روثينانتى والحمار يرعيان على هواهما العشب الغزير فى المرج النضـــير ، ثم انثنيا الى الخرج يصيبان منه طعاما تناولاه بلا كلفة فى هدوء وطيب صحبة ٠

وكانت ترعى فى هذا الوادى ســاعتئذ بعض من الأفراس الاناث يسرح بها قائدو بغال من ينجواس ، كان من عادتهم القيلولة مع دوابهم فى الأماكن التى يوجد بها عشب وماء ، فكان الموضع الذى نزل به دون كيخوتى مناسبا لهم • اقترب روثينانتى من اناث الأفراس وراح يغازلها، ولكنها كانت فى حاجة الى تناول الكلأ الأخضر أكثر من أى شىء آخر ، فأعملت فيه رفسا وعضا وأسرع قائدو البغال بهراواتهم ، وانهالوا عليه ضربا حتى رضوا عظامه •

وفى تلك الاثناء شاهد دون كيخوتى وسانتشو ما حل بروثينانتى فأسرعا اليه يلهثان ، وقال دون كيخوتى لحامل سلاحه : « يخيل الى ياصاحبى سانتشو أن هؤلاء القوم ليسوا فرسانا ، بل رعاعا ســفلة أخساء • لهذا تستطيع وأنت مطمئن الضمير ، أن تساعدنى على الانتقام العادل للاهانة التى الحقوها بروثينانتى أمام أعيننا » • فينصحه سانتشو بعدم التعرض لهم لأنهم أكثر من عشرين • فيرد عليه دون كيخوتى قائلا : « اننى أساوى مائة مثلهم ! » • وأمسك بســيفه وانقض عليهم وفعل سانتشو مثلما فعل مقتديا بمولاه •• وفى الهجمة الأولى ضرب دون كيخوتى أحدهم بسيفه ضربة شقت صــدريته الجلدية وقطعة كبيرة من الكتف ، ولما كان قائدو البغال عديدين وقد شاهدوا مهاجميهم اثنين فقط لجأوا الى هراواتهم فأهووا بها عليهما فجندلوا سانتشو فوق التراب ، وسقط دون كيخوتى ، رغم شجاعته ومهارته ، عند أقدام روثينانتى الذى لم يكن قد نهض من كبوته بعد • ولما شاهد قائدو الدواب آثار فعلتهم السيئة أسرعوا بدوابهم يرحلون ، تاركين المغامرين فى أسوأ حال •

ويعلل دون كيخوتى ما أصابه من جزاء قاس بأنه عقاب من السماء لعدم اتباعه قوانين الفروسية حيث خالفها عندما شــهر سيفه فى وجه أناس لم يسلحوا فرسانا •

يتوجه الفارس وتابعه بعد ذلك الى فندق قريب فيبلغاه بشــق الأنفس •وهناك سيكون لجدرانه عواقب وخيمة • فقد تخيل أن الخادمة ماريتورنس هى ابنة سيد القصر • وكان هناك صاحب بغال من بين النزلاء قد اتفق معها على أن يقضيا ليلة مرحة معا اذ وعدته أن تأتى اليه بعد أن يأوى النزلاء الى فراشهم وينام أصحاب الفندق ، وتحقق له كل ما يطلب من ملذات • ولما حانت ساعة اللقاء اقبلت بقميصــها عارية القدمين معقودة الشعر بشبكة من قماش القطن ، وهى تتسلل على أطراف أصابعها فى العنبر الذى كان يرقد فيه النزلاء الثلاثة •• دون كيخوتى وسانتشو بانثا وصاحب البغال •ولم تكد تجتاز عتبة الباب متجهة الى صاحبها ، حتى احس بها دون كيخوتى فنهض جالسا على سريره ، رغم مابه من جراح مضمدة وضلوع موجوعة ، ومد ذراعيه لاستقبال ابنة صــاحب القصــر التى قهرها لطفه فالتهبت غراما به • واقبلت الخادمة جامعة أطرافها حابسة أنفاسها ويداها الى الأمام تتلمسان حبيبها ، فوقعت بين

ذراعى دون كيخوتى فأمسك بها بقبضة قوية وجذبها اليه دون أن تجرؤ على التفوه بكلمة • ثم أجلسها على سريره ، وتحسس قميصها ـ وكان من الخيش ـ فبدا له من أفخر الديباج ، وكانت فى ذراعيها أسورة مؤلفة من خرز زجاجى فبدت له كاللؤلؤ المنضود ، وكان شعرها يضرب الى لون الوبر وطبيعته فحسبه من غدائر من أنفس ذهب بلاد العرب ، يفوق بريقه لمعان الشمس ، أما أنفاسها ـ ولم تكن رائحتها الا من رائحة سلطة اللحم ذات التوابل والخل المصنة من الأمس ـ فقد حسبها تنشر شذى زكيا • وأخذ يرسمها فى خياله بالمحاسن والمفاتن التى كانت لتلك الأميرة التى قرأ عنها فى كتبه أنها جاءت لزيارة الفارس الجريح ابان الليل ، وقد غلبها الوجد واستولى عليها الغرام • ولكن هكذا كان ضلال هذا النبيل المسكين الذى لم يستطع أن يبدد أوهامه شىء : لا ملمسها ولا نفسها ولا تلك الأمور الأخرى التى تميز هذه الفتاة البائسة ، مما كان من شأنه أن يثير استفراغ أحشاء أى انسان غير هذا البغال • ولكن دون كيخوتى حسب انه يحتضن بين ذراعيه الاهة حبه ، فضمها بحرارة وهو يقول لها بصوت يفيض عذوبة وحنانا : « بودى لو استطعت أيتها السيدة الجليلة الفاتنة أن أجازى هذه النعمة السابغة التى أنعمت بها على برؤية جمالك الفائق •• لكن الحظ ، الذى مافتىء يضطهد الأخيار ، قد شاء أن يقذف بى فى هذا السرير حيث أرقد الآن محطما منهوكا ، فلو شاءت ارادتى أن تكون كفاء ارادتك لما استطاعت يضاف الى هذه الاستحالة أخرى أشد منها الا وهى العهد الذى قطعته على نفسى قبل المنقطعة النظير دولثينيا دل توبوسو ، فهى وحدها سيدة أفكارى وفتاة أحلامى • ولو لم تقم هذه العقبات ، لما كنت من الغفلة والبلاهة بحيث أدع هذه الفرصة السعيدة تمر وقد أتاحها فضلك العميم ! » •

كانت ماريتورنس فى أشد الجزع من ضم دون كيخوتى لها بهذه الشدة ، وبذلت كل جهد مستطاع للتخلص منه ، دون أن تعير كلماته أدنى اهتمام وانتباه • وكان البغال الساذج ـ وقد أبقته شهواته الخبيثة ساهرا ـ قد سمع هو الآخر وقع دخول خليلته لما اجتازت عتبة الباب • فأرهف أذنه ليستمع الى كل ما قاله دون كيخوتى • ودبت فى نفسه عقارب الغيرة لأن الفتاة لم تف بوعدها واستبدلت به رجلا آخر ، فنهض واقترب من سرير دون كيخوتى ، وأخذ يراقب وهو هادىء الجأش ليرى الى أى شىء تفضى هذه الكلمات التى لم يفهمها • ولكنه حينما رأى الفتاة المسكينة تحاول التخلص جاهدة ، بينما دون كيخوتى يحاول الاحتفاظ بها ، تضايق من الأمر ، ورفع ذراعه على طول امتداده وأهوى على الفارس الهائم بضربة عنيفة بجمع يده فأصابت فكيه حتى سال الدم مدرارا من فمه • ولم يكتف بهذا ، بل وثب على صدره وضربه بقدميه ضربا أسرع من الركض شمله من أعلى الى أسفل • ولم يحتمل السرير ثقل البغال لضعف فى تركيبه وفى قوائمه ، فاندك وهوى الى الأرض • فاستيقظ صاحب الفندق على قرقعة السرير وتدخل لفض المعركة •

ويفسر دون كيخوتى تلك الأحداث لسانتشو بأن القصر مسحور ، وأن هذا هو سبب متاعبهم ·وبعد أن استحلفه بأن ماسيقوله له سيظل ســـرا الى مابعد وفاته قال :« فلتعلم اذن أنه وقعت لى فى هذه الليلة مغامرة من أغرب المغامرات التى أفخر بها ، ولأقص عليك الأمر بأوجز ما يمكن ، أقول انه منذ لحظات شاهدت ابنة سيد هذا القصر قادمة نحوى ، وهى أفتن والطف فتاة توجد على شطر عظيم من الأرض · وماذا أقول عن مفاتنها ومحاسن ذكائها ، وغير ذلك من سحر خفى لا أريد أن أفصح عنه بل أدعه يمر دون مساس به حتى أصـــون عهدى لسـيدتى دولثينيا دل توبوسو ! واذا أود أن أقول لك فقط ان السماء حسدتنى على النعيم الغامر الذى أرسله الحظ الى ، أو — وهذا أقرب الى اليقين — لعل هذا القصر كما قلت لك مسحور ، لهذا فانه فى اللحظة التى كنت أجاذبها أعذب وأرق وأحر حديث ، انقضت على كف لم أرها ، كف مارد رهيب ، فضربنى بقبضته على فكى ضربة قاضية ولايزال الدم ينزف منهما بسببها ·

وقال سانتشو : « لكن قل لى ياسيدى كيف نسميها جميلة ونادرة تلك المغامرة التى تركتنا على هذه الحال ؟ على أن الأذى الذى أصـــاب سيادتك لم يكن كبيرا ، لأنك حملت بين ذراعيك تلك الفاتنة المنقطعة النظير ·· أما أنا ، فماذا لقيت يا الهى غير أبشع اللكمات التى تلقيتها طوال حياتى ؟ يالشقائى وشقاء أمى التى ولدتنى ! لســـت فارسا جوالا ولا أحسب أبدا أنى سأكونه ، ورغم ذلك فان النصيب الأوفر من المصـــائب يكون نصيبى !

وفى الطريق شاهدا قطيعا من الخراف تخيلها دون كيخوتى جيشا وقال اسانتشو : « أو لاتســـمع صـــهيل الخيول ونفخ الأبواق وقرع الطبـــول ؟ » · ولم يلبث أن همز روثينانتى وأشـــرع رمحه وانقض كالصاعقة من أعلى الرابية · وعبثا حاول سانتشو أن يثنيه اذ صاح فيه بصوت جهورى : « على رسلك ياســـيد دون كيخوتى ! أقسم بالله انها أغنام وخراف تلك التى ستهاجمها » ·

لم يكترث دون كيخوتى لهذا كله ، وانقض بين النعاج وبدأ يطعنها بالرمح غاضبا هائجا متحمسا كأنه يضرب فى ألد أعدائه · فصاح فيه رعاة القطيع أن يمسك عن هذه الدواب المسكينة · فلما رأوه لم يستمع لنصحهم حلوا مقاليعهم وراحوا يقذفونه على أذنيه بالحجارة التى انهالت عليه كالمطر ، ولكن دون كيخوتى لم يحفل بذلك وظل يجرى هنا وهناك حتى دكت احداها ضلعين من أضلاعه ، واقتلعت أخرى ثلاث أو أربع أسنان من فمه ، وسقط الفارس المسكين من على فرسه · فاقبل عليه الرعاة وظنوه مقتولا فأســـرعوا بجمع قطعانهم وحملوا النعاج المقتولة على أكتافهم ، وكانت ما بين ست وثمان ، وأسرعوا يلوذون بالفرار ·

نزل سانتشو من أعلى الرابية التى كان يتأمل منها حماقات سيده واقترب منه فوجده على أسوأ حال ، وان لم يكن قد فقد الشعور وقال له : « ألم أقل لك انك انما تهاجم قطعانا من الخراف لا جيوشا ؟ » ٠٠ فأجابه دون كيخوتى بأن عدوه الساحر قد رآه على وشك الظفر باكليل المجد فى تلك المعركة فدبت فى قلبه عقارب الحســـد منه ، واذا به يحول كتائب الجنود الى قطعان من الخراف ٠

بعد قليل يظهر حلاق القرية وكان يضع على رأسه شيئا يلمع وهو يركب حمارا رماديا ٠ فظنه دون كيخوتى فارسا يمتطى صهوة فرس أغبر أرقط ، وعلى رأسه خوذة من الذهب وقال لسانتشو ان الشىء الذى يلمع هو خـــوذة ممبرينو ٠ بينما الواقع أنه كان فى هذه النـــواحى بلدان متجاوران ٠ أحدهما كان من الصغر بحيث لم يكن فيه صيدلى ولا حلاق ، والآخر أكبر وفيه كلاهما ٠ وكان حلاق البلد الأكبر يعمل أيضا لأهل البلد الأصغر فيقصد هذا ويحلق لحية ذاك ٠ ولأداء هاتين المهمتين كان يذهب حاملا صحن حلاقة من النحاس الأصفر ٠ وقد فاجأته الأمطار فى الطريق ، فلكى يحمى قبعته وضع عليها صحن الحلاقة وكان مصقولا فكان يلمع من بعيد ٠ ولهذا ظن دون كيخوتى أنه أبصر فرسا أغبر أرقط وفارسا وخوذة من ذهب ٠٠ لأن جميع ما يلفت نظره كان يرتبه بسهولة وفقا لهذيانه الفروسى وخواطره الشاردة ٠ واندفع منقضا عليه بكل ما فى وسع روثينانتى من قدرة على الركض ، ورمحه مصـــــوب ، وفى اللحظة التى أوشك أن يبلغه صاح فيه : « دافع عن نفسك ، أيها المخلوق الحقير ، أو سلم الى عن طيب خاطر ما استحقه بجدارة » ٠

وشاهد الحلاق هذا الشبح ينقض عليه ، فلم يجد وسيلة للاحتماء من ضربة الرمح الا أن يقع من فوق حماره ، ولم يكد يلمس الأرض حتى نهض واطلق ساقيه للريح تاركا صحن الحلاقة على الأرض ٠ وكان هذا كل ما يريده دون كيخوتى ، فأمر سانتشو بالتقاط الخوذة ، فلبى السائس الأمر ،وناول الصحن لمولاه فوضـــــعه على رأسه فى الحال ٠ وبخياله الخصب يعطى بطلنا تفسيرا يبدو منطقيا تماما عندما قال لسانتشو : « هل ترى ما أتصوره ؟ انى لأتخيل أن هذه القطعة الفريدة ، هذه الخوذة المسحورة لابد أن تكون قد وقعت ، بالصدفة الغريبة ، فى يد من لا يعرف قيمتها ولا يقدرها حق قدرها ،فلما رآها من الذهب الخالص فكر فى صهر نصفها للافادة من ثمنه ، دون أن يعلم ماذا يفعل ، فبقى النصف الآخر على هذه الصورة التى تجعله بشبه صحن حلاقة ، كما تقول ٠٠ ومهما يكن من أمرها ، لكنى وأنا أعرفها لا أهتم بما جـــــرى لها ، بل سأصلح من أمرها عند أول حداد نلقاه فى أول قرية نمر بها » ٠

ويعود دون كيخوتى الى هذا الموضوع عندما يتوغل مع سانتشو فى جبال سيرا مورينا فنراه يقول لسائسه :« أو لم تدرك منذ الوقت الذى صحبتنى فيه أن جميع أمور الفرسان الجوالة تبدو كأنها خيالات وتهاويل .

وأساطير وأنها تبدو كأنها مقلوبة ؟ السبب فى ذلك ليس أنها كذلك فى الواقع .بل السبب هو أنه يضطرب حولنا دائما شرذمة من السحرة تقلب أمورنا · وهذا هو السبب فى أن هذا الشىء الذى يبدو لك صحن حلاقة يبدو لى أنا خوذة ممبرينو ، ويبدو لشخص ثالث شيئا آخر » ·

وهكذا يقلب دون كيخوتى كل الموازين · فالمجانين هم الذين لا يلاحظون الحقيقة التى لا تتضح الا للفارس اليقظ والمتفتح الذهن ·

— ٥ —

الأميرة المزيفة

عندما وصل دون كيخوتى وسانتشو الى قاعدة جبل شاهق من جبال سيرا مورينا توقفا عند سفحه حيث يجرى جدول رقراق حواليه مروج خضر وأشجار متناثرة هنا وهناك ، وأزهار برية · كلف دون كيخوتى سائسه بحمل رسالة غرامية الى حبيبته دولثينيا وطلب منه أن يعود اليه برد حبيبته ·

وعند قيام سانتشو بمهمته قابل أصدقاء لسيده : القسيس والحلاق اللذين أرادا مقابلته لاقناعه بالعدول عن هذه الحياة المليئة بالأخطار · وتقدمت فتاة تدعى دوروتيا مبدية استعدادها لمعاونتهما ·· ففكروا فى حيلة لاقناع دون كيخوتى بالعدول عن هواجسه والعودة الى داره ·

استقر الرأى على أن تقوم دوروتيا بدور الأمير ميكوميكونا ويقوم الحلاق بدور السائس وكان كل منهما يركب جوادا ، ويتنكر الحلاق فى دور السائس بأن وضع لحية مستعارة من ذيل البقرة ·

ويتم اللقاء فتنزل دوروتيا الى الأرض بخفة ورشاقة ، وتلقى بنفسها جاثية عند قدمى دون كيخوتى ، وعلى الرغم من محاولة انهاضها رفضت وتحدثت قائلة : « كلا لن أنهض من مكانى هذا أيها الفارس الشجاع المروع ، الا اذا شاء فضلك السابغ أن تمنحنى فضل يزيد من شرفك وعلو صيتك ويفيد آنسة أهينت أبلغ اهانة ولن تنفع فيها السلوى ، فان كانت قوة ذراعك التى لاتقهر جديرة بصوت شهرتك الخالدة ، فانك

مضطر الى أن تهب لنجدة فتاة بائسة جاءت من أقاصى الدنيا اقتفاء لصيتك الذائع لتجد لديك علاجا لمصائبها » ٠

فقال دون كيخوتى : « أيتها السيدة الحسناء النبيلة ! لن أجيب بكلمة ولن أسمع شيئا مما جرى لك قبل أن تنهضى من الأرض » ٠

فقالت الآنسة : « وأنا لن أنهض قبل أن يتعطف على أدبك فتمنحنى ما أنا طالبة » ٠

فاجابها دون كيخوتى : « منحتك سؤالك ، بشرط الايكون فى تحقيقه ما يضر أو يسىء الى شرف ملكى ووطنى وتلك التى بيدها مفتاح قلبى وحريتى » ٠

عندئذ قالت الآنسة المذكورة :« كلا ، لن يضر أو يسىء الى شرف أحد ممن ذكرت » ٠ ثم استطردت قائلة :« ان ما أسالك هو أن يتفضل شخصك العظيم فيأتى معى فورا الى حيث اقتاده وأن يعدنى بعدم الدخول فى أية مغامرة وألا يتدخل فى أية مشاجرة قبل أن يثأر لى من خائن اغتصب ملكى ، بغير حق من حقوق الأرض والسماء » ٠

فقال دون كيخوتى : « ياسمو الأمير الجميلة ، ان عظمتك الآن فى مأمن ولا تخشين الطاغية المستبد الذى اغتصب سلطتك واضطهدك ٠٠ وأؤكد أنه بعون السماء ، وبفضل ساعدى هذا ، ستستردين مملكتك » ٠

وهنا تظاهرت الآنسة الراجية عونه بالرغبة فى تقبيل يده ، ولكن دون كيخوتى — وكان فى كل مناسبة فارسا نبيلا مهذبا — لم يوافق على هذا أبدا ٠ بل أنهضها وعانقها باحترام ، وأمر سانتشو بشد السرج على روثينانتى وأن يحضر له سلاحه فى الحال ٠ فانتزع تابعه الأسلحة وكانت معلقة كالغنيمة على فروع شجرة سنديان ٠ وبعد أن رتب السرج على الدابة ألبس مولاه سلاحه ، وعندئذ صاح دون كيخوتى : « هيا بنا لنجدة هذه الأميرة الجليلة ، بعون الله » ٠

وقد حدث أن الحلاق كان يركب بغلة بالأجرة ، أى أنها بغلة رديئة، وعندما نزل منها عارضا على القس أن يركب قمصت ورفست رفستين هزته بعنف فسقط على الأرض بشدة ، دون أن يهتم بلحيته ولهذا سقطت منه اللحية من الجانب الآخر ٠٠ فيخترع تفسيرات غريبة لدرجة أن هؤلاء الأصدقاء يبدون أكثر جنونا من دون كيخوتى ٠ أما فارسنا فقد كان متحمسا للمهمة الجديدة التى هبطت اليه من السماء ، ولم يكن يخالجه أدنى شك فى صحة ماسمعه ٠ وهكذا تعود القافلة متجهة نحو منزل دون كيخوتى ٠ ويتوقفون فى الطريق فى فندق صغير ويشاء سوء الحظ أن يدخل دون كيخوتى فى حجرة بها قرب ملأى بالنبيذ الأحمر مرصوصة عند رأس سريره ٠ وفجأة سمعت ضجة فى حجرة دون كيخوتى الذى

كان يصيح : « كف أيها اللص ، الصعلوك ، الخسيس ، أنت في قبضة يدى ،وسيفك لن يفيدك شيئا » • وكان يمسك في يده اليمنى بسيفه مسلولا ملوحا به مهددا وكأنه يحارب ماردا من المردة • والطريف في هذا أن عينيه كانتا مغمضتين ، لأنه كان ناعسا يحلم بأنه يصارع المارد وتسلطت المغامرة على خياله حتى راح ينفذها ، وخيل اليه أنه قد وصل فعلا الى مملكة ميكوميكون ، وأنه صار في مواجهة عدوه • وفي اندفاعه سدد الى قرب النبيذ طعنات متواليات وهو يعتقد أنه يسددها الى المارد حتى فاضت الغرفة كلها بالنبيذ المنسكب ظانا أنه دم عدوه •

وخلال اليومين التاليين يقع فارسنا ضحية تخيلات وأوهام فيهيؤ له أنه في قصر عجيب • وقررت الجماعة الرحيل ووضع حد لقصة الملكة ميكوميكونا ليجنبوا دوروتيا مشقة اعادة دون كيخوتى الى قريته ، فبحثوا عن وسيلة يتمكن بها الحلاق الأسطى نيكولا والقسيس من اعادته الى بلده كما ارادا ، ابتغاء محاولة علاجه • فتفاهموا مع سائق عربة لاعادة دون كيخوتى وطلبوا منه صنع نوع من القفص ، مؤلف من قطع من خشب معشقة ، بحيث يوضع فيه وضعا مستريحا • ولما تم صنع هذا القفص دخلت الجماعة في صمت ، بعد أن تنكروا باشكال مختلفة ، الى غرفة فارسنا وكان نائما مستريحا من متاعبه • وأمسكوا به وأوثقوا قدميه ويديه بشدة ، فلما استيقظ لم يستطع التحرك وظل حائرا عندما رأى هذه الوجوه الغريبة العجيبة • ففكر فيما صوره له خياله المجنون باستمرار •

لقد اعتقد أن هذه الوجوه هي أشباح القصر المسحور ، وأنه هو نفسه مسحور ، لأنه لم يستطع التحرك ولا الدفاع عن نفسه • وهكذا تم كل شيء كما قدر القسيس الذى دبر الأمر بمكر ومهارة • ووضع دون كيخوتى في القفص ، وسمر القفص بشدة حتى لا يستطيع أن يزعزعه ، ثم حملوا القفص على اكتافهم • ولما أخرجوه من الغرفة نطق صوت رهيب ، هو صوت الأسطى نيكولا ، بهذه العبارات : « أيها الفارس الحزين الطلعة ! لا تحزن على أسرك •• انه ضرورى لوضع حد في وقت مبكر ، للمغامرة التى حملتك عليها شجاعتك العظيمة ، وستنتهى حين يصبح أسد المانتشا الرهيب وحمامة توبوسو البيضاء شخصا واحدا ، بعد أن يحنيا رأسيهما الشامخين تحت نير الزواج العذب الرقيق • ومن هذا الاقتران الذى لانظير له سيخرج ويلمع على نور الدنيا الأشبال الشجعان الذين لن يقلوا اثارة للرهبة عن أبيهم الشجاع الباسل » •

وقد واست وعود الوحى هذه دون كيخوتى خير مواساة •• وأدرك معناها تماما ،ورأى أنهم يراودونه بأمل الارتباط بالروابط المقدسة لزواج شرعى من حبيبته دولثينيا دل توبوسو ، وأنه من هذا الزواج سيولد أشبال ، هم أولاده ، في سبيل مجد اقليم المانتشا العظيم •

رفعت الأشباح القفص ووضعوه على عربة تجرها الثيران · وهكذا بعد أن ادخلوا فى روعه انه يجب أن يظل بهذاالشكل للانتصار على عمل سحرى ــ وأمام هذا التفسير الذى لا يتطرق اليه الشـــك يعيدون دون كيخوتى الى منزله ·

وهنا ينتهى الجزء الأول من الرواية ·

ــ ٦ ــ

فــدية دولثينيـــا

يبدأ الجزء الثانى من الرواية بمشهد دون كيخوتى مريضا وتعالجه مربية عجوز وابنة أخته بوســـاطة أنواع مقوية من الغذاء مفيدة للقلب والمخ الذى منه جاء كل الداء ·

وبعد انقضاء أكثر من شهر على هذا العلاج نرى صاحبنا الفارس من جديد على ظهر حصانه مدججا بالسلاح يتبعه سائسه الوفى سانتشو على أهبة الاستعداد لملاقاة أعظم مغامرات الفروسية · وهى تبدأ الآن فى طريق توبوسو ، كما بدأت الأولى فى ســـهل مونتيل · وقد قرر دون كيخوتى أن يذهب الى توبوسو قبل أن يخوض أية مغامرة ليتلقى بركة دولثينيا التى لا نظير لها ويودعها ، وبهذا التوديع يتأكد أنه سيفلح فى انجاز أيةمغامرة خطيرة ، لأنه كما قال لسانتشو : « لا شىء فى العالم يجعل الفرسان أكثر بسالة من أن يشـــعروا بعطف محبوباتهم » · ثم يستطرد قائلا : « لنذهب الى هناك ، ومادام شعاع من شـــمس جمالها سيبهر عيونى ، وينير عقلى ، ويقوى قلبى فسيبقى متفردا لا نظير له فى الحكمة والشجاعة » ·

وفى اليوم التالى ، عندما وافى الليل ، شاهدا مدينة توبوسو العظيمة التى أنعش مرآها نفس الفارس وأحزن سانتشو ، لأنه لم يكن يعرف أين بيت دولثينيا ، ولم يره أبدا من قبل ، لا هو ولا مولاه : حتى كان كلاهما مضطربا ·· أحدهما لرغبته فى رؤيته ، والثانى لأنه لم يره قط ، وسانتشو لم يتخيل ماذا يستطيع أن يفعل لو بعث به مولاه الى توبوسو · وعلى بعد ميلين من القرية وجدا غابة اختبأ فيها دون كيخوتى بعد أن أمر سانتشو بالعودة الى المدينة ، وبالا يرجع الا بعد أن يتكلم باسمه مع سيدته دولثينيا

ليرجوها أن تتفضل فتسمح لعبدها الفارس أن يراها ، وأن تباركه بعد ذلك ، حتى يمكنه الرجاء فى النجاح فى مغامرته الخطرة العسيرة ٠

ولم يكد سانتشو يخرج من الغابة حتى أدار رأسه ، ولما لم يشاهد دون كيخوتى بعد ، نزل من فوق حماره ، وجلس عند جذع شجرة ، وراح يحدث نفسه قائلا : « هيا ٠ هيا ٠ لكل داء دواء يستطب به الا الموت الذى لا مفر منه ، شئنا أو لم نشأ ، فى نهاية أعمارنا ٠ ان مولاى مجنون ، وأنا لا أقل جنونا ، بل أنا مجنون أكثر منه ، أنا الذى أخدمه وأتبعه ، اذا صح المثل الذى يقول : أخبرنى من تصاحب ، أخبرك من أنت ٠ فمولاى مجنون بحيث يعتقد الشىء مكان الشىء الآخر ، الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، كما فعل حين قال ان الطواحين الهواء مردة ، وبغال الرهبـــان جمال ، وقطعان الماشية جيوش معادية ، وأمور أخرى كثيرة مشابهة ، ولهذا لن يكون من العسير أن نجعله يعتقد أن أية فلاحة تمر من هنا هى السيدة دولثينيا ، فان لم يشأ أن يصدق ، أقسمت له ، فان أقسم هو بدوره ، كررت القسم من جديد ، وان أصر ، زدت أنا فى اصرارى ٠وبهذه الطريقة تكون لى دائما الغلبة عليه ، وليكن ما يكون ٠أو ربما يظن ، كما يخيل الى ، أن ساحرا خبيثا ، من أعدائه ، قد غير وجه ســيدته على هذا النحو لاثارة غضبه » ٠

هدأت هذه الفكرة من خاطر سانتشو ، وبدا له أن المسألة قد سويت، ولكنه بقى مع ذلك وقتا طويلا فى المكان الذى كان فيه ، حتى يعتقد دون كيخوتى أنه كان لديه الوقت الكافى للذهاب والعودة ٠ وأفلح كل شىء دبره حتى أنه حين نهض ليركب حماره شاهد ثلاث فلاحات يمتطين ظهور الحمير ٠٠ فهرع للحاق بمولاه ،فوجده يتنهد ودار بينهما الحوار الآتى :

ـ ليس على سيادتك الا أن تهمز روثينانتى ، وتخرج الى الســهل لتشـــاهد السيدة دولثينيا دل توبوسو التى قدمت لزيارتك مع اثنتين من وصيفاتها ٠

ـ ما أعظم فضل الله ! ماذا تقول لى ياصاحبى سانتشو ؟ حذار من التغرير بى ومن جلب حزنى بسرور زائف ٠

ـ وماذا أفيد من التغرير بك وأنت على وشك اكتشـــاف الحقيقة ؟ اركض يامولاى وتعال لرؤية الأميرة سيدتنا ، مزينة بما يليق بها ٠

خرج سانتشو مع مولاه من الغابة فأبصرا بالقرب منهما الفلاحات الثلاث ٠ فقال دون كيخوتى :

ـ انى لا أرى ياسانتشو غير ثلاث فلاحات على ثلاث أتانات ٠

ـ اسكت يامولاى ، لا تقل مثل هذا الكلام ٠٠ افتح عينيك ، وتعال لتحيى سيدة أفكارك ، فهى قادمة ٠

ولما قال هذه الكلمات تقدم للقاء الفلاحات الثلاث ، وترجل ، وأمسك بخطام حمار احداهن ،وجثا على ركبتيه وقال لها :

ـ يا ملكة ٠٠ يا أميرة ٠٠ يادوقة الجمال ، لتتنازل سموك وعظمتك فتتلقى بالقبول والرحمة هذا الفارس ، عبدك الذى صار مثل تمثال من المرمر ، لا حراك فيه ولا نبض ، لما أن صار فى حضرتك الفخيمة ٠ أنا سانتشو بانثا ، سائسه ، وهو الفارس الجوال دون كيخوتى دى لامانتشا ، الملقب بالفارس الحزين الطلعة ٠

وفى نفس الوقت جثا دون كيخوتى على ركبته بجوار سانتشو ٠٠٠٠ وراح يتطلع بعينين زائغتين مضطربتين فى تلك التى سماها سانتشو سيدة وملكة ، ولكنه لم ير غير فلاحة قبيحة فطساء منتفخة الوجه ، فارتج عليه دون أن يجرؤ على أن يفتح فمه ٠ ولم تكن الفلاحات أقل دهشة لما أبصرن هذين الرجلين المختلفين كل الاختلاف راكعين يمنعانهن من المرور ٠ وأخيرا تحدثت تلك التى أمسك بخطام حمارها ، فقالت غاضبة : « ابتعدا عن طريقنا ، ودعانا نمر فنحن متعجلات » ٠

فقال سانتشو : « يا أميرة توبوسو وسيدتها ، لماذا لا يتعطف قلبك الرحيم وهو يرى راكعا أمام حضرتك السامية عمود الفروسية الجوالة وسندها ؟ » ٠ واذا باحدى الفلاحتين الاخريتين تصيح قائلة : « انظرى ياحمارة صهرى كيف يسخر هذان السيدان من الفلاحات كما لو كنا لا نستطيع أن نكيل لهما الصاع صاعين ٠ سيرا فى طريقكما ، ودعانا نسير فى طريقنا ، ومساء الخير » ٠ فقال دون كيخوتى : « انهض ياسانتشو ، انى أتبين تماما أن الحظ لم يرض بعد تماما عن بلاياى ٠ لقد أغلق كل الطرق التى يمكن أن يأتى منها السرور لهذه النفس الهزيلة التى يضمها جسمى ٠ وأنت يا أعظم كمال يمكن التطلع اليه ، ياغاية اللطف الانسانى ، أنت الدواء الوحيد لقلبى الحزين الذى يعبدك ! ومادام ساحر خبيث يطاردنى ، ويغشى على عينى بالغيوم والسحاب ، حتى حول جمالك المنقطع النظير الى مظهر فلاحة مسكينة ، اذا لم يعطنى ملامح تنين لأصبح كريها فى نظرك ، فتنازلى وانظرى الى برقة وغرام ، وتطلعى ، فى الخضوع والاحترام اللذين أكنهما لجمالك المشوه ، الى تواضع هذه النفس التى تعبدك » ٠

فقالت الفلاحة : « ياالجدى ! هل أنا هنا اذن لسماع هذه الأباطيل ؟ ابتعد من هنا ، ودعنى أمر ، أرجوك » ٠

فابتعد سانتشو وتركها تمر ، وكان راضيا عن تخلصه من المشكلة بهذه الطريقة ٠ ولم تكد القروية التى أريد لها أن تلعب دور دولثينيا

تتخلص ، حتى نخست أتانها بمسلة موضوعة فى طرف عصا ، فانطلقت تجرى فى المرج ، ولكن الدابة التى نخست أكثر من المعتاد ، أخذت ترفس وتقمص حتى ألقت براكبتها على الأرض • فأســـــرع دون كيخوتى لانهاضها ، بينما أصلح سانتشو البرذعة التى اســـتدارت حول بطن الحمارة • ولما أعيدت البرذعة الى مكانها ، أراد دون كيخوتى أن يأخذ بين ذراعيه سيدته المسحورة ، ليركبها على البرذعة ، ولكنها أعفته من هذه المهمة •• لأنها بعد أن قامت ، تراجعت بضع خطوات ، ثم استعدت للوثوب ، ووضعت كفيها على مؤخرة الحمارة ، ووثبت على البرذعة وهى أخف من الصقر ، وركبت كل رجل فى ناحية مثل الرجال • فصاح سانتشو : « سيدتنا أخف من الطائر •• انها تستطيع أن تعلم الركوب على الخيل أبرع السواس فى قرطبة أو المكسيك ، لقد اســتقرت بوثبة واحدة فوق قبو الســـرج ، وبدون مهماز جعلت دابتها تركض كحمار الوحش ، ووصيفتاها لا تقلان عنها براعة ، لأن ثلاثتهن يعدون عدو الريح » •

انطلقت الثلاث بســـرعة هائلة ، ولم تكففن عن العدو ، دون أن تلتفتن ، طوال أكثر من نصف فرسخ ، وتابعهن دون كيخوتى بنظره حتى غبن عن أعينه ، فالتفت الى سانتشو وقال : « ماذا ترى ياسانتشو ؟ الا يسىء السحرة معاملتى ؟ أنظر الى أى مدى يذهب خبثهم وحقدهم على ، ماداموا يحرموننى من لذة رؤية سيدتى كما هى • ولدت لأكون نموذجا وقدوة للبائسين ، وهدفا يرمى بسهام النحس • وهؤلاء السحرة الخونةلم يكتفوا بتحويل دولثينيا ، بل غيروها الى شكل دميم ممسوخ دنىء مثل تلك الفلاحة ، وانتزعوا منها خصوصا ماهو من شأن السيدات العظيمات ، وهو أن تنبعث منهن رائحة عطرة ، لأنهن دائما وسط العنبر والأزهار ، لأننى حين تقدمت لاركابها ، انبعثت منها ناحيتى رائحة ثوم نيىء كادت منه روحى تخرج من بدنى » •

فصاح سانتشو : « أيها الرعاع الملاعين ! أيها السحرة الأشرار الأنجاس ! » •

سار دون كيخوتى مشغول الفكر بالمكيدة التى دبرها له السحرة بتحويل سيدته دولثينيا الى فلاحة كريهة • ان بليتها ومحنتها نشأتا عن الحسد الذى يحمله الأشرار ضده • ثم قال لسانتشو : « انك رأيتها فى كل جمالها ، والسحر لم يحجب عنك وجهها ولا مفاتنها •• فضدى أنا وحدى وضد عينى تفعل قوة السحر » •

قرر دون كيخوتى أن يحرر سيدته من السحر •• وعندما سمع فيما بعد من أحد العابثين الذين كانوا يحاولون السخرية منه والهزء به أن سانتشو بانثا هو المسئول عما حاق بدولثينيا ، ولن يزول عنها السحر الا اذا عاقب سانتشو بانثا نفسه بثلاث آلاف وثلاثمائة جلدة بالسوط

على ردفيه الكبيرين ، وهما عاريان فى الهواء • وأن هذا هو ما قرره كل الذين أسهموا فى صنع محنتها • ويشكو سانتشو قائلا : « انى لا أرى العلاقة بين الضربات وسعادة السيدة دولثينيا » • ولكنه غير رأيه ووافق عندما عرض عليه دون كيخوتى أن يجزل له العطاء لقاء هذا الجلد •• صنع سانتشو من خطام حماره سوطا ، ودخل الاثنان الى دغل قريب ، ووقف دون كيخوتى فى ناحية ، بينما اختبأ سانتشو خلف مجموعة متشابكة من الشجيرات ، وتعرى من خصره حتى قدميه ، وبدأ يضرب نفسه •وبعد ست أو ثمانى ضربات كف عن جلد نفسه ، وأخذ يسدد ضرباته الى الشجيرات ، وهو يتأوه بشدة عقب كل ضربة • أما دون كيخوتى فقد كان ينتفض شفقة على سائسه النبيل الذى ينزل بنفسه ذلك العذاب •

ويختتم سانتشو بانثا ضربات السياط بوابل من الأمثال •

— ٧ —

هزيمة دون كيخوتى على يد فارس القمر الأبيض

تقابل دون كيخوتى مع فرقة ممثلين يركبون عربة تجتاز الطريق ، وكانوا يرتدون ملابس التمثيل لأن هذه الفرقة التمثيلية المتجولة كانت ستمثل نفس المسرحية فى هذا المساء ، فى قرية أخرى قريبة جدا ، فوفروا على أنفسهم عناء خلع ثم ارتداء تلك الملابس •وكان أحدهم يمثل الموت ، وآخر يمثل ملاكا ، وثالث يمثل امبراطورا ،ورابع يمثل جنديا ، وخامس يمثل شيطانا ، وسادس يمثل الاله كيوبيد بغير رباط على عينيه ، ومعه قوسه وجعبته وسهامه ، وكانت معهم سيدة هى زوجة مدير الفرقة وتقوم بدور الملكة • (وكان عنوان تلك المسرحية « محاكم الموت ») • ظن دون كيخوتى أنه أمام مغامرة خطيرة جديدة ، فوقف أمام العربة مستعدا لمجابهة الأخطار ، وسأل السائق الذى يمثل الشيطان وهو يصيح بصوت عال مهددا : « قل لى بسرعة من أنت ، والى أين هؤلاء الناس الذين تحملهم فى العربة ؟ » • فأجابه الشيطان بصوت رقيق ، وهو يقف بالعربة بأنهم ممثلون كوميديون ، وشرح سبب ارتدائهم لملابس التمثيل • فقال دون كيخوتى : « قسما بشرف الفارس الجوال انى حين رأيت هذه العربة ظننت أننى أمام مغامرة عظيمة ، وهانذا أرى الآن أنه ينبغى مس الظواهر بطرف البنان ، اذا شاء المرء الا يخدع • اذهبوا فى سلام • وانى على

استعداد لتقديم أية خدمة عن طيب خاطر • منذ نعومة أظافرى كنت أحب المساخر ، وكانت الملهاة (الكوميديا) هوايتى المفضلة » •

ولكن لم يكد سانتشو يترك حماره حتى ركبه ممثل يرتدى لباس مهرج وأخذ يضربه بشدة بأنابيب ثلاث منفوخة كان يحملها على طرف عصا وهو يدق شخاشيخه • ولكن الحمار كبا به ، فمضى الشيطان صاحب الأنابيب على قدميه ، وعاد الحمار الى سانتشو • فأراد دون كيخوتى أن يعاقب الرجل على وقاحته •ولكن لحسن الحظ استجاب دون كيخوتى لتوسلات سانتشو بعدم التعرض للممثلين الذين كانوا على وشك قذفهما بالحجارة بعد أن نزلوا من العربة واصطفوا للمعركة • فقال له سانتشو : « لاحظ أن كل هؤلاء الناس الذين تراهم ، وان بدوا ملوكا أو أباطرة أو أمراء ، لا يوجد بينهم فارس جوال واحد » • فقال دون كيخوتى : « ياسانتشو ! لقد مسست النقطة التى ستجعلنى أعدل عن قرارى •• اذ لايجب ولايمكن أن أسحب سيفى على من لم يسلحوا فرسانا ، كما قلت لك من قبل مائة مرة » •

ركب الممثلون عربتهم وتابعوا رحلتهم • ولكن دون كيخوتى يغتنم الفرصة عندما يلتقى بعد قليل بفارس المرايا الذى قص عليه أنه انتصر فى مبارزة فردية على الفارس الشهير دون كيخوتى دى لامانتشا وأرغمه على الاعتراف والاقرار بأن صاحبته كاسلديا دى وندليا أجمل من دولثينيا فقال دون كيخوتى : « ان دون كيخوتى هذا الذى تتكلم عنه هو أعز أصدقائى ـ وهو رجل له أعداء كثيرون من بين السحرة • وقد اتخذ واحد منهم شكله ليترك نفسه يهزم ، حتى يشوه بهذا سمعته التى اكتسبها بأعماله الجليلة فى طول المعمورة •وكدليل على ما أقول لك عن خبث هؤلاء السحرة ، أقول لك انه منذ يومين حولوا دولثينيا الجميلة الى فلاحة قبيحة حقيرة •• فلابد أنهم حولوا أيضا دونكيخوتى • فان لم يكف كل هذا الذى قلته لاقناعك ، فهاهو ذا أمامك دون كيخوتى هذا بعينه ، يؤيده لك والسلاح فى يده ، راجلا أو راكبا ، على أى نحو تريد » •

وفى الصباح اتخذ فارس المرايا المسافة التى حسبها ضرورية ، وأدار عنان فرسه ، ولم يكن أحسن ولا أخف من روثينانتى ، بينما لكز دون كيخوتى جانبى حصانه بشدة هيجته فركض مقبلا على فارس المرايا الذى كان يحاول عبثا أن يغرز المهمازين فى بطن فرسه دون أن يستطيع أن يحركه من المكان الذى وقف فيه مبهور الأنفاس • فارتبك على ركوبته ، وارتبك من رمحه ، فلم يستطع أن يصوبه فى وضع القتال • صدم دون كيخوتى خصمه بقوة كبيرة حتى أنزله عن سرجه وألقى به على الأرض بعنف ، حتى لم يحرك هذا يده ولا قدمه •

لم يكن فارس المرايا هذا الا حائز الاجازة سانسون كاراسكو من نفس قرية دون كيخوتى الذى تنكر فى هذا الزى لمحاولة هزيمته وارغامه كما تقضى قوانين الفروسية الى متابعته حيث يريد ، ولم يكن يبغى غير اعادته الى منزله •

ولما باءت محاولة كاراسكو بالفشل عاد دون كيخوتى الى الطريق بحثا عن المغامرات فيجد منها الكثير التى تجلب له المتاعب • فنراه يواجه أسودا فى اقفاصها كانت محملة على عربة حيث اهداها حاكم أوران الى الملك فيليب • هدد دون كيخوتى حارس الأسدين بأنه سيسمره بالرمح فى العربة ان لم يفتح القفصين فى الحال •فلما شاهد السائق عناد هذا الشبح المسلح قال له : سيدى ! ساطيع أمرك ، لكن بالله دعنى أحل البغال ، وأنجو بها قبل أن يخرج الأسدان • وقف دون كيخوتى وحده يتطلع الى الأسد داخل القفص الأول الذى فتحه الحارس على مصراعيه • انتظر دون كيخوتى خروج الأسد من قفصه لمنازلته واثقا من انه سيمزقه اربا اربا فى سهولة ويسر وكان ذلك منه قمة الجنون المطبق • وطلب دون كيخوتى من الحارس أن يضرب الأسد بعصا لاهاجته واخراجه •

فقال الحارس : أنا لا أجرؤ على هذا ، لأنى لو فعلت ذلككنت أول من يمزقه الأسد • ياسيدى الفارس ، صدقنى واقنع بما فعلت ، وهو اقصى حدود الشجاعة • ان الأســد فتح عليه الباب وله ان يخرج أو لا يخرج ، ومادام لم يخرج منذ قليل ، فانه لن يخرج طول اليوم وعظمة شجاعتك تجلت فى وضح النهار وقد سمعت أن المحارب الشجاع ليس ملزما الا بتحدى خصمه وانتظاره فى مكان مكشوف فان لم يأت ، فالعار ينصب عليه ، ومن تحداه ينال النصر » • ووعد الحارس برواية هذه المغامرة الباسلة للملك نفسه حين يصل الى البلاط •

فقال له دون كيخوتى : « واذا سألك من قام بها، فقل له انه فارس الأسود ، لأنى أريد من الآن فصاعدا اتخاذ هذا اللقب ، واستبداله بلقب الفارس الحزين الطلعة •• وفى هذا انا أتابع العرف القديم الجارى بين الفرسان الجوالة ، فقد كانوا يغيرون القابهم حين يشاؤون ، أو حين تسنح الفرصة » • واستأنفت العربة مسيرها ، وكذلك تابع دون كيخوتى وسانتشو طريقهما •

توالت المغامرات فتارة يدخل دون كيخوتى مغارة سحرية ، وأحيانا يتدخل لحل مشكلة عويصة بين قريتين ، وتارة يبحر على ظهر سفينة مسحورة ، ومرة ينزل ضيفا على دوق ودوقة ثم يخاطر بالذهاب الى مدينة برشلونة ويخوض معركة غريبة مع شخصية جديدة هى شخصية فارس القمر الأبيض •

ولكن كما رأينا فضلت الأسود النوم داخل اقفاصها من أن تهتم بدون كيخوتى ، وفى كهف مونتسينوس تحدث له حكايات غير معقولة ، ومحاولاته فى التوفيق كادت تنتهى بكارثة ، والسفينة التى حملته كانت قاب قوسين أو أدنى من الدخول بين عجلات طاحونة مائية لطحن القمح لولا أن الطحانين هرعوا بعصى طويلة فاستطاعوا تحويل اتجاه السفينة •• وسقط دون كيخوتى وسانتشو فى الماء تحت تأثير الصدمة ، ولكن

الطحانين نزلوا فى الماء وانقذوهما • وفى القصـــر الذى استضافه فيه الدوق والدوقة يصبح اضحوكة الجميع • ومن أمثلة ســـخرية الدوق والدوقة منه هو وسانتشو أن أركباهما فرسا سحريا كبيرا من الخشب (يسمى كلابيخيرو) ليطير بهما فى الفضاء • كما انهما جعلا سانتشو حاكما على احدى الجزر التى لم تكن غير احـــدى القرى فى ممتلكات الدوق •

غير أن أشد مغامراته تعاسة هى الأخيرة التى التحم فيها مع فارس القمـــر الأبيض •فبينما دون كيخوتى كان يتريض ذات صـــباح على الشاطىء مدججا بالسلاح من قدمه الى رأسه ، رأى فارسا مسلحا مثله مقبلا عليه . وكان على ترسه رسما لقمر باهر • ولما اقترب هذا الفارس صاح : « أى دونكيخوتى دح لامانتشا المغوار ، أيها الفارس الشهير الذى لا يفيه الثناء حقه ، أنا فارس القمر الأبيض ، الذى ربمـــا بلغت مسامعك أخبار أعماله المجيدة • وقد أتيت لامتحان قوة ساعدك ومنازلتك لأرغمك على الاقرار بأن سيدتى ، أيا من كانت ، أجمل من دولثينيا دل توبوسو صاحبتك فان أقررت بذلك عن رضا ، أفلت من الموت ووفرت على مشقة اصابتك به ، أما اذا شئت القتال ، فهذه هى شـــروطى •• اذا انتصرت أنا ، فانى لا أطلب منك غير أن تلقى ســـلاحك ،وتتوقف عن الجرى وراء المغامرات ، وأن تعتزل فى بيتك طوال عام ، حيث تعيش فى سلام وراحة دون أن تمسك بسيف • وان انهزمت أنا ، فان حياتى بين يديك ، وأسلحتى وفرسى ملك لك ، ومجد أعمالى العظيمة ينسب اليك • فانظر ما تختار ، وأجبنى فى الحال ، اذ لا وقت عندى للانتهاء من هذه المسألة غير اليوم » •

دهش دون كيخوتى من صلف فارس القمر الأبيض وموضـــوع تحديه ، فأجاب بلهجة جادة قاسية : « أى فارس القمر الأبيض الذى لم تصل الى مسامعى أخبار أعماله ،ساجعلك تقسم بأنك لم تر أبدا دولثينيا الشهيرة ، لأنك لو كنت رأيتها ، لما كنت طلبت هذا الطلب ، وســـتدرك غلطتك ،وأنه لا جمال يعدل جمالها • ولهذا لا أقول انك كذبت ، بل أقول انك على خطأ ، وأنا أقبل تحديك بالشروط التى اقترحتها ، ولا استثنى منها الا مجد أعمالك التى تريد أن تنسبها الى ، لأنى لا أعرف ماهى مغامراتك هذه ، واكتفى بمغامراتى أنا كما هى • وأوافق على أن يتم القتال فى الحال ، حتى تسوى هذه المسألة فى اليوم الذى اخترته ، والله يعين من يشاء » •

تأهب الفارسان للقتال ، فاستدار دون كيخوتى ليتخذ مسافة ، لأنه رأى خصمه يفعل نفس الشىء ، ثم ، وبدون اشارة البدء ، أطلق كل منهما العنان لفرســـه • لكن لما كان فرس الفارس الغامض •• فارس القمر الأبيض أسرع من روثينانتى ، فانه أخذ وحده ثلثى الميدان ، وانقض على دون كيخوتى باندفاع شديد حدا ، دون أن يستخدم رمحه ، بل رفعه عن

قصد ، حتى أن روثينانتى وصاحبه تجندلا على الأرض بقسوة فى أسوأ حال • وهنا اقترب الفارس الغامض من دون كيخوتى ووضع سن رمحه فى حافة خوذته ، وقال له : « انك مهزوم ، أيها الفارس ، ستموت ان لم تقر بما سألتك اياه » •

كان دون كيخوتى دائخا محطما من سقطته ، وليست لديه القوة لرفع حافة خوذته ، فأجاب بصوت ضعيف متكسر كأنه يخرج من قبر : « دولثينيا دل توبوسو هى أجمل النساء ، وأنا أشقى الفرسان • وشقائى لا يحملنى على خيانة الحقيقة ، ادفع رمحك ، أيهـــا الفارس ، وانتزع منى حياتى ، مادمت قد سلبتنى الشرف » •

فأجاب فارس القمر الأبيض : « كلا ، لن أفعـــل • ليظل جمال السيدة دولثينيا ، ومجدك ســـالمين ، ويكفينى أن يعتزل العظيم دون كيخوتى فى بيته طوال عام ، أو طوال المدة التى أفرضها عليه ،كما اتفقنا قبل المعركة » •

فقال دون كيخوتى انه مادام لا يطلب منه شيئا يضـــر بدولثينيا فانه سينفذ كل ما يطلب منه بدقة الفارس الصادق الأمين •

لم يكن هذا الفارس الغامض غير سانسون كاراسكو حائز الاجازة ومن نفس قرية دون كيخوتى ، ونراه يقول :« ان أحوال دون كيخوتى الجنونية تثير الرحمة فى نفوس كل من يعرفونه • وأنا من أولئك الذين تأثروا لها أيما تأثر ، ولما كنت أعتقد أن الراحة وحدها هى التى يمكن أن ترد اليه عقله ، فقد بحثت عن الوسائل لاعادته الى بيته ، واستقراره فيه • ومنذ ثلاثة أشهر تقريبا ، قمت بجولة فارس جوال ، وأطلقت على نفسى اسم فارس المرايا ، بقصد منازلته وقهره دون الاضرار به • وقد وضعت شرطا للقتال أن يكون المهزوم تحت رحمة الظافر ، ولما كنت أظن أننى سأنتصر عليه بسهولة ، فقد أردت منه أن يعود الى بيته ولا يخرج منه لمدة عام ، مؤملا أن يشفى فى خلال هذه الفترة • لكن شاء القدر شيئا آخر ، لأنه هو الذى انتصر على ، وهكذا تبدد مشروعى • وعدت خجلان محطما من السقطة . وكانت شديدة • لكنى لم أيأس ، وأقسمت أن أعود وانتصر عليه ، وهو ما فعلته اليوم • ولما كنت أعلم دقته فى مراعاة قواعد الفروسية ، فانى لا أشك أبدا فى أنه سينفذ ما تعهد به » •

وتحاشى سانسون كاراسكو أن يعرف دون كيخوتى حقيقة ماحدث حتى لا تضيع جهوده ونواياه الحسنة سدى ، وحتى يستطيع هذا الرجل المسكين أن يسترد صوابه وعقله ، فدون كيخوتى عقله ممتاز حين لا تعكره تهاويل الفروسية الجوالة •

وعند عودة دون كيخوتى يقع فريسة للحمى التى ألزمته الفراش ستة أيام · وكان القسيس ، وحائز الاجازة ، والحلاق يعودونه مرارا · ولم يفارقه سانتشو ، السائس الطيب ، لحظة · وكان أصحابه مقتنعين بأن مرضه ناشىء عن ذكرى هزيمته وعن اغتمامه لعدم رفع السحر عن دولثينيا ، ولهذا اهتموا بالترويح عنه وتسليته وصرف الهموم عن خاطره · وحثه كاراسكو أن يتشجع ، وينهض ليبدؤوا الحياة الرعوية ·

بيد أن شيئا لم يفلح فى تسرية الأحزان عن دون كيخوتى · ودعى طبيب ، فجس نبضه ، ولم يرض عنه · وقال ان على المريض أن يعنى بنجاة روحه ،لأن حياته فى خطر شديد · تلقى دون كيخوتى النبأ بهدوء ، بينما انخرطت ابنة الأخت ومدبرة المنزل ومعهم سانتشو فى البكاء · فقال الطبيب : « هذه الدموع ، وهذا الحزن ، ستجهز عليه » · وطلب منهم دون كيخوتى أن يتركوه وحده ، لأنه يريد أن ينام قليلا · فنام نومه متصلة طوال ست ساعات ، وخشيت السيدتان ألا يفيق أبدا · ولكنه فتح عينيه ، وصاح بصوت قوى :

« تبارك الله العلى القدير على ما أنعم به على ! ان رحمته واسعة لا تحد ·· وخطايا الناس لا تضعفها ولا تطفئها » ·

وأصغت بنت الأخت فى صمت الى كلام خالها ، وقد بدا موفور العقل أكثر من المعتاد ، فقالت له :

«ماذا تقصد ياخالى العزيز · وعن أية خطايا ، وأية رحمة تتكلم ؟»

فأجابها دون كيخوتى : « عن الرحمة التى وهبنى الله اياها منذ قليل ، ولم تمنعها خطاياى وذنوبى · ان تمييزى الآن حر سليم ، دون أية سحابة من ذلك الجهل الذى نشرته على قراءاتى المستديمة الخطرة لكتب الفروسية » · ثم استطرد قائلا : « انى أشعر باقتراب أجلى ، يا بنت أختى العزيزة ، وبودى أن أموت دون أن أحمل معى الى القبر لقب مجنون ، وان كنت كذلك طوال حياتى · نادى ، أى بنت أختى العزيزة ، أصدقائى : القسيس وحائز الاجازة ، والأسطى نيكولا الحلاق » · ولم تحتج ابنة الأخت الى السعى لاحضارهم ، لأن ثلاثتهم جاءوا ·

ولميكد دون كيخوتى يلمحهم حتى صاح : « هنئونى يا أصدقائى ، على أنى لم أعد بعد دون كيخوتى دى لامانتشا ، بل ألونسو كيخانو الملقب بالطيب » · ثم قال · « انى أشعر بالحياة تفر منى ، انى فى حاجة الى من يتلقى منى الاعتراف ، والى موثق لاملاء وصيتى · فى الموقف الذى أنا فيه ، ينبغى على المرء ألا يسخر من روحه · وهكذا أرجوكم أن يذهب أحد لاحضار موثق ، بينما يتلقى القسيس اعترافى » ·

وراح الحاضـــرون يتطلعون الى بعضهم البعض ، وقد أخذتهم الدهشة منسلامة عقله ، وان كانوا لا يكادون يصدقون • ثم أنه أضاف الى كلامه الاول كلاما آخر كثيرا يبين عن عقل وتقوى ، حتى لم يعد ثم شك فى شفاء عقله • وطلب القسيس من الجميع أن يخرجوا ، وبقى معه ليتلقى منه الاعتراف •

خـــرج حائز الاجازة ليبحث عن موثق • وأتى به بعد قليل مع سانتشو بانثا • ولما علم سانتشو المسكين من كاراسكو سوء حال مولاه ، ووجد المراتين تبكيان ، أخذ يتنهد ويسفح العبرات • ولما انتهى الاعتراف خرج القسيس وهو يقول : « انه يموت فعلا ، وقد حان الوقت ليملى وصيته » • أطلقت هذه العبارات زفرات المراتين وسانتشو ، وانهلت منهما ومنه دموع غزار ، فقد كان الرجل دائما رقيق المزاج حلو المعشر ، جميل الشمائل ولهذا أحبه أهل بيته ، وأحبه كل أهالى قريته •

وعندما انتهت الوصية ، أصيب بنوبة ، وتمدد فى فراشة ، فأسعفوه •• ولم تمض سوى ثلاثة أيام لفظ بعدها انفاسه الأخيرة •

ـ ٨ ـ

يستحق ليمـــوت

لقد كتب الكثير عن هذه الوفاة المفاجئة لدون كيخوتى الذى عاد الى رشده • فبالنسبة الى أصحاب المذهب الرومانتيكى كان طبيعيا أن يموت البطل وهو يحس بالعالم الحقيقى بعد أن تعذر عليه الحياة خارج عالمه المثالى •

ويذهب بعض النقاد الأكثر واقعية الى القول بأن ثربانتس أراد أن يموت بطله لتجنب سرقات أدبية جديدة ، ففضل أن ينهى حياته على أن يرى مؤلفا مزيفا • يحل محله (وبصورة أردأ) •

ويبدو أن ثربانتس أعطى ســـندا لذلك الرأى الذى طرحه بعض النقاد ، عندما طلب فى خاتمة الرواية من السارق أن يترك عظام دون كيخوتى ترقد فى ســـلام فى مثواها الأخير ، وألا يحاول ، ضد قرارات الموت ، أن يعرضه على قشتالة القديمة •

ان ثربانتس يشير هنا لما جاء فى نهاية الجزء الثانى المزيف عن دون كيخوتى الذى ألفه مجهول باسم مستعار هو أبيانيدا وفيه يقول : ان دون كيخوتى بعد أن خرج من بيت المندوب ، الذى حجز فيه مدة من جراء جنونه عاد الى قشتالة القديمة على ظهر فرس آخر اشـــتراه ، وخاض هناك مغامرات رائعة ليس لها نظير ، واتخذ لنفسه سائسا وجده عند قلعة لودونى ٠٠ ولم يكن الفارس الطيب يعلم أن سائسه امرأة فى زى الرجال الا بعد أن جاءتها آلام المخاض ، وولدت وهما فى الطريق ٠٠ فرحل بغير سائس الى شلمنقة وآبلة ، وبالبادوليد ، ولقب نفسه بلقب فارس الأعمال ٠

ومن المحتمل أيضا أن يكون ثربانتس ، وهو المســـيحى التقى والمتمسك براحة نفس البطل الذى أبدعته مخيلته ، قد وجد أنه من الخير أن يدفن هذا البطل سليم العقل ومزودا بالأسرار المقدسة ٠

الفصـــل الثانى

شخصـــيات الروايــة

انها البشـــرية بأجمعها التى تدور بجوار الفارس دون كيخوتى وسائسه سانتشو ، بكل مافيها من خيلاء وزهو وغرور وتفاهة ، وبما فيها من ثرثرة وفراغ وخواء ، وبما فيها من خيالات ويوتوبيات (مدن فاضلة) بمثالياتها ٠

ـ ١ ـ

الفـــــارس النبيـــــل

ان شخصية دون كيخوتى ، وسائر الشخصيات الأخرى ، ليس لها حقيقة تاريخية ٠ ولم يوجد فارس باسم آلونسو كيخادا أو كيسادا ، أو على الأقل لم تكتشـــف حتى الآن ، أية وثيقة تثبت وجوده ٠ لقد خلق ثربانتس شخصية بطله ، ولكنه رسمها كأنها قد عاشت حقا ٠ بل انه يجزم أيضا أنه استعار هذه الشخصية من كتاب المؤرخ العربى سيدى حامد بن النجيلى ٠ ويؤكد أن سكان لامانتشا يعرفون الفارس ، وأن سانتشو باتثا والقسيس وحائز الاجازة وكثير من الشخصيات الأخرى كانوا موجودين فعلا ٠

وهناك بعض كتاب السير يقولون انهم اكتشفوا أن دون كيخوتى هو صورة طبق الأصل من دون آلونسو كينتانا عم كاتالينا زوجة ثربانتس ٠٠ وربما لغرابة هذا الشخص استحق لقب « الفك » ، وكان يسكن أيضا فى أحد منازل اسكويبياس ٠ ولكن ليس هناك دليل على ذلك ٠ ولا يستبعد أن يكون هناك تقارب فى الوصف بين بعض الشـــخصيات التى قابلها ثربانتس فى حياته فى أثناء تجواله وبين شـــخصيات الرواية ٠ وكان ثربانتس يمتاز بقوة الملاحظة فلم يترك مشهدا من المشاهد التى رآها ٠٠ رحلات ، حروب ، اختطاف ووقوع فى الأسر ، اقامة داخل الســـجن ،

معايشة فنانى المسرح ، العمل فى خدمة الملك ، جولات عديدة فوق الحصان ، مضايقات ، بؤس ·· كل ذلك أعطاه فرص لقاء أغرب نماذج البشر ·

صحيح أن دون كيخوتى بطل لكل العصور ولجميع الأقطار والأمصار ، الا أنه لا يخرج عن كونه سيد ريفى نبيل · ولا شك أن ثربانتس قد قابل شخصيات من هذا النوع تتجول فى أراضيها عبر القرى التى تلفحها الحرارة ، ويمكن أن نتخيلهم بياقاتهم الكبيرة وأرديتهم وسيوفهم التى تتدلى دائما على جوانبهم ، وسيرهم البطىء ، ووقتهم الموزع بين القراءة والنزهة وسط قرويين يتملقونهم ، وخدم مخلصين ولكن جهلاء ثقلاء ·

ويحاول السيد ان يكون نبيلا كما تراه أسبانيا القرن السادس عشر ·· اذ يتصف بعدد من صفات معينة ·

يكون الشخص نبيلا بالميلاد والعقلية ونوع الحياة التى يحياها · ويجب أن يكون من سلالة مسيحية نقية ،وتكون النفسية ذات علو ورفعة لا يشغلها الا الأفكار السامية ،وأن يزدرى كل ما هو سوقى فظ مبتذل ، ونوع الحياة التى يحياها يجب أن تخلو من العمل ، وطبعا هذا النوع صعب وغير منتج · ويجب ألا يعيش النبيل الا من انتاج أرضه · ولكن لسوء حظ صاحبنا فان هذه الميزة لم تعد سائدة ، والأجزاء الصغيرة من حقوله لا تكفى لكى يعيش حياة كريمة ، ومع ذلك لن يلجأ الى العمل · ذلك الذى سيجعله تحت رحمة كرم الآخرين · وعليه أن يعيش من دخله المتواضع مهما كان الأمر ·

ولقد أحس ثربانتس اكثر من غيره بسخرية هذا الموقف عندما قدم لنا بطله ·

فالنبالة بالنسبة للنبيل لا تظهر عن طريق الحلى أو سخاء المائدة أو امتلاك الأراضى والخدم والقصور الفخمة ، انما النبيل هو ذلك الذى تجرى الفروسية فى دمه وقلبه · ويجب أن يكون ، قبل كل شىء ، كبيرا يعلو فوق التوافه والصغار والسوقية والفظاظة والابتذال والخسة والدناءة ، أى أن يكون بحق نبيلا · يقول دون كيخوتى لسائسه سانتشو « لتعلم انه بارادة الله ولدت فى هذا العصر الحديدى لأبعث العصر الذهبى ·· اننى جئت للمخاطر والأعمال البطولية العظيمة » · ذلك هو قانون الايمان بالنسبة للفارس الذى يحلم بآفاق لانهاية لها · ولكى يبرز هذه المثل التى يصعب الوصول اليها ، وضع ثربانتس أمام بطله شخصية سانتشو وطريقة تفكيره المختلفة وهو يرد على سيده : « سيدى ·· اننى لا أعرف لماذا تريد مواجهة هذه المغامرة الخطرة ·· ان الوقت ليل ولا أحد يرانا ، ويمكننا أن نسلك طريقا آخر يبعدنا عن الخطر · ومادمنا

لا يرانا أحد ، فلن يصفنا انسان بأننا جبناء » • تلك هى تفاهة الشخصية، فان رأى الآخرين هو بمثابة قانون لمثل هذا الرجل • وطالما أن الناس لن ينعتوه بالجبن فهو ليس جبانا • انه لا يحس بأخلاقيات الفروسية ، ولن يتبادل مع دون كيخوتى الا الأحـــاديث الصــــماء التى يعوزها هذا الاحساس •

ـ ٢ ـ

ســـــانتشو بانثا الذى ولد لينــــام

كيف نفهم هذه المثالية •• مثالية دون كيخوتى الأثيرية بروحيتها؟ وشفوفها ونقائها اذا كنا مثل سانتشو لا نهتم الا بأجسادنا ولا نشعر الا بالرغبة لسد حاجاتنا الأساسية فى الحياة • انه وهو المتعب والجائع والذى يكاد يموت عطشا لا يمكنه أن يفهم الجنون الغريب الذى يدفع سيده الى الانطلاق بجواده نحو مخاطر جديدة ، فنراه يقول لسيده : « ألا تفضل النزول من فوق جوادك والاستلقاء على العشب طلبا للراحة والنوم بدلا من الجرى وراء المغامرات •• ؟ » •

ان ثربانتس لا يطيل فى وصــف ســـــانتشو بل يتركه يعيش تحت بصرنا •

وسانتشو يترك أحلام المجد والبطولة لدون كيخوتى ، أما السائس فلا يتمنى الا أحلاما هادئة ، وكل ما يأمله هو أن يحظى بفضل اخلاصه لسيده الفارس بمكان متواضع تحت الشمس • ولكى يفوز بالجزيرة التى وعده بها سيده فهو مستعد لمواجهة كل أنواع المخاطر والمتاعب والانقطاع عن الطعام والتعرض للسب والشتم وحتى الضـــــرب • ومن بين هذه المتاعب يوجد شىء وحيد لايتحمله هو تلك الليالى البيضـــــاء العزيزة على سيده والتى يقضيها فى مناجاة حبيبته وتأمل النجوم • ومنذ الليلة الأولى وبينما دون كيخوتى يســــهر وأفكاره متجهة الى محبوبته نرى سانتشو يستغرق فى نوم عميق لا يوقظه منه الا نداء سيده •

ترى هل استمد ثربانتس شـــــخصية سانتشو من أنموذج حى ؟ لا يمكننا معرفة ذلك ، غير أن العالم ملىء بهذا النوع من الرجال الذين لا يهتمون الا بملء بطونهم ، ويتعطشون الى الفراش الوثير الذى يجعلهم

يستغرقون فى النوم ، ان مثاليتهم عادية جدا ، أما مثالية دون كيخوتى فقد كانت غريبة وتفوق كل حد ٠

ـ ٢ ـ

الدوافع الطيبة للجـــامعى كاراســـكو

ان لقب جامعى أو حائز الاجازة كان يطلق فى عهد ثربانتس على كل من تردد على الجامعة لمدة لا تقل عن سنتين ٠٠ مستوى مشرف فى بلد كانت معرفة القراءة والكتابة تعد أمرا فيه ترف ٠ وكان سانسون كاراسكو صديق دون كيخوتى رجلا مثقفا سليم التفكير اعتاد أن يشحذ ذكاءه بقراءة المؤلفات الفلسفية والأدبية الضخمة التى كانت تعتبر وقتئذ أهم ما يقتنيه الطلبة ٠

ولكن هذا العلم لن يساعد كاراسكو على فهم صـــديقه ، بل انه سيكون عنيفا فى محاربة جنون دون كيخوتى بكل السبل ٠ وهو الذى ينجح بحيلته فى اعادة الفارس الى مخدعه ٠ والخدمة التى سيؤديها له ستكون قاتلة : أولا لتخيلات الفارس المسكين ، وثانيا لجسده الذى لن يتحمل الصدمة ٠فليس سانتشو هو الشخص الوحيد الذى لم يفهم أحلام دون كيخوتى ٠ وصحيح أن هذه الأحلام قد بهرته ، ولوأنه لا يقاسمه متاعبه وهواجسه الا وهو متأثر قليلا بجنونه وعظمته ٠ ونحن نراه يتحدث عن دون كيخوتى فيقول : « سيدى روحه بسيطة ، ليس فيه أى شر ، وقلبه مفتوح ، لا يسىء الى أحد ، بل يصـــنع الخير لجميع الناس . ولا يعرف الخبث ، ويستطيع أى طفل أن يوهمه فى رائعة النهار أن الوقت ليل ٠ اننى أحبه كانسان عينى لبراءته ، ورغم كل تهويلاته فاننى لا أقوى على التصميم على تركه » ٠

ولم يكن هذا رأى الجامعى كاراسكو الذى يرى فى جنونه داء لابد من علاجه بأسرع مايمكن فهو القائل : « أعتقد أن الراحة التامة فى قريته وفى منزله ستؤدى الى شفائه » ٠ ولذلك تنكر فى زى فارس المرايا ثم فى زى فارس القمر الأبيض لمبارزة دون كيخوتى وارغامه على العودة الى المنزل

ترى ماهى دوافع هذه الشخصية العنيدة ؟

ان ثربانتس يقدم لنا شخصية سانسون كاراسكو كشخص ماكر واسع الحيلة ويتمتع بفكر ايجابى ‥ فهو لا يعتقد بصحة أى شىء الا اذا وجد له برهانا · وهو لا يشك لحظة واحدة فى أنه على حق عندما يريد انتزاع دون كيخوتى من هواجسه الجنونية · ان كاراسكو يعمل من أجل سبب وجيه ، ولا أحد يذكر أن نبيلا يتجول على ظهر حصانه يذرع الفيافى والقفار ان هو الا مجنون يجب أن يوثق ويحبس ·

ولا يمنع هذا من أن يأتى الظرف الذى ينزع غصن النصر من يد العاقل كاراسكو ‥ فالموت يعيد الى دون كيخوتى هذه الأبعاد الخيالية الخالدة التى تستحقها دون شك هذه النفس الكائنة فوق الوجود المادى والخارجة عن نطاق المألوف ·

ويذكرنا هذا الانتصار بانتصار آخر أحرزته بطلة مسرحية « الآنسة جوليا » للكاتب المسرحى الروائى السويدى الشهير أوجست ستريندبرج (١٨٤٩ ـ ١٩١٢) وفيها صراع اجتماعى بين خادم وفتاة أرستوقراطية متناولا ثورة الرجل على طغيان المرأة · ولكن رغم انتصار جان كرجل فى معركة الجنس عندما غرر بجوليا ، فقد انهزم كخـــادم ‥ فعندما انتزعت بطلة المسرحية الموسى من يده لتنهى حياتها أحسسنا بها تقول له : « أرأيت أيها الخادم أنك لا تستطيع أن تموت ! » · ومضت جوليا فى حزم وعزم لتلقى الموت فى حين كان جان يرتعد فى حقارة فوق السلم بجوار أحذية الكونت (والد جوليا) ! وهكذا تتضـــح لنا فى الخاتمة ثنائية المسرحية فقد ظل ستريندبرج طوالها يصور لنا رؤيته التى لا تخلو من غموض عن النبل والخسة ،والروح والمادة ‥ وهو اذ يحاول أن يفر من الحياة الى آفاق النقاء الروحى لم يستطع أن يقاوم جاذبية الجسد التى تشده الى لحم العالم المادى !

ولكن الطريف فى رواية ثربانتس أن هذا الصـــراع بين المثالية والواقعية لا يجمد فى نموذجين ثابتين ، وانما يتداخل الأمر مما يجعله أقرب الى طبيعة الحياة والأحياء ،فدون كيخوتى المثال ، لا يحركه حب الخير وحده مجردا ، بل انه ليطلب لنفسه هو الصيت والمجد والشهرة · وســـانتشو بانثا على واقعيته وأطماعه وجشـــعه يستفزه حب العدالة والرغبة فى الخير أيضـــا · والفارس وتابعه يتبادلان التأثير العاطفى والفكرى فيما بينهما خلال مراحل القصة ·

اللص .. روك جينــار

عرفت أسبانيا الكثير من اللصوص ذوى المواهب المتعددة . وقد ذاع صيت بعضهم وظلوا يتمتعون بشـــهرة كبيرة مثل دييجو كورينتس الملقب باللص الكريم ، والشهير فرانشسكو ستيفانو وكذلك جوسيبى ماريا « ملك » الســـييرا مورينا . وقد تناقل المغنون أعمال هؤلاء الرجـــال المشهورين الأقوياء .

وهذا لا يعنى أن أسبانيا كانت تحمى هؤلاء أو تعطف عليهم ، ولكن حياتهم فى الخفاء كان لها لون من الاثارة بالنسبة لشعب يعانى الكثير من ألوان الظلم والاضطهاد .

تجمع خدم والدها للعمل فى الحقل فصعدت فوق قمة الأجراس وصاحت وكان من السهل أن يجد ثربانتس فى الحياة نموذجا حيا للص الشريف والمخلص .

لقد عاش روك جينار فعلا ، وكان لصـــا من كتالونيا ، الا أن ثربانتس يصوره لنا وفق الخيال الشعبى على أنه لص بطل وكريم ، ومن الصعب أن نتخيل لصا يتحلى بهذه الصفات . ويصبح روك أحد أبطال رواية دون كيخوتى ويتحدث اليه بكل احـــترام ويمنع رفاقه من تفتيش سانتشو بطريقة جافة ، ويهب لنجدة فتاة حتى نجده فى النهاية يبكى معها موت خطيبها . ثم نراه بعد أن يجرد بعض المسافرين من أموالهم يحتفظ بجزء من الغنيمة لرجاله ويرد الباقى حفاظا على المظاهر الاخلاقية .. وكان هذا العمل من النبل بمكان حتى أن احدى السيدات المسافرات بلغ من تأثرها أنها أرادت أن تنزل من العربة لتقبل يدى وقدمى روك العظيم ، ولكنه يأبى أن يسمح لها بذلك ، بل ويعتذر لها عما سببه لها من ازعاج .

وشخصية روك هذه فيها الكثير من التناقضات فتتأرجح بين الأدب والعنف ، والدماثة والتوحش . وقد عرف كيف يجذب اهتمام وصداقة دون كيخوتى .

وقد ذكر الكاتب والمفكر الاســـبانى الكبير ميجل دى أونامونو (١٨٦٤ ــ ١٩٣٦) أن هذين الرجلين يشتركان فى تعطشـــهما للعدالة فيدفع ذلك كلا منهما بطريقته الخاصة الى البحث عن السبل التى يغير بها وجه العالم .

* * *

دولثينيا •• الفاتنة التى لا وجود لها

ان دولثينيا شخصية غير حقيقية ، وهى لا تظهر على الاطلاق فى الرواية ، واذا ظهرت فتحت شكل مجســـد آخر مثـل لشخصية الدونثا لورنثو التى جعل منها فارس دى لامانتشا فتاة أحلامه •

وهذه الفتاة ، وياللســـخرية ، فتاة قوية البنية ، شديدة القوة ، سليطة اللسان تثير اعجاب سانتشو •• ويحكى أنها أرادت ذات يوم أن فيهم كالبوق •

وهكذا ليست هناك أية قرابة بين هذه الفتاة القوية المزعجة وسيدة توبوسو •• ففتاة الأحلام ليست الا فكرة عن المرأة نابعة فى خيال دون كيخوتى ولا نتعرف عليها الا من حـــركات المتيم الولهان •• فمن أجلها يندفع البطل نحو الصعاب ويخاطر بحياته ويتلقى الضربات ويهزم ويؤكد أنها هى التى تحارب وتنتصر بذراعة ويعيش ويتنفس فيها ويتلقى منها الحياة والوجود •

وقل أن يوجد فى الأغنية أو القصيدة مثل هذا المؤلف الذى يسمو بالمرأة حتى يجردها تماما من الجسد ويجعل منها شبحا يقع فى هواء البطل •

وقد نجح ثربانتس فى أن يجعل جنون دون كيخوتى كبيرا ومؤثرا لدرجة تؤثر فينا • فتصبح فتاة الأحلام هذه أكثر حياة من الأحياء لدرجة اننا نتخيلها ونتساءل عنها ونخلع عليها ملامح وصفات • ومن الممكن أن نرى هذه الفتاة التى لا وجود لها انما تمثل لنا مثالية المرأة وتمجيد الحب ، ذلك الحب الذى يعتبر الوسيلة الوحيدة للشـــعور بالحياة ، فالفارس المتجول ، كما يقول دون كيخوتى ، الذى تخلو حياته من الحب كالشجرة الخالية من الأوراق والثمار •• كالجسد بلا روح •• وبالنسبة لثربانتس فان دولثينيا هذه ليست امرأة بل هى صورة للحب ، ذلك الحب الذى يسيطر على الانسان ، وبه تصبح للحياة معنى ، فاذا شفى منه الانسان فانه يموت كما مات دون كيخوتى •

— ٦ —

تيريسا ·· الحكيمة التى تتكلم بالأمثال

« لكل داء دواء ماعدا الموت الذى ليس له دواء » بهذه الكلمات ترد تيريسا على سانتشو الذى يفضل أن يموت من أن يتخلى عن ادارة الجزيرة ·

انها تفكر فى المحسوسات الواقعية وليس فى الترهات ، وهمها الأول تربية الأولاد ·يبلغ ابنها سانتشيكو الخمس عشرة من عمره فتقول : « لقد آن له أن يذهب الى المدرسة اذا أراد خاله الكاهن أن يجعل منه قسيسا · وهنا أيضا سانتشيكا أو مارى سانتشا التى ينبغى أن تتزوج ·· ليصبح سانتشو محافظا أو حتى ملكا اذا شاء ، ولكن ليبتعد عن فكرة أن تتزوج ابنته أحد الفرسان · ان مايلزمها هو رجل من مستواها ، ·· وكما تقول الحكيمة تيريسا « نصبح عائلة واحدة : الوالدان والأبناء وزوجات الأبناء والأحفاد ونعيش فى سلام ببركة الله بيننا » ·

ويبتسم ثريانتس من سذاجتها ، ولكنه يرسم لنا صورة جميلة كلها رقة ويجعلها تتحلى بالتواضع والبساطة ·

وهنا تهب عاصفة من الضحك يثيرها جنون سانتشو الذى يرغب فى اصطحاب الزوجة والابنة الى الجزيرة التى يبغى حكمها فتجيبه تيريسا بطوفان من الأمثال للبرهنة على أن الفرغ النسائى فى العائلة قادر على المقاومة ·

وبعد هذا الهجوم بالالفاظ تلجأ أخيرا الى احدى حكمها : « افعل ماتشاء ·· اننا معشر النساء نولد وعلينا التزام الطاعة لأزواجنا مهما كانوا حمقى بلهاء » ··

— ٧ —

ماريتورنس المسكينة ذات القلب الكبير

يبدو من الوهلة الأولى أن ماريتورنس تجسد بحزن عبث الحياة وتفاهتها · ان هذه الخادمة الشابة التى تتفجر أنوثة وحيوية موضع

اهتمام سائقى الدواب وطائفة كبيرة من الذين على شـــاكلتهم · ولولا الوصف القبيح الذى وصف به ثربانتس هذه الخادمة لكانت القصة منافية للآداب ، ولكنها واقعية ·

أضف الى هذا الوصف أنها تعبر عن الجهل التام ، وربما شعرت هذه الخـادمة بهذا التخلف فنراها لا تتكلم فى معظم الوقت وتتحمـل مضايقات سائق البغال الذى ينتظرها فى سريره ، وحركات دون كيخوتى الذى يرى فيها احدى آلهات الجمـال ويعتقد أنها مغرمة به ، وتأنيب سيدها رغم أنه لايعبأ قط بما يبديه الزبائن من اهتمام نحو خادمته ·

وهناك تناقض بين هيئة الخادمة الجسدية وبين وظيفتها مما يجعل موقفها غير طبيعى ·

وهذا التناقض هو مبعث الكثير من المواقف الكوميدية لدرجة يشعر وان فكرة التناقض والهزل لمجرد الهزل تغلبت على التفاهة البشرية · وهناك الكثير من المواقف المضحكة فى هذه القصة ومنها مشهد الخادمة وهى تدخل بقميصها عارية القدمين الى العنبر الذى يرقد فيه النزلاء وهى تتحسس طريقها متسللة على أطراف أصابعها بحثا عن عشيقها فتقع على دون كيخوتى ·

تلك هى شـــخصية ماريتورنس الغبية التى تبعث أعمالها على السخرية ·· خادمة بائسة لا تتردد عن الانفاق من جيبها الخاص لتخفيف آلام الآخرين · وهذا العمل الجميل المفاجىء من ماريتورنس يصـبغها بصبغة الانسانية ·

ـ ٨ ـ

انطونيا ·· الرقيقة الشعور أكثر منها قاسية

استوقفتنا انطونيا ابنة شقيقة دون كيخوتى حين قرأنا الفصـل السادس من الجزء الثانى من الرواية رغم أنها شخصية عابرة مر بها المؤلف ثربانتس مرور الفرافير · فحين تعرفت هى والمربية على دلائل وعلامات أن خالها يريد استئناف مهنة الفارس الجوال التعيسة عليهما ،

حاولتا بكل الطرق الممكنة أن تثنياه عن عزمه ، الا أن ذلك كان بمثابة طرق الحديد وهو بارد · وفي أثناء الحوار الذى دار بين دون كيخوتى وابنة أخته ومربيته انبرت أنطونيا تقول له : « اه ياسيدى ، لاحظ ان كل ما تقوله عن الفرسان الجوالة ليس الا كذبا وخرافة ،واذا لم تحرق هذه التواريخ ، فانها تستحق على الاقل أن تلبس لباس المحكوم عليه بالاعدام من الديوان المقدس ،أوأية علامة أخرى تدل على أنها كتب شائنة تفسد الاخلاق » ·

فاذا بفارسنا يقول لها وهو يتنهد متحسرا فى اكتئاب ، وقد أحزنه أن صلة الرحم لم ترحمه من قسوة الفتاة الشابة : « بحق الله الذى يعيننى! لو لم تكونى ابنة شقيقتى ، شقيقتى أنا مباشرة ، لعاقبتك على التجديفات التى تفوهت بها عقابا تسمعه الدنيا بأسرها » ·

ثم صاح ساخطا مغتاظا : « كيف يمكن لفتاة بلهاء لاتكاد تحسن ادارة اثنى عشر مغزلا لعمل شبكة ، أن تتدخل وتتكلم لتعيب تواريخ الفرسان الجوالة ؟ » ·

قالت الابنة الأخت : « كان الله فى عونى ! أعتقد ياخالى أنك تستطيع عند الحاجة أن ترقى منبرا أو تخطب فى الطرقات ، ولكن عماك عظيم ، وهذيانك وخلطك معروف بين ، حتى لتظن فى نفسك انك شجاع قوى وأنت عجوز ، قوى البنية وأنت مريض ، مصحح للمظالم وأنت نفسك قد أخنى عليك الدهر ، وفوق هذا كله فارس مع أنك لست كذلك ·· لأنه لو ان النبلاء يمكن أن يصيروا فرسانا ، فان الفقراء منهم لا يمكن أن يصيروا كذلك » ·

فقال دون كيخوتى : « أنت على صواب فيما قلت يا ابنة شقيقتى ، وفى وسعك فيما يتعلق بهذه الفوارق فى الأصول ، أن أعلمك أمورا تخلب لبك وتنتزع اعجابك » · ثم استطرد قائلا : « هناك جنس فى هذا العالم كان أوائلهم متواضعين ، ثم انتشروا وتزايدوا حتى بلغوا قمة العظمة »

وفى موضع آخر نراه يقول : « وثم طريقا للوصول الى العظمة والجاه : الآداب والأسلحة وأنا أكثر تضلعا فى الأسلحة منى فى الآداب · وقد ولدت ذا ميل فطرى الى الأسلحة ، تحت تأثير النجم المسمى المشترى ·

وهكذا فاننى مضطر الى سلوك هذا الطريق ، وسأتبعه على الرغم من كل العالم بأسره · فعبثا اذن تحاولان اقناعى بالسير ضد مشيئة السماء ، وضد أمر القدر ، وأمل العقل ورغبة نفسى · وأنا أعلم أنه اذا كانت أعمال الفروسية الجوالة لا تعد ولا تحصى ، فان الخيرات التى تجلبها هى أيضا لا نهاية لها ، واذا كان طريق الفضيلة ضيقا ، فان طريق الرذيلة واسع رحب فسيح وان هذين الطريقين مختلفان كل الاختلاف ،

لأن طريق الرذيلة ، وهو مفتوح وميســـور ، يفضى الى الموت ، وطريق الفضيلة ·· القاسى الشاق يفضى بنا الى الحياة ، لا الى حياة فانية ، بل الى تلك التى لم تنفد أبدا وأنا أعلم ، كما قال أحد كبار شـــعرائنا الأسبان (وهو جارثيلاسو دى لابيجا ١٥٠٣ ـ ١٥٣٦) ، أنه عن هذه الطرق الشاقة يذهب المرء الى عرش الخلود ، حيث لا يصل اليه أبدا من يتخذ طريقا آخر » ·

فصاحت ابنة الأخت : « آه ! يالشقائى ! ان خالى شاعر أيضا ·· انه يعرف كل شىء ، ويفهم كل شىء ، وأراهن أنه لو شاء أن يكون بناء لبنى منزلا كالقفص » ·

وفى الحقيقة ان الفتاة الشابة ·· أنطونيا كانت ذات فطرة سليمة، وممتلئة بالعفة والفضيلة وتخشى الله · ونحن لانلومها على اخلاصها ·

بيد أننا اذا أردنا أن نحلل هذه الشخصية علينا الا نجزىء غضب دون كيخوتى ، وذاك الذى تفوهت به تلك الفتـــاة ، التى نعتها خالها بالبلهاء ، حتى لا نبدو أمامها أشخاصا سريعى التصديق ·

ولاريب أنه فى هذه المرة أيضا قد تسلل الينا ذلك الجنون النبيل ·· جنون دون كيخوتى من طول معايشتنا له حتى أصابنا بالعدوى دون أن نعلم · ومن فرط ترددنا على عالمه حتى الفناه وصادقناه ، جاءت اللحظة التى أصبح فيها الآخرون ، الذين كنا نعتقد أنهم من ذوى العقول السليمة والتفكير السوى، وقد بدوا لنا قصيرى النظر ، عاجزين عنأن يتأثروا بشىء غير خوابى النبيذ والفراش الوثير (حلم سانتشو) أو يهتزون لغير مهنة تخريم الدانتلا (تلك التى تلخص حياة أنطونيا) ·

ان هذه الفتاة الشابة التى ترهقها الأعمال المنزلية ، ورغم ظهورها العابر الذى لم يستغرق سوى لحظات خاطفة فى الرواية ، تجسد لونا رماديا رســـمته فرشاة ثريانتس الفنان عن الحياة الرتيبة المملة التى تعيشها العديد من النســـاء ، غير أنهن بقدر مايعانونه من تعب وسأم وملل وضجر بقدر مايتمتعن بفطرة سليمة ، وعفة وفضيلة ·

وهى أيضا صورة أصيلة ونموذج للكثيرين من ذوى الفكر الهزيل·

وهكذا نجد أن أنطونيا التى تمثل اللون الرمادى ، انما هى رمز لأولئك الذينيعيشون عيشة الكفاف ، ويحيون حياة خاملة ·

الفصـــل الثالث

عرض لآراء الكتاب والنقاد فى العمل

(١) تفوق ثربانتس فى الميدان القصصى

كان ثربانتس شاعرا وكاتبا مسرحيا وقصـــصيا يكتب القصـــة القصيرة والرواية ٠

أما عن شعره فان ثربانتس نفسه يعترف بأن مقدرته فيه متوسطة وفى خطاب مؤرخ فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٦٠٤ ذكر الكاتب المسرحى الكبير لوبى دى بيجا أنه لا يوجد فى أسبانيا شاعر « سىء مثل ثربانتس » ٠

وقد كتب ثربانتس كمية وافرة من الشعر الذى شـــغف به طوال حياته ٠ فمنذ كتب أولى قصائده بمناسبة وفاة الملكة ايزابيل دى فالوا عام ١٥٦٩ حتى نهاية حياته تعددت المناسبات التى نظم فيها شعرا فكتب القصائد عن الأحداث المعاصرة ، والحب ، ومدح الشعراء المعاصرين ، وكتب قصيدة عن القديســـه تريســـا دى آبيلا ، وتغنى بالأرمادا ٠٠ الأسطول الأسبانى الذى لا يقهر ٠ وكثيرا ما تتضمن رواياته ومسرحياته أشعارا دينية ٠ وقد تخللت رواية دون كيخوتى بعض المواقف الشعرية ٠ وفى قصيدته الطويلة « رحلة الى بارناسو » التى تقرب من ثلاثة آلاف بيت امتدح ثربانتس شعراء عصره البارزين ، وعرض أعماله وانتاجه الأدبى فخورا بها ، وبعض النبذات عن تاريخ حياته ٠

وكان ثربانتس يعلق آمالا كبيرة على مؤلفاته المسرحية ٠ ولكنها لم تلق حظا أكثر من شعره لأســـباب عدة منها نظرته التقليدية للتمثيل وخضوعه المبالغ فيه لقواعد ارسطو فى التاليف المسرحى ، وعدم توفيقه فى تطوير الحدث ، كل ذلك لم يسمح له بمنافسة الأعمال الخلاقة التى قام بها لوبى دى بيجا ٠

ومن أحسن مسرحيات ثربانتس « حصار نومانثيا » ·· مأساة حدثت فى أسبانيا فى أثناء حصار الرومان انومانثيا عام ١٣٤ ق·م· وفيها يشيد ثربانتس ببطولات الأسبان حيث فضل أربعة آلاف منهم الموت على الاستسلام ، وقاوموا ثمانين ألفا من جنود الرومان وعانوا حصارا طويلا انتهى بابادة المحاصرين وافنائهم عن بكرة أبيهم · ومن مسرحياته أيضا : « تجارة الجزائر » وقد استمد مادتها من أسره فى الجزائر ، و « سجون الجزائر » و « الزوج العجوز الغيور » و « بدرو المحتال الماكر » و « كهف سالامانكا » ·

ويشير ثربانتس فى مقدمة كتابه « ثمان كوميديات وثمان فواصل كوميدية جديدة » الى أنه كتب من عشرين الى ثلاثين مسرحية فى الفترة من ١٥٨١ الى ١٥٨٧ ·

أما الميدان الذى تفوق فيه فهو ميدان القصص والروايات · وقد اثبتت رواية دون كيخوتى وجودها لكونها شـيئا جديدا · لم تخب شهرتها منذ ذلك الحين ·

الا أن رواية « لاجالاتيا » التى تتبع أسلوب الرواية الرعوية لم تعش طويلا رغم أن هذا الانتاج كان أكثر أصالة فى نوعه وفى زمنه ، فمنذ أن ألف الكاتب الايطالى جاكوبو سـاناتزارو قصـته الرعوية « الأركاديا » أصبحت نموذجا لكل القصص الرعوية من بعد · وامتلأت السوق الأوروبية بهذا النوع من الروايات ، والذى لم يلبث أن انتشر فى أسبانيا فى العصر الذهبى (القرن السادس عشر) · ولم يكن هذا النوع من المؤلفات يروق لثربانتس · فبالرغم من أن قصة الحب الريفى التقليدية بية راعية الغنم الجميلة والراعى الشاب ايليثيو يقدمها مؤلفها كبداية لكتاب مقسم الى ستة أجزاء فان هذه الرواية لم يكن لها بقية · وقد فسر ثربانتس سكوته هذا فى قصته القصيرة : « حوار الكلاب » · ونحن نراه يدلى لنا برأيه محكما مقتضبا عن ذلك النوع الأدبى ·· اذ يقول الكلب برجانسا الى صديقه الكلب ثيبيون : « ان أصحابى الرعاة كانوا يمضون أحسن أوقاتهم فى تنظيف شعر بعضهم البعض وفى ترقيع أحذيتهم » · وعن الأركاديا يقول الكلب الفيلسوف : « تلك أشياء ترى فى الحلم وتقدم لتسلية العاطلين ممن ليس لهم عمل ولا تحمل أدنى ظل من الحقيقة » ·

واذا كان ثربانتس قد زج بنفسـه فى هذا النوع فانه كان يحلم بطبيعة مثالية · وكما عبر فى « لاجالاتيا » عن أسفه للعصر الذهبى حيث كان الجميع يجهلون هاتين الكلمتين : « ما تملكه أنت وما أملكه أنا » · وفى هذه الكلمات نرى هجومه على الملكية الشخصية وبداية لمذهب روسو ·· فجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) نراه فيما بعد يعزو الشر والخطيئة الى المجتمع ، وينادى بالعودة الى الطبيعة والحياة الطبيعية البسيطة حيث يجد فيها الانسان سعادته ·

وقد أصبحت مثالية ثربانتس ركنا أساسيا فى أعماله التالية · ولما كانت رواية « لاجالاتيا » قد ارتبطت بالأسلوب الشائع فى ذلك الحين ، لذا عاشت حياة قصيرة ولم تكن لها أصداء · بينما نجد أن مؤلفاته التى تعدت هذه الحدود مازالت تقدم للقراء ثروة لا ينضب معينها ·

وتحتل القصص النموذجية مكانا خاصـــا فى مؤلفات ثربانتس لما يتكشف فيها من عناية بالأسلوب ، وابداع فى فن التأليف · ولقد اعتبرت لمدة قرن من الزمان تحفة المؤلف ، وكثرت طبعاتها حتى فاقت فى القرن السابع عشر طبعات دون كيخوتى · والقصـــص النموذجية معاصـــرة لرواية دون كيخوتى تحفة ثربانتس الرائعة ، والتى لو لم يكتبها أصلا لكانت قصصه القصيرة كافية ليتربع مؤلفها عرش عمالقة الأدب ، فكلها من ابداعه شأنها شأن رواية دون كيخوتى · وهو لم يأخذ سوى الشكل من القصص الايطالية الرومانتيكية · وقد قال ثربانتس بحق فى تقديمه لهذه الأثنتى عشرة قصة انه أول من كتب قصصا قصيرة فى قشتالة ، ويعد ثربانتس المبدع الحقيقى للقصة السيكولوجية القصيرة فى أسبانيا ·

وبرغم أن ثربانتس قد أطلق على مجموعته القصـــصية : قصص نموذجية الا أن نموذجيتها ليست مثل القصص التعليمية القديمة كتلك التى كان يكتبها خوان مانويل · ولكن ثربانتس قد أضـــاف صـــفة « نموذجية » اشارة الى أن قصصه القصيرة ليست من النوع اللا أخلاقى كما فى القصص الايطالية ·

ولما كانت أسبانيا وطن القديس اجناثيو دى لويولا ، والقديســـة تريسا دى آبيلا ، والقديس خوان دى لاكروث ثم لمحاكم التفتيش ، فقد كان لزاما على ثربانتس أن يسمى قصصه بالنموذجية أو المثالية ليبرهن على شرف مقصده · وهى تتكون من اثنتى عشـــرة قصة · وقد بنى بعضها على حبكة رومانتيكية معقدة ·· تلك التى تروق لثربانتس ككاتب مسرحى · والبعض الآخر منها استمده من خبراته الشخصية · ولما كان الأسبان يستمتعون بالقصص التى يسخر فيها الخدم الأوغاد من مهن أسيادهم ، فقد كتب ثربانتس قصصا تصور حياة الأفاقين والمتشـــردين واحداها كانت حوارا بين كلبين ينطقان بلسان هؤلاء الأفاقين وعنوانها : « حوار الكلاب » · ومن قصص المجموعة أيضا : « الغجرية » ، « الغيور الاكستريمادوراوى » ، « حائز الاجازة ·· زجاج » وغيرها ·

وقد أدخلت هذه المجموعة القصصية الواقع فى الأدب ففيها صورة حقيقية لأخلاقيات العصر ،وأسلوب حى ، وفن عميق · وتبين عن مواهب عظيمة فى الابداع وعن ثراء فى التعبير ، وتعد شيئا جديدا فى ذلك العهد الذى كانوا يكتفون فيه بترجمة القصص التى تصل اليهم من ايطاليا ثم من فرنسا ، وكانت من النوع الذى يتميز بالاثارة واستغلال موضوعات تكاد تكون اباحية ، وترسم صورا واقعية لبعض المظاهر غير السليمة فى أخلاقيات ذلك العهد ·

وأصبح من المسلم به أن كل ما كتب من قصص منذ القصص النموذجية لثربانتس ينبع من هذه الأرض الفنية • وكل النقاد يجمعون على ذلك •

وقد خلع الكاتب المسرحى تيرسو دى مولينا (١٥٨٤ ـ ١٦٤٨) على ثربانتس لقب بوكاتشو الاسبانى • وذلك اشارة الى الكاتب الايطالى جوفانى بوكاتشو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) الذى احتل مكانة هامة فى تاريخ الأدب ومن أهم أعماله الديكاميرونا التى تشمل مائة قصة •

وقبل أن يغادر ثربانتس دنيانا بثلاثة أيام أنجز السطور الأخيرة من روايته « أعمال برسيلس وسيجسموندا » • وقد طبعت عام ١٦١٧ • وهذه الرواية زاخرة بمغامرات مختلفة من الخيال • وهى تحكى مغامرات عاشقين يهربان من بلادهما ، ويتعرضان لمغامرات مثيرة لينتهى بهما المقام فى روما حيث يتزوجان • وهذه القصة لا يقرأها اليوم الا المتخصصون الذين تعجبهم صفات الرواية القديمة •

أما رواية دون كيخوتى فهى أعظم عمل فنى فى الأدب الأسبانى • وقد أفردنا لنقدها بقية هذا الفصل الثالث من الباب الثانى •

(ب) فيض حماسى من التفسيرات

ترتبط شهرة ثربانتس بالاستقبال الحافل ، والترحيب المنقطع النظير الذى لاقته تحفته الأدبية دون كيخوتى منذ نشر الجزء الأول من هذه الرواية • ومازالت مغامرات « الفارس الحزين الطلعة » وسائسه الغليظ الحركة تلاقى الاعجاب والتقدير من قراء العالم أجمع لمدة ثلاثة قرون متصلة •

وكما يحدث بالنسبة للمؤلفات ذات الاهتمام العالمى صارت هذه التحفة موضع تفسيرات عديدة • وكانت كل حضارة تلتقى فيها بكل ماتبحث عنه • وهذا الفيض الحماسى من التفسيرات لم يتوقف منذ القرن السابع عشر حتى يومنا هذا • ومهما تغيرت الأذواق وتنوعت الأفكار فمن العسير أن نجد فى التاريخ حقبة لم تهتم بهذه التحفة • بل تحولت أهم شخصياتها مع مر السنين وكر الأعوام الى خرافات عالمية وصمدت أمام تجربة التفسيرات العديدة المتضاربة •

حازت هذه الرواية نجاحا ساحقا فى حياة مؤلفها ، وليس أدل على ذلك من تلك الطبعات الست عشرة التى ظهرت فى ذاك الوقت • وقد اعتبر هذا العمل أطرف قصة فى عصرها ، وأخذت شعبيتها تزداد فى اضطراد مستمر •

ومن الأقوال الأسبانية المأثورة عن دون كيخوتى انها قوبلت بالضحك فى القرن السابع عشر ، ثم بالابتسامات فى القرن الثامن عشر ، وبالدموع فى القرن التاسع عشر ، ويحتوى هذا القول رغم اقتضـــابه على بعض الحقيقة • اذ أن مضمون هذه الرواية لم يزدد عمقا الا بالتدريج ، ولم تظهر نفائس هذه الرواية الا مع مرور الزمن •

ويجدر بنا الآن أن نمضى فى رحلة عبر المراحل المختلفة التى مرت بها هذه الرواية التى خرجت من يد المؤلف لتسلك طريقا غير متوقع •

ـ ١ ـ

ملهـــاة المكتئبين

لاحظ أول قراء هذه الرواية ما أعلنه ثربانتس نفسه عما كان يريد ادخاله فى هذا العمل : نقد أدبى يسخر من هذا النوع الذى بدأ يأفل وهو روايات الفروسية • وفى نفس الوقت أراد المؤلف أن تكون روايته ملهاة للمكتئبين والغاضـــبين وتمدهم بالتسلية الطريفة والبريئة • وقد ســلك المؤلف المجهول ، الذى أكمل الجزء الأول من الرواية ، هذا الاتجاه •• فرأيناه يعطى لأبطال ثربانتس تفســـيرا كاريكاتوريا ، ويجعل من دون كيخوتى مجنونا مضحكا ومن سانشو مخلوقا بالغ الحقارة • ان ضيق العقلية البشرية فى دون كيخوتى لمؤلفه آبيانيدا تبين لنا كم كانت قراءة دون كيخوتى ، تحفة ثربانتس ، سطحية • لقد بدت مغامرات الفارس الحزين الطلعة كوميدية ومسلية قبل كل شىء • والدليل على ذلك اعدادها العقيم للمسرح الذى قام به جويين دى كاسترو (١٥٦٩ ـ ١٦٣١) وهو من أبناء بالانثيا • ولم يستطع المثقفون فى ذلك العصر ، ولا حتى الشعراء السمو والعلو والارتفاع عن هذا المستوى الظاهرى •وقد كتب لوبى دى بيجا يقول : « الأحمق فقط هو الذى يمتدح دون كيخوتى » •

ولكن فى مقابل ذلك نرى أن بساطة الرواية ووضـــوح اســـلوبها

وتوازنها المنسق أشاع شعبيتها بين الجماهير الأقل ثقافة · وفى هذا ما يفسر خلو الطبعات التى ظهرت من الحواشى والتعليقات · وقد تكون الأفكار والتعليقات التاريخية والعواطف واللغة التى تناولت كل ذلك من الوضوح بمكان بحيث لم تكن الرواية فى حاجة الى تفسير فى نظر قراء هذا العصر · ولم يكن الحال كذلك بالنسبه للأجيال التالية التى لم تدرك بعض المصطلحات والاشارة الى عادات وتقاليد او شـــخصيات طواها النسيان · ولذلك أضحت هناك حاجة الىضم ملحق تفسيرى مناســب للرواية ·

ـ ٢ ـ

الثأر من شـــارل الخامس

ان مشكلة تفسير رواية دون كيخوتى تفجرت فى اوروبا بمناسبة الترجمات الأولى لها ·

وفى البلاد التى كانت اسبانيا على علاقة مباشرة بها عرفت رواية دون كيخوتى منذ الربع الأول من القرن السابع عشر · ويرجع الاستقبال الذى قوبلت به فى فرنسا على اقل تقدير نتيجة للموقف المعادى لاسبانيا الناشىء عن ظروف سياسية · وقد اعتبرت شخصية دون كيخوتى تقليدا ساخرا حيا للمثاليات البطولية التى كانت سائدة فى عهد الامبراطورية · فأشبعت قراءة مغامرات هذا الفارس النبيل رغبة الانتقام فى نفوس أبناء عمومة هؤلاء الذين انتصر عليهم شـــارل الخامس · اذ وجد القراء الفرنسيون فى تفتت الأحلام التى تمجد الفروسية اشـــارة واضحة لنهاية فكرة العظمة والصمود الخرافية التى كانت سائدة منذ أكثر من قرن ·

ومهما يكن من أمر فقد أعتبر ثربانتس في فرنسا منذ القرن السابع عشر أحسن من مثل الفن القصصى الاسبانى ·

كهل وجندى ونبيل وفقير

وهناك قصـــة طـريفة نقلها ماركس دى توريس ناقد رواية دون كيخوتى والذى كان كاهنا فى حاشية كردينال توليدو تبرهن عن المكانة التى حققها ثربانتس فى فرنسا ، وفى حياته • كان ذلك فى أثناء المفاوضات الجارية بمناسبة حفلات الزواج الاسبانية التى ستجمع بين لويس الثالث عشر وان دوتريش (ابنة الملك فيليب الثالث) وكذلك زواج ايزابيل ابنة هنرى الرابع وفيليب الرابع •فقد توجه كاردينال ورئيس أساقفة توليدى مع حاشيته فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٦١٥ لرد زيارة سفير فرنسا الذى حضر خصيصا لابرام الزواج • ويقول الناقد والكاهن : « لقد اقترب منى بعض النبلاء الفرنسيين الذين كانوا فى حاشية السفير ومن أصدقائى يستفسرون عن الكتب التى كنا نوليها اهتماما خاصا • وما ان طرق مسامعهم اسم ثربانتس حتى أخذوا يذكرون المكانة المرموقة التى كانت تحظى بها مؤلفاته فى فرنسا وفى الدول المجاورة لها • وكان أحدهم يحفظ لاجالاتيا عن ظهر قلب تقريبا ، والقصص النموذجية • وقد بلغ مديحهم حدا جعلنى أعرض عليهم مصاحبتهم لمشاهدة مؤلف هذه الكتب ، فقوبل هذا العرض بحماس شديد ، وراحوا يسالوننى عن عمره ووظيفته وصفاته ومركزه ، فاضطررت أن أقول لهم انه عجوز وجندى ونبيل وفقير •• فقال أحدهم كيف لا تمنح أسبانيا الثراء لهذا الرجل ، وتجزل له العطاء مغدقة عليه من المال العام ؟! وانبرى آخر يقول : اذا كانت الحاجة قد دفعته الى الكتابة فقد شاءت الارادة الالهية الا يكون فى رغد من العيش حتى يغذى وهو الفقير العالم أجمع بمؤلفاته » •

ترى هل تم اللقاء المنشود ؟ لم يدل ثربانتس باية تفصيلات عن ذلك الا اذا أردنا تفسير ما ذكره ثربانتس فى مقدمة الجزء الثانى من روايته كاشارة لهذا اللقاء عندما قال ان دون كيخوتى كانت موضع التقدير فى الصين نفسها اذ كتب مايلى : « والذى أظهر أكبر رغبة فى مشاهدته هو امبراطور الصين العظيم ، ذلك أنه بعث الى قبل أقل من شهر برسالة عاجلة مع رسول خاص ، مكتوبة باللغة الصينية ، يطلب منى فيها ، أو بالأحرى يتوسل الى ، أن ابعث به اليه ، لأنه يود أن ينشىء كلية تدرس فيها اللغة الاسبانية ، وأن يكون النص المستخدم فى التعليم هو قصة دون كيخوتى » •

ـ ٤ ـ

الفرنسيون يبهرهم أسلوب الرواية

ان الأسلوب الروائي الذي كتبت به تحفة ثربانتس قد بهر الفرنسيين • وقد استعرض أونوريه دى أورفيه (١٥٦٧ ـ ١٦٢٥) هذا الأسلوب في روايته « آستريه » وهي رواية رعوية الا أن أهميتها ترجع الى أنها طورت تذوق التحليل الرقيق للمشاعر والأحاسيس الذي استوحاه مؤلفها من رواية دون كيخوتي • وكذلك شارل سوريل في روايته « الراعي الأخرق » التي ظهرت عام ١٦٢٧ •

وكان الكاتب المسرحي راسين (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) يحتفظ بالقصص النموذجية ، وبرواية دون كيخوتي في مكتبته •وأبدى الشاعر الفرنسي لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) ، الذي اشتهر بخرافاته ذات المغزى ، اعجابه بهذه المؤلفات • كما أخذت الكاتبة الفرنسية مدام دى سيفينييه (١٦٢٦ ـ ١٦٩٦) تقص الرواية على أصدقائها في احدى نزهاتها • وكان كثير من الفرنسيين قادرين على قراءة ثربانتس في النص الأصلي والحكم على مقدرة المترجمين • ومن الطريف أنأحسن ناقد في ذلك القرن، وهو سان افريمون (١٦١٦ ـ ١٧٠٣) كان يوقع على خطاباته التي يرسلها الى مدام دى مازاران بهذه الكلمات : « الفارس الحزين الطلعة » وكانت الدوقة تجيبه برسائل ممهورة بتوقيعها : « دولثينيا » • وكان سان افريمون يقول : « من بين الكتب التي قرأتها تمنيت أن أكون مؤلف كتاب دون كيخوتي » •

ووسط هذا المديح سنتوقف أمام الكاتب الفرنسي لى ساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧) مؤلف رواية « الشيطان الأعرج » ، والذي يدين بالكثير الى ثربانتس ، اجترأ على وضع دون كيخوتي المزيف ، والذي ترجمه للقارىء الفرنسي (١٧٠٤ ـ ١٧٠٧) قبل دون كيخوتي الحقيقي • الا أن فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) وهو من أعظم كتاب فرنسا ومن زعماء الفكر الحر، أعاد التوازن لميزان النقد عندما قارن رواية دون كيخوتي الأخيرة بالأوديسا •

الانجليز والرواية

بينما وجد قراء الدول اللاتينية فى رواية « دون كيخوتى » ملهاة لطيفة ، نجد أن النقاد الانجليز فى القرن الثامن عشر ، وكذلك نقاد المانيا قد نظروا الى الرواية نظرة أكثر جدية ٠

لقد انفعل الجمهور الانجليزى بهذه الرواية بحساسية أكبر حيث كانت هناك ظروف ملائمة فى الثقافة الانجليزية لتقبل رسالة ثربانتس ٠ ولكن هناك أسباب أخرى أسهمت فى الحكم السليم على هذه الرواية لاسيما حب التدقيق والبحث السيكولوجى الذى يتصف بالواقعية ٠ وانجلترا هى أول دولة تقوم بترجمة « دون كيخوتى » منذ عام ١٦١٢ ٠ كما يعود اليها الفضل فى محاولة التفسير الحرفى الدقيق لهذه الرواية

وفى عام ١٨٧١ قام كاتب انجليزى يدعى ج ٠ بول بتاليف كتاب قيم عن ثقافة ثربانتس الواسعة ، واستخرج منها تفسيرا علميا ذا صبغة أدبية وتاريخية ولغوية ، ولكن بقدر أقل لا يرقى الى مستوى رواية « دون كيخوتى » للمؤلف الأسبانى ٠

إن نشاط العلماء اللغويين فى القرن السابع عشر هو الذى دفع النقاد الأسبان الى وضع مذكرات تفسيرية ٠ كما تأثر كتاب الرواية الانجليز فى ذلك العصر بأسلوب ثربانتس ٠ فقد وجد دانيل ديفو ، مؤلف رواية روبنسون كروزو ، فى رواية دون كيخوتى نية مقصودة فى النقد الاجتماعى اللاذع ٠ كما نرى فى رواية « تريسترام شاندى » لمؤلفها لورنس ستيرن الكثير من الآثار الكيخوتية : الاجتماعات التى لا تنتهى ، ورحلات الفروسية ، والتخيلات الروكامبولية والوصف الدقيق للمشروعات الجنونية ٠ ولم يكن ستيرن هو الوحيد الذى أعاد شخصية « دون كيخوتى الشمال » بل قام توبياس سموليت بتقليد الرواية فى روايته « رودريك راندوم » التى نشرت فى عام ١٧٤٨ ٠ كما أن له رواية بعنوان : « مغمرات السير لونسيلوت جريفز » وهى قصة دون كيخوتى من القرن الثامن عشر ٠

وأخيرا قام هنرى فيلدنج بكتابة نص ساخر عنوانه : « دون كيخوتى فى انجلترا » ٠

ـ ٦ ـ

الركض وراء النوايا الخفية والمقاصد السرية

ظلت رواية دون كيخوتى هى القراءة المفضلة لدى جمهور أسبانى كبير طوال القرن الثامن عشر · ولكن بتأثير فلسفة التنوير التى جاءتهم من فرنسا فسرت الرواية على أنها نقد لاذع وأن مؤلفها كانت له نوايا خفية ومقاصد سرية ذات صبغة سياسية واجتماعية ·

وكلما أتيحت ظروف النشر كانوا يحاولون الكشف عن الأسباب الحقيقية التى دفعت ثربانتس الى كتابة الرواية ·ومن هنا بدأت الحقبة الطويلة التى يمكن تسميتها بالجرى وراء نوايا المؤلف الخفية · فنحو عام ١٧٨٠ قام الناقد بيثنتى دى لوس ريوس بالسير فى هذا الاتجاه ، وحول الصورة الانسانية الواسعة التى تتضمنها الرواية الى مجموعة من التلميحات والاشارات الى شخصيات وأحداث وقعت فى القرن السادس عشر · ولم يتردد فى ذكر تلميحات دقيقة تشير الى الامبراطور شارل الخامس وللدوق دى ليرما والى عظماء آخرين عاشوا فى هذا العصر · ولاثبات رؤيته هذه يؤكد الناقد وجود تكملة لدون كيخوتى هى البوسكابيبه (أو بالون التجربة) أماط فيها المؤلف (يقصد ثربانتس) فى أواخر حياته اللثام عن مفاتيح هذه الايام القديمة ، مزيحا النقاب عن خفايا روايته ·

ومن أغرب ماحدث عام ١٨٤٨ أن أدولفو دى كاسترو ادعى أنه عثر على البوسكابيبه فأثار عندما نشره معركة نقدية عنيفة ظلت حامية الوطيس حتى اللحظة التى افتضح فيها هذا التلاعب والادعاء ·

وظل أتباع ثربانتس فى أسبانيا ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يسيرون طويلا فى هذا الطريق الذى اختطه النقد الرمزى وستعتبر رواية دون كيخوتى سيرة ذاتية عن حياة ثربانتس متسربلة بالرمزية قصد هجاء وفضح العديد من مختلف الشخصيات · وقد شمر احد النقاد عن ساعد الجد والاجتهاد بحثا عن العلاقة بين حياة المؤلف وبعض مغامرات الفارس الحزين الطلعة · وكذلك تناول أسماء الشخصيات سعيا وراء التغييرات التى اجريت فى ترتيب أحرف تلك الأسماء لعله يكتشف اسما مستترا ومحجوبا · وراح تابع آخر من أتباع ثربانتس يحاول اثبات أن المؤلف عندما كتب دون كيخوتى كان مدفوعا برغبة لتخليص مجتمعه فى ذلك العصر من عيوبه وآفاته ونقائصه محاولا تصحيح مساوئه وأخطائه ، وأن يبنى مجتمعا آخر ·

وهناك رؤية أخرى كاثوليكية لهذه القضية بطلها ميجل كورتاثبرو

فى كتابه « ثربانتس والانجيل » وفيه يريد أن يرى فى بطل لامانتشا صورة تحيط بها هالة من القداسة ، ويختتم كتابه معلنا ضرورة تفسير دون كيخوتى من منطلق الانجيل ٠

وكان رد الفعل لكل هذه التفسيرات والاتجاهات أن تكونت فى أسبانيا ذاتها مجموعة قوية من الشراح المدققين المتمكنين راسخى الأقدام وقد فضل هؤلاء العلماء البحث من النواحى التاريخية والسيرة الذاتية واللغوية بدلا من التفسيرات الاعتباطية التى قد لا تخلو من تعسف وجموح فى الخيال ٠

ـ ٧ ـ

هوميروس الجديد كما يراه الرومانتيكيون

يرجع الفضل الى الرومانتيكيين الألمان فى ايجاد التفسير الجاد لتحفة ثربانتس التى رأوا فيها أنموذجا للرواية الحديثة أو على الأقل مؤلفا يفى بالتزامات الفن القصصى فى القرن التاسع عشر ٠ فقد اكتشفوا فيها عرضا مكتملا ومتوازنا للاتجاهات المتعارضة التى تشغل العقل البشرى ، وبهذا تصبح مغامرات فارس دى لامانتشا ذات مغزى عميق ٠

ويعود الفضل الى الفيلسوف الألمانى شيلينج (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) الذى وجد أن ثربانتس قد نجح فى تحويل رواية الى صورة عامة وجميلة للحياة ٠ ولولا عبقريته هذه لأصبحت هذه الرواية مدعاة للنقد الساخر لنوع معين من الجنون ٠ ولذلك فهو يعتبر دون كيخوتى النموذج الكامل للرواية ويدعو الى ضرورة اتباع قواعد تأليفها على أن نأخذ فى الاعتبار فيما يختص بالموضوع حقيقة القرن التاسع عشر ٠

ويعتبر شيلينج أن ثربانتس أكبر عبقرية أنجبتها الحضارة الأوروبية ٠٠ وأن تأثير تحفته الشعرية لا يمكن أن تقارن الا بتأثير هوميروس بالنسبة للحضارة الكلاسيكية ٠ فرواية دون كيخوتى فى نظره تجمع بفضل مافيها من حساسية فنية حديثة ، بين النوع الملحمى والنوع الدرامى فدون كيخوتى ليست فقط رواية عظيمة فحسب ، انما هى الرواية بمعنى الكلمة فى براعتها وشفوفها ٠

ويؤكد الكاتب فيلهلم فون شليجل (١٧٦٧ ـ ١٨٤٥) على المعنى الرمزى للرواية التى تعبر عن الصراع الأزلى بين الشعر والنثر فى الوجود الانسانى ٠

- ٨ -

ادخـــال الشـــعب فى الرواية

وقد رأى الشاعر الألمانى هينريش هاينى (١٧٩٧ ــ ١٨٥٦) أن رواية دون كيخوتى قد أدخلت الشـــعب وقدمته فى ثناياها ، وكان هذا بالتالى بدء الأدب الحديث ·

ومن ثم نجد أنه فى القرن التاسع عشر استرعت الرواية انتباه أكبر شـــعراء وكتاب أوروبا واســتلفتت أنظارهم · وبالمثل يتغلغل تأثيرها فى فرنسا · وقد أصر شاتوبريان ·· أحد رواد الحركة الرومانتيكية الفرنسية عند زيارته لاسبانيا أن يتجول فى اقليم المانتشا الشـــهير ، وكان دون كيخوتى بالنسبة اليه « آخر الفرسان » · ونراه يقول « لقد بلغت الموهبة حدا أن جعلت من النقد اللاذع للفروسية اطراء ومدحا خالدا لأخلاقيات وفضائل وآداب الفروسية فى العصور الوسطى » ·

أما الروائى الفرنسى ستندال (١٧٨٣ ــ ١٨٤٢) فقد قرأ دون كيخوتى وهو فى العاشرة من عمره ، وكان يكتم ضحكاته خوفا من أن ينتزع والده المتزمت الرواية منه · وفى سن الثالثة والخمسين كان يريد أن ينسى ، فى كل شهر ، كبرى أعمال ثربانتس حتى يجد لذة فى اعادة اكتشافها ·

وعرف الناقد الفرنسى الكبير سانت بيف (١٨٠٤ ــ ١٨٦٩) كيف يستخرج ما أتى به الكاتب من جديد وأساسى · فأشار الى الفكر المحص الحر الذى أوحى به المؤلف الأسبانى ، والذى نجده منعكسا فى نفســـية البطل الرئيسى ·

ويقول فيكتور هيجو (١٨٠٢ ــ ١٨٨٥) : « يجب معرفة قراءة كتب القرن السادس عشر · ففى أغلبها ، بسبب ما تتعرض له حـــرية الفكر فى ثناياها من تحذيرات وتهديدات ، يوجد سر يجب الكشـــف عنه ومفتاحه غالبا مايكون مفقودا » ·

ويعلق الروائى الفرنسى جوستاف فلوبير (١٨٢١ ــ ١٨٨٠) على رواية دون كيخوتى بهذه الكلمات : « ياللكتب الضخمة أنها تكبر كلما تأملناها مثل جبال البرانس وينتهى بنا الأمر بأن نخشاها » ·

وكتب الشاعر والروائى والناقد تيوفيل جوتييه (١٨١١ ــ ١٨٧٢) عندعودته من احدى الرحلات : « لا يمكن أن نخطو خطوة فى أسبانيا دون أن نجد ذكرى دون كيخوتى ، فرواية ثربانتس قومية بصورة عميقة ،

وشخصيتا دون كيخوتى وسانشو يلخصان السمات الأسـبانية : تعظيم وتمجيد الفروسـية وروح المغامرة التى يجمعها رهافة الحس والذكاء والفكر العملى السليم ونوع من البساطة والبشـاشة التى تفيض رقة ولطفا مع القدرة على القول اللاذع » •

وقد حاول جوتييه والناقد جيوم دى هامبولت أن يبينا قيمة الرواية من الوجهة التاريخية فقد وجدا فيها قمة السمات الاسبانية فى عصـر النهضة التى تتصف بحب المغامرة والفروسية ، ولكنها سـمات تتحلى بالفكر العملى وبالسخرية الخصبة •

وبالنسبة لاميل مونتيجو (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥) وهو ناقد آخر فى ذلك العصر ، نجده يرى أن ثربانتس يمتاز بالرمزية التى تسيطر عليه •• فقد رسم صورة لاسبانيا فى عصره •• اسـبانيا بايمانها الرهيب •• التى تطغى عليها محـاكم التفتيش والتى هزمهـا البحـارة الانجـليز ، والهولنديون •

وقد اوحت رواية ثربانتس للفيلسوف الفرنسى أوجسـت كونت مؤسس الايجابية الفرنسية بعض الانعكاسـات الهامة عن أهمية الفكر والروح البطولية فى كل مجتمع • وعند ملاحظته للأوجه الايجابية لظاهرة الفروسية تمنى كونت بناء ما أسماه « الفروسية الصناعية » لكى نعطى لعصرنا قيما بدونها لا يمكن للبشرية أن يكون لها أبعاد ذات قيمة •

ومن ديكنز الى فلوبير ، ومن تولستوى الى ستندال ودوستويفسكى كثر روائيو القرن الماضى الذين وجدوا فى دون كيخوتى منبعا للوحى •

ـ ٩ ـ

دون كيخوتى فى ملابس نسائية ، وملامح الأسطورة فى أشكال أخرى

وقصة « مدام بوفارى » التى كتبها فلوبير هى أحد البراهين على مدى تأثير رواية « دون كيخوتى » فى الأدب كما ذكرنا سـابقا • وقد اعتبرها خوسيه اورتيجا جاست تجسيدا نسائيا للأسطورة الكيخوتية فى العصور الحديثة •

وقدعثرت على رواية بعنوان : « الكيخوتى الأنثى أو مغـــامرات آرابيلا » حيث كتبتها مؤلفتها شارلوت ليذوكس عام ١٧٥٢ كتقليد لرواية دون كيخوتى .

كما أن هناك ملامح لنفس هذه الأسطورة فى أشكال متعددة فى رواية « تارتاران التاراســـكونى » للكاتب الفرنسى ألفونس دوديه (١٨٤٠ ـ ١٨٩٧) أو فى رواية « بيكويك » لديكنز ، كما لا ننسى رواية « العبيط » لدستويفسكى (١٨٢١ ـ ١٨٨١) وهى الصورة الأكثر تجسيدا للأسطورة فى الأدب الروسى كله . وقد أعطت الملنخولية أو الانقباضية الملحمية لدون كيخوتى الفرصة للروائيين الروس للتأملات العميقة .

وقد حاول الكاتب ذو الاحســـاس المرهف تورجنيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) أن يرسم بكل دقة الملامح الانسانية لبطل دى لامانتشا فى مقال بعنوان : « هاملت ودون كيخوتى » حيث يضع هاتين الشخصيتين اللتين عاصرتا نهاية عصر النهضة الأوروبية وجها لوجه فيخرج من هذا الى ما تحتويه شخصية دون كيخوتى من ثروة انسانية .

فدون كيخوتى يجسد بالنسبة لتورجنيف مشكلة الايمان .. الايمان بشىء أزلى لا يتغير ، ووجودها مرتبط بالصراع الكريم فى سبيل نصرة الحق والعدل على وجه الأرض . وعلى خلاف هاملت الذى يضع نفسه فى مركز العالم لا نجد فى شخصية دون كيخوتى أى أثر للأنانية والغرور، فالشخصية كلها عامرة بانكار الذات والتضحية .

ومن الأشياء المؤثرة فى هذا المقال الفريد هو اعادة تقييم شخصية سانتشو بجانب البطل الرئيسى . ان القيمة الأساسية لهذا السائس هى اخلاصه المطلق وهذا الاخلاص نابع من الصفة العظيمة التى يتصف بها الشعب باعتناق كل هدف نبيل وسام .

وقبل أن نترك هؤلاء الكتاب الروس الكبار يجدر بنا أن نتذكر أنه عندما طلب بوشكين (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧) من جوجول (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢) أن يكتب « النفوس الميتة » اقترح عليه أن يخلق دون كيخوتى روسى . وقبل أن يمسك جوجول بالقلم أخذ يعيد قراءة الأوديسا بصوت عال ودون كيخوتى فى نص مترجم الى الفرنسية . أليس بطل قصة « المعطف » انما هو دون كيخوتى بأسلوبه وتصرفاته أكثر انسحاقا .

ومن بين المؤثرات التى أثرت بها رواية ثربانتس فى القرن الماضى يجدر بنا أن نذكر تأثيرها على الفنون التشكيلية ذلك الذى سنفرد له كتابا بأكمله . وتحتل فرنسا فى هذا المجال مكانا مرموقا بأعمال جوســـتاف دوريه وأونوريه دوميه . وقد زار الأول أسبانيا لفترة طويلة قبل أن يبدأ عمله .

كما أعدت الموسيقى تبعا للعصور المختلفة الموضوعات المستوحاة من رواية ثربانتس التى يتطلبها التاليف الموسيقى كالمؤلف المتكامل لماسينيه ، والقصيد السيمفونى لريتشارد شتراوس ، ورقصات الباليه الرقيقة التى صممها مانويل دى فايا ٠

وقد توالت العروض الأوبرالية فى مختلف العواصم العالمية ومنها :

* أوبرا ألمانية عن دون كيخوتى وضع موسيقاها جان فيليبى فروتش عام ١٦٩٠ ٠

* أوبرا انجليزية عن دون كيخوتى وضع موسيقاها بورسيل عام ١٦٩٤ ٠

* أوبرا ايطالية بعنوان : « دون كيشوته فى بلاط الدوقة » وضع موسيقاها كالدارا عام ١٧٢٧ وعرضت فى فيينا ٠

* كوميديا من فصل واحد بعنوان : « سانتشو باثنا فى جزيرته » وضع موسيقاها فيليدور عام ١٧٦٢ وعرضت فى ايطاليا ٠

* أوبرا ايطالية بعنوان : « دون كيشوته » وضع موسيقاها بيتشينى وعرضت فى نابولى ٠

* أوبرا ايطالية بعنوان : دون كيشوته » وضع موسيقاها تاركى عام ١٧٩١ وعرضت فى باريس ٠

* أوبرا بعنوان : « دون كيشوته » وضع موسيقاها جارثيا عام ١٨٢٧ وعرضت فى نيويورك ٠

ونود أن نشير أيضا الى تأثير رواية دون كيخوتى فى الأدب المسرحى حيث استلهمها العديد من الكتاب فى أعمالهم ، ومنهم الكاتب الأسبانى خاثنتو بنابنتى فى مسرحية « خالقو المصالح » التى عرضت فى القاهرة عام ١٩٧٤ ٠ وقد استمد مؤلفها فكرتها الى حد ما من رواية دون كيخوتى لثربانتس حيث نجد صراعا بين المثالية التى يمثلها لياندرو والواقعية التى يمثلها تابعه كريسبين ٠ بيد أننا نجد التابع يتألق نجمه ويتفوق على الفارس٠ فلياندرو فارس عصرى، ليست رومانسية الفروسية بالنسبة اليه الا أصداء باهتة من الماضى ، ولا تمثل حقائق حية كما كان الحال بالنسبة الى دون كيخوتى ٠٠ الفارس الحزين الطلعة ٠ وكذلك كريسبين فهو أيضا سانتشو بانثا عصرى فقد كثيرا من بشره ومرحه فى ثنايا العنف والقلق والتمزق والضياع الذى يعيشه الانسان وسط حضارة القرن العشرين ٠ ولكن طموحه فاق طموح سيده ٠

وهناك مسرحية غنائية « خرافة » لمؤلفها بويرو باييخو وفيها أيضا فكرة الصراع بين المثالية والواقعية مستلهما شخصية دون كيخوتى وتابعه سانتشو ٠ وقد عرضت فى القاهرة عام ١٩٧٥ بعنوان « دون كيشوت » ٠

وقصتها تدور عن مغن مغمور فى فرقة أوبرا يدعى ايلوى يشعر بالظلم وانه لم يأخذ حقه مثل رودولفو المغنى الأول للفرقة الذى منحته الدولة وسامين عن تمثيله الغنائى ، فيختبل عقل ايلوى ويعيش فى أوهام وخيالات تصور له أن أهل المريخ سيزورون كوكبنا الأرضى فى أطباقهم الطائرة ليرفعوا الظلم ويقيموا العدل والحرية بين الناس • ويسخر باقى الممثلين منه ولايتعاطف معه سوى الممثل « سيمون » الذى يتقمص شخصية سانتشو بانثا • غير أن ايلوى انسان سلبى يقف مكتوف اليدين مستسلما لأوهامه وخيالاته منتظرا زيارة رجال كوكب المريخ لاقامة العدل ورفع الظلم • فأين هذا من دون كيخوتى لثربانتس الذى حمل رمحه وترسه ومضى على صهوة جواده يدافع عن الحق بقوة ذراعه •

*

وبينما لم ينقطع تأثير رواية « دون كيخوتى » عن الانتشار فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، فان النقد العلمى استمر فى تحقيقاته الدقيقة حولها • فقد تناولت الأبحاث الرواية ومؤلفها من زاوية علم اللاهوت ، والموسيقى ، وعلم الاجتماع ، والطب • ويستوقفنا فى هذا المجال الأخير أن الطب وصل الى استنتاج أن الشخصية كان يعتريها جنون زائف • وبعض الأبحاث نراها فى تحليلها تعتبر أن ثربانتس كان متدينا ، وتارة أخرى تعتبره معارضا للاكليروس • وبالنسبة للبعض تحتوى الرواية على بذور ليبرالية ، وبالنسبة للبعض الآخر تحتوى على ميول رجعية •

— ١٠ —

قلق باروكى تحت ستار المرح

تحتل رواية ثربانتس منذ بداية القرن العشرين مكانا مرموقا فى النشاط النقدى والأدبى فى العالم أجمع •

ان الذين ينتمون الى ماسمى فيما بعد بجيل ٩٨ (وهو جيل عميق الاحساس بكارثة عام ١٨٩٨ الذى انهزمت فيه الامبراطورية الأسبانية امام الولايات المتحدة وفقدت ماتبقى لها من مستعمرات) والذين كانوا من اشهر شعراء ومفكرى أسبانيا الحديثة احتفلوا بدون كيخوتى بحماس متجدد مكتشفين فى الرواية أساس وحيهم والهامهم •

لقد بين أونامونو فى كتابه الشــــهير عن « حيـــاة دون كيخوتى وسانتشو » البطلين وهما يتماسكان مع الحقيقة ، يدفع أحدهما التعطش الأبدى للمجد والخلود الذى يســـكن فى داخله ، ويدفع الآخر الاخلاص البسيط ، الذى يكاد يكون حيوانيا نحو المثالى الكبير ٠

ويرى أونامونو أن موت دون كيخوتى هو تتويج للرواية ، ويعبر عن الانتقال النهائى من المثالية البطولية الى الايمان بحياة فوق أرضية ٠ انه ليس استسلاما ولكنه احلال مثالية أكثر دواما محل مثالية خيالية وهمية ٠ وبقلم الكاتب العصرى الكبير تأخذ صــــورة الفارس المتجول وسائسه أبعادا خرافية كبيرة ٠ وينطلق الاثنان يتجولان على غرار أبطال العهد القديم الى نبع لا ينضب من السلوى ومن التجدد الأخلاقى ٠

ويقول الكاتب الصحفى راميرو دى مائئتو ان تحليل دون كيخوتى وتحليل ثربانتس ورفاقه يدل على أن التعاليم التى يستقيها الشعب من هذا الكتاب ليست غير معقولة ، لأن قراءة دون كيخوتى تعزى أسبانيا فى مصائبها وتغسل رءوسها من الأوهام ، ولأن ماهدف اليه ثربانتس فى كتابه أن يعزى نفسه ويضحكنا من ويلاته التى كان يعتبرها قد تولدت من أحلام فاقت الحد ، ولأن أسبانيا فى تلك الساعة كانت متعبة بسبب الأعمال البطولية الفذة والشاقة فى القرن السابق ، فقد كانت الشـــعوب الاسبانية تحارب فى جميع أنحاء العالم ، فكان صراعا يفوق قواها لم ننتصر فيه الا نصف انتصار ، وقد وجدت أسبانيا فى دون كيخوتى الايحاء الذى تحتاج اليه للشفاء والراحة اللازمين لروحها ولجسدها ٠ ويصف ثربانتس لنا هذه الخاتمة الملحمة أسبانيا بطريقة رمزية بوساطة شبحين كان ينبض فيهما قلب ذلك العصر الذى فك عنه السحر ، ويجب أن ننظر الى دون كيخوتى بمنظار القرن السادس عشر لرؤية عظمته الحماسية ولنجذب أنفسنا ايحاء يأس الكتاب وقنوطه ٠

ويقول الكاتب والفيلسوف الاســـبانى خوسيه أورتيجا جاسيت ان ثربانتس يؤكد أنه ألف كتابه ضد الفروسية ، ولكن فى الأزمنة الحديثة لم يعد يلتفت فى مجال النقد الى ما قاله ثربانتس والى هدفه من وراء هذا القول ٠ وقد يظن أن كلامه هذا ما هو الا أسلوب من أساليب الكلام ، وما هو الا مقدمة معادة مقلدة يقدم بها كتابه ٠ وهذا هو ماحدث عندما أطلق على مجموعة قصصه القصيرة لفظ نموذجية أو مثالية ٠

من هو دون كيخوتى ؟ وماذا نعلم عما يرغب أن يوحيه الينا من الحياة ؟ فالأنوار الضئيلة التى سلطت عليه جاءت من أقوام من الخارج أمثال شيلينج ، وهاينى ، وتورجنيف ، وتلك كانت أضواء وقتية وغير كافية ، اذ لم يكونوا ينظرون الى دون كيخوتى كمسألة مصيرية كما هى فى نظرنا ٠

ولا يوجد أى كتاب له قوة التلميح الرمزى للمعنى الشامل للحياة أعظم من هذا الكتاب ·· وعندما يجتمع بعض الاسبان المتاثرين من بؤس ماضيهم تحل بينهم روح دون كيخوتى فتوحد الحرارة المذابة فى شخصيته الغريبة بين تلك القلوب المتفـــرقة وتدخلها فى خيط روحى كحبات عقـد وتسكب فيها مشاعر الوطنية ،وتضع وراء مرارة شخصياتها ألما وطنيا مشــــــتركا ·

ان الواقع فى حد ذاته مناقض للشعر ، واذا لم توفق جولات دون كيخوتى وتحركاته الكثيرة الى ارشادنا الى أى من الجهتين نضع الفارس فاننا نجانب الصـــواب اذا ملنا الى ناحية دون الأخرى ، اذ أن دون كيخوتى هو الخط الفاصل بين هذين العالمين ·

ولا يجب أن نغضب اذا قيل لنا ان دون كيخوتى واقعى اذ علينا فقط أن نأخذ بعين الاعتبار أن اردة دون كيخوتى التى لا تتزعزع أصـــبحت تشكل معه قسما من الواقع · وهذه الارادة كان يملؤها عزم ثابت أكيد وهو أنه لابد من المغامرة · فدون كيخوتى الواقعى يرغب رغبة أكيدة فى المغامرات ، كما يقول بنفسه : « قد يستطيع الرقاة والسحرة أن يحولوا بينى وبين المغامرة ، ولكن يستحيل عليهم أن ينتزعوا منى القدرة الفائقة ورباطة الجاش » ·

وهكذا فان الواقعية نفذت فى مضمون الشعر لكى تسمو بالمغامرة الى مقدرة جمالية أكثر سموا من الشعر خاليا من الواقعية · فالواقعية تتفتح لكى تســـتوعب العالم الوهمى ولكى تكون لهذا العالم ســـندا ومرتكزا ·

وقد ذكر الكاتب والروائى خوسيه مارتينيث رويث الشهير باسمه المستعار آثورين أن قيمة هذه الرواية قد تزايدت بسبب الاضافات المتتابعة من تعليقات القراء عليها لدرجة أنها مازالت تقدم امكانية تكوين رأى يتفق مع التزامات كل عصر وكل ثقافة ·

وفى بحث رئيسى وهام لجيلنا الحاضر وعنوانه « فكر ثربانتس » (١٩٢٥) درس أمريكو كاسترو بتعمق الوجه الايديولوجى للرواية يعتبر اعلانا عن الحساسية الاسبانية ورقة شعورها فى عصرنا ·

وهكذا احتلت رواية دون كيخوتى مكانها فى الواقع الثقافى الحديث، وهى منتج من نتاج صهر جميع التقاليد القشتالية ، واتخذت مكانها عند تلاقى التيـــارين الواقعى والمثالى ، وظهرت فى الفترة الدرامية للتدهور السياسى والعسكرى الذى عانت منه اسبانيا ·

ويبدو أن ثربانتس قد عرف ببصره الثاقب الأزمة الحقيقية التى

كان المجتمع يمر بها فى عصره ، وعرف كيف يعبر عن القلق النفسى تحت ستار المرح الذى يسبق القلق الباروكى .

وبفضل ماقام به الكتاب والمؤرخون والنقاد من اعادة تنظيم الجو النفسى والروحى الذى صيغت فيه رواية دون كيخوتى اكتسبت الرواية أبعادا واضحة ، وأصبح القارىء الحديث يستطيع أن يقدر الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

— ١١ —

دون كيخوتى كما نراه اليوم

ما أقل الشخصيات التى جسدت دراما مجتمع قلق خائف غير مستقر ، ودائم البحث عن القيم مثل بطل ثربانتس .

لقد وجدت عصور بدا للانسانية ، فى الطبقات المثقفة على الأقل ، أنها وجدت حلا للصراع الأبدى بين المثالية والواقعية ، بين الخبز والورود ، بين ما يلمس بالأصبع وما يكتب له الخلود بعد الفناء .

وقد وجدت العصور الوسطى وعلى طريقتها الخاصة حلا للمشكلة بايمانها فيما وراء الطبيعة ، وأما الباقى فهو الشر أو الخطيئة دون أدنى تمييز ..

ووجد المذهب الانسانى فيما بعد حلولا أخرى فى طريق مضاد يصبح فيه الانسان محور ومقياس كل شىء .

واعتقدت بعد ذلك فلسفة التنوير أنها وجدت سر التوازن فى ممارسة الفكر .

ثم جاءت الفلسفة الايجابية المتفائلة التى وجدت فى العلم سلاحا لا يخطىء لضمان الحرية الذاتية للانسان الذى تخلص أخيرا من هذه الثنائية المزعجة : النفس والجسد أو المثالية والواقعية . وكما نرى هناك عصور بنيت على تأكيدات أو على الأقل على اعتقاد بأنها تمتلك أوهاما .

وقبل هذه الفترات المضيئة وبعدها نكتشـــف مناطق ظلال يملؤها القلق من كل نوع ، يقع فيها الضمير الانسانى فريسة للشك ، ويعتبر عصرنا الحالى عصر الأزمة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان • ومن بين المتناقضات المتعددة التى تحاصر العالم الحديث تظهر مرة أخرى تلك الثنائية : المثالية والواقعية • ونتساءل كل يوم : الى أى حد حضارة حياة الرفاهية الرغدة تكفى انســـان اليوم ؟ والى أى مدى تظل عنده الحاجة الى اللامحدودية والخلود الأبدى ؟ يبدو أننا نعود دائما الى هذا الموضوع الأساسى : موضوع الانسان وحدود الانسان وأسباب صراعه •

ان الأحاديث التى يتبادلها دون كيخوتى وســـانتشو توضح جيدا تمردنا على الذين يريدون احتجازنا داخل واقعية تحدها أبعاد الأشياء المادية •

وهاهو ذا دون كيخوتى يصيح دائما أمام طواحين الهواء أنها عمالقة صانعا منها أعداء كما صورتها له مثاليته ، ولكن سانتشو ، وهو الرجل الذى يرى الأشياء كما هى يؤكد له انها طواحين هواء • فهو اذن على حق ، ومع ذلك فاننا نفضل عليه الآخر •• الشاعر المجنون الذى يواجه العمالقة طالبا فى السر مساعدة حبيبته دولثينيا • انه دون كيخوتى الذى يلازمنا كلما وجدنا الواقع هزيلا أمام أحلامنا • وهو الذى ينعكس فيه تعطشـــنا الى الجمال فى عالم يبدو أنه يجهل هذا التعطش وهذه الرغبة الكامنة فينا • وهو الذى يصاحبنا عندما تراودنا الفكرة بأن آبار البترول وأحواض السباحة الرخامية لا تكفى لصنع الانسان • وهو أيضا الذى يحول لنا أصحاب الفنادق المتواضعة الى ساكنى قصـــور ، والفنادق نفسها الى قصور ، والأراضى الجرداء الى واحات تكسوها الخضــرة اليانعة •

ان الفارس وسائسه هما مرايا حية لصراعنا اليومى أمام عالم يزداد اضطرابا يوما بعد يوم • وهناك فى رواية دون كيخوتى موضوع آخر عزيز على انسان الجيل الحاضر وهو الاعتراض •

ولما كان ثربانتس يعتنق مذهب تحطيم التماثيل الدينية أو مقاومة تقديسها ، فانه كان يهدف الى هدم الأصـــنام والنظم الاجتماعية التى لا فائدة منها ، والتى تقيد الانسان أو تثقل كاهله • ان سخريته اللاذعة تتناول بقايا عالم فروسى كان عظيما فيما مضى ثم أصبح الآن مجرد خيال ، وتفردت عبقرية ثربانتس فى أنه جمع فى شخصية واحدة تبحث عن العظمة الحقيقية كل الهواجس العصـــرية ، وكل التطلعات نحو هدم الايديولوجيات القـــديمة التى عفا عليها الزمن ، والعرف والمظـــاهر والأمجاد الزائفة ، حتى يبنى مكانها عالما يسود فيه الحب والشـــعر والنبالة الساعية فى خير الانسانية •

فاذا نزعنا من دون كيخوتى كل مايتحلى به من ملابس القـــرن السادس عشر ، فلن يتبقى من الفارس الدامى الجسد مما أصابه من ضربات على طرق لامانتشا الا صرخة اعتراض حية ومؤلمة ضد تفاهة العالم وعبثه ٠

ومهما بحثنا فى ماتنتهى اليه هذه الاعتراضات ، وهذه الاحلام ، فلن نجد حكمة أو خاتمة محددة أو نوعا من الحلول ٠ ويجتهد ثربانتس بكل السبل الممكنة أن يعيد بناء الانسان من الأجزاء المتألمة من بطله الذى أثخنته الجراح ٠

ولكن ليســـت هناك تذكرة طبية تحوى تركيبات معينة لمثل هذه العملية التى تشبه العمليات الكيميائية ٠ ويبدو أن المؤلف كان مقتنعا بذلك لدرجة أنه يفضل أن يقذف بفارسه من الحلم الى النوم الأبدى بدلا من أن يرغمه على الحياة فى عالم يريد أن يسود فيه هؤلاء الذين يدعون أن عندهم حلولا حسب المقاس لكل التساؤلات ٠ فدون كيخوتى لا يعرف الا أمله الشخصى ، وطريقه الخاص ٠ وهو يجهل أين يتجه حتى أنه عندما تسلح وامتطى ظهر جواده روسينانتى ترك له العنان فلم يكن يعرف الى أين يمضى ٠ وحيث أن ثربانتس ليست لديه حلولا فلم يستطع أن يقترح حلولا ٠ وربما جاءت صفة العصرية هذه من أعراض تلك الأزمة ٠

فهو مؤلف عصرى ، ليس فقط بموضوعيته المجردة ، ولكن أيضـــا بأسلوبه ٠ فليس من المعتاد أن نجد أنفسنا دفعة واحدة وعلى مستوى واحد مع مؤلف من القرن الســــادس عشر ، لاتبعدنا عنه لا اللغة ولا الأسلوب ولاحذلقة فى استعمال التعبيرات المتقعرة والكلمات المهجورة من التى كانت مستخدمة عند القدماء رغم جمالها ورسوخها التقليدى فنراه مثلا يكتب : « أشـــرقت الشمس » بدلا من الجملة التقليدية المعتادة : « جذب فيبو عنان جواد مركبته النارية » ٠ (وفيبو فى الاســـــبانية هو الاسم الخرافى للشمس) ٠

اضف الى ذلك أن القارىء الحديث متعود على نغمة معينة ، ونوع معين من السخرية ، والصدق فى التعبير عن الأحاسيس والعواطف من خلال التجربة بلا اسراف ، ورفض أســـاليب البلاغة والكلام المزخرف المتصنع المنمق، والمصطلحات الرنانة ٠ ان هذا النوع من العرض أفضى الى استبعاد عدد لا يستهان به من الأعمال القديمة ٠

ومن النادر ، حتى فى أيامنا هذه ، أن نجد نثرا بمثل هذا الصدق ، وهذه اللغة التى تخضع دائما لسيطرة المؤلف ، واستعمال هذا الأسلوب الهزلى المرح بمثل هذا الحذق والتفرد الذى جعل من ثربانتس ، مؤلف دون كيخوتى ، عصريا الى الأبد ٠

« كان ضـــامر الجسم ، نحيف الوجه ، يصحو مبكرا ، مولعـــا بالصيد » · تلك هى الصورة المقتضبة التى رسمها المؤلف فى بدء روايته لبطله دون كيخوتى والتى تمكننا من تخيله ·

ان تجريد الملامح ورقة اللمسات من شأنها التقريب بينها وبين أفضل الأعمال الابداعية الحالية · وماذا نقول عن اللوحـــات التى تجمع بين الملحمية والكوميدية لبطلنا ·· انهالوحات باقية فى جميع الأذهان ، ولن تبلى من ذاكرة الأجيال ·

بعض الناس الذين ولدوا بالأمس يبدون لنا وكأن عمرهم خمسة قرون ، أما دون كيخوتى فانه يحتفظ بالشباب لدرجة أنه بمجرد ظهوره نبتسم ونتأثر حتى يخيـــل الينا كأننا نحن الذين خلقناه ، مع اعتذارنا لثربانتس ·

وفى ختام هذا نترك الكلمة لأحد كبار المتخصصين الفرنســيين فى الثقافة الاسبانية ، فقد قال جان كاسو فى مقدمة طبعة لابلياد : « أن دون كيخوتى لا يهم فقط اســبانيا والذين يبحثون فيه عن أســاس العقلية الاسبانية فحسب ، بل انه يعتبر أحد التواريخ الهامة بالنســبة للعالم الغربى : أصل الفكر المعاصر ، والتمرد فى عالم منظم ومقاطعته ، وتجريد العالم من الأساطير الخرافية · بيد أنه بعد نشر ما كتبه مونتانى وعنوانه: « مقالات مونتانى » ظهرت عزلة الانســـان · الا أنه من خـلال مقالات مونتانى هذه يبدو الأمر أكثر وضوحا ، فهذه العزلة تسمح بتجميع أحسن المواهب وأكثرها كفاءة اجتماعية التى ينبض بها القلب البشرى · فمهما كانت هذه الرواية محزنة ومؤلمة ، فانها تفيض بالمحبة ، وتشع ضـــوءا قدسيا ، فطيبة قلب دون كيخوتى ، والانسانية التى تنبعث من أحاديثه مع سانتشو ، والحركة الجميلة التى تقوم بها ماريتورنس وهى تقدم جرة الماء لهذا الأخير ، واللمســـات المؤثرة ، والحكمة المستمدة من آيات الانجيل ، والنبالة القشتالية ، والضحكة التى تحتفظ دائما بوقارها ، وأخيرا الطريقة التى يسمو بها سانتشو ودون كيخوتى شيئا فشيئا تحت بصر مؤلفهما ·· كل ذلك يخلق جوا حول هذه الرواية لا تكف الأجيال عن استنشاق عبيره الزكى » ·

خاتمـــة

لعل من الواجب علينا فى ختام بحثنا أن نوجز فى شمول ماعسى أن يكون قد أسهم فى الالماح اليه :

١ ـ عاش ميجل دى ثربانتس حياة كانت عبارة عنسلسلة من التشرد والتجوال والتعاسة والعذاب ٠٠ امتحنته فيها الأيام ٠٠ ويالها من أيام طويلة مملوءة بالشقاء ، حافلة بالآلام ، تجرع فيها مرارة الحزن الى أقصاها ، واصطلى نار الألم الى أشدها ، فصمد للمحن والخطوب ٠ والرواية لا نلمح فيها أشخاص عصره ومن قابلهم من شتى صـــنوف البشر فحسب ، بل ذكريات حياته الخاصة وطموحه وأحلامه وماعاناه من شـقاء وشـــظف العيش ٠ وربما أعانته كثرة أحلامه على احتمال آلامه ٠

ومن داخل أسوار السجن عندما بدأ يكتب رواية « دون كيخوتى » تذكر كل ذلك ٠٠ مع ما خاضه فى حياته من معارك ، فقد كان ثربانتس وطنيا متأجج الوطنية ، وفقد فى معركة ليبانتو البحرية اســتعمال يده اليسرى ، كما طاف بذهنه مامر به من محن ، ووقوع فى أسر القراصنة ذائقا ذل العبودية والاسترقاق ، ثم مرارة الفشل فى حياته الزوجية ، وما لقيه من متاعب عائلية ومالية ، ومن حسد أبناء مهنته من الكتاب (مثل لوبى دى بيجا ، وآبيانيدا) وكيدهم مما نغص عليه بعض حياته ٠

وكأنى بميجل دى ثرباتنس من خلال حياته المثيرة يقول لنا ينبغى أن نحتمل حياتنا فى شجاعة واصطبار لأن الحياة نفســـها كالموت قدر محتوم ٠

٢ ـ يرى البعض رواية « دون كيخوتى » قصة ســـاذجة ممتعة فيستمتع بها ،بينما يراها آخرون لغزا محيرا رغم اعتراف مؤلفها أنه انما أراد أن يهاجم قصص الفروســـية التى فتنت مواطنيه حتى أفقدتهم الاحساس بالواقع ٠ بيد أن قصص الفروسية كانت قد دالت دولتها من

قبل أن يؤلف ميجل دى ثربانتس رواية « دون كيخوتى » بل نشعر بها تحيى عصر الفروسية وتمجده رغم السخرية الظاهرية من عالم الفرسان، وجعلتنا نتعاطف مع دون كيخوتى ونتجاوب مع آماله وأهدافه النبيلة رغم قسوة ثربانتس عليه ·· مما دعانا الى البحث عن سبب آخر أكثر عمقا دفع ثربانتس الى تأليف روايته ·

ان ملامح الفارس تشبه الى حد كبير ملامح المؤلف الذى خلق هذه الشخصية ، فقد كان دون كيخوتى كما جاء فى بداية الرواية كهلا من نفس سن ميجل دى ثربانتس ، وكان له نفس المظهر والهيئة · وكذلك كان مثاليا متفائلا آلى على نفسه فى عناد واصرار أن يصلح العالم بقوة ذراعه ولكنه أخفق · ألم يكن ذلك معبرا عن وجهة نظر ثربانتس كما رأينا فى تاريخ حياته فى الباب الأول ؟ ولكن مهلا فان أوجه التشابه هذه تصاحبها أوجه اختلاف كثيرة · غير أن هذا هو ما ننتظره من الروائى حين يجعل بطله يتقمص شخصيته ·· فعندما يخلق الروائيون شخوصا تمثل أشياء عميقة فى نفوسهم فانهم يبدأون بتصوير شىء مختلف كثيرا · فالكاتب حين يرتدى الأقنعة يجد حرية فى التعبير عن نفسه ولا يستبعد أن رواية « دون كيخوتى » بجانب انسانيتها الآسرة ، استمدت روعتها من نبع آخر يكمن فيه سر قوتها هو ذلك الاسقاط الذى طرحه علينا ثربانتس كجزء من نفسه ، أى بعبارة أخرى ما أسقطه على بطله من نواياه وأهدافه النبيلة ، ومالاقاه من معاناة وفشل واحباط فى حياته · ولهذا السبب فان السخرية اللاذعة فى هذه الرواية لها وقع سخرية المؤلف من نفسه · وهى تفسر لنا أيضا ذلك العداء العجيب ضد بطله ، فهو كلما فكر فى الأذى الذى لحقه من جراء أوهامه ومثالياته ونبالة أهدافه كلما احس بمرارة العلقم فيتحامل على الشخصية التى تمثلها ويهاجمها ·

والرواية بهذا تعالج التحرر من الوهم ·· وهو من الموضوعات والأفكار الكلاسيكية فى الأدب الأسبانى ·· فآمال الأسبان وطموحاتهم فاقت امكانياتهم فصدمتهم الحياة · وهكذا كان ثربانتس وبطله فتخلى كلاهما فى النهاية عن أوهامه ·

ويبدو أنه كما اراد شكسبير أن يشعر الانجليز بانجليزيتهم بما ألفه عن تاريخهم من سلسلة مسرحياته عن ريتشارد الثانى والثالث ، وهنرى الرابع والخامس والسادس ، فكذلك استطاع ثربانتس أن يشعر الاسبان باسبانيتهم عن طريق « دون كيخوتى » ·· ذلك الفارس العبقرى النبيل الذى انفصل عن الواقع بخياله ·· فتتعالى نفسه وتتسامى الى الآفاق ثم يردها الواقع المتمثل فى سانتشو حيث يرتطم بالأرض ، ولكنه فى اصرار على المقاومة ، غير عابىء بالآلام والمصائب ، يعاود التحليق عاليا فى سماء المثالية ليعود فيرتطم من جديد بأرض الواقع الذى حجب عنه الخيال رؤية حدوده وطاقاته ·

وهكذا استطاع المؤلف فى براعة أن يقيم توازنا رائعا بين شخصيتى بطليه الرئيسيين فاستقامت له بذلك واقعية رائعة كان يحرص عليها ٠

وهذا التناقض الذى يظهر بين البطلين فى بداية الرواية يأخذ فى التلاشى ويحدث ما أسماه الأديب والمفكر الاسبانى المعروف سالبادور دى مادارياجا بتسنشب دون كيخوتى وتكوخت سانتشو وذلك يؤدى الى لحظات يكاد البطلان يبدوان فيها وقد تبادلا موقعيهما ٠ وهذا من أبدع ما وصل اليه فنان فى رسم شخوصه ٠

٣ ــ دون كيخوتى سيد نبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا ، مولع بالصيد ٠ لا يعمل شيئا طوال العام تقريبا ٠ انكب على قراءة كتب الفروســـية ، فلم يقنع بحياته الرتيبة ، وانطلق متحمسا ،كفارس جوال ، يعيش حياة مخالفة لتلك التى يحياها ٠

ويرجع خطأ دون كيخوتى ، اذا كان مافعله خطأ ، الى أنه اعتبر قصص الفروسية تاريخا أكثر منها خيالا روائيا ، فكان يعتقد مثلا أن أماديس الغالى قد عاش كما كان يوليوس قيصر أو الاسكندر عائشا ٠ ان كل شخص فى أسبانيا قرأ روايات الفروسية ، ولكن أحدا لم يعتقد ما أعتقده دون كيخوتى ،بل كانوا يرون أنها كتبت للتسلية ، وأنها تقرأ للاستمتاع بما فيها من هزل ، ولكن منطق صاحبنا افترض شيئا آخر ٠٠ فقد وصل الى نتيجة مختلفة ٠٠ ان حياة الفارس يجب أن تبعث وتعاش مرة أخرى ، فالعالم الآن قد أصبح من السوء كما كان فى زمن أماديس ٠

وهولم يعتقد أنه فارس ، ولكنه فكر فى أنه يمكن أن يصبح أحد هؤلاء الفرسان ٠ فآلى على نفسه أن يقوم بأعباء الفروســـية ومتاعبها مجابها الأخطار لاصلاح الأخطاء٠ وسار فى ذلك الســـبيل بخطى واعية عامدا متعمدا فى اصرار وعزم ٠ فسلح نفسه ببعض أسلحة قديمة ، وأطلق على حصانه اسم روثينانتى ، وسمى نفسه باسم دون كيخوتى ٠ ولم يكن له محبوبة فاختلق فى خياله واحدة أسماها دولثينيا ٠ ولو أنها لم تكن كلية من صنع الخيال ،فقد سبق أن راقت له ذات مرة فتاة من جيرانه تدعى آلدونثا لورينثو ٠ وعلى أية حال فانها كانت تفى بالغرض ، كما كفاه حصانه الأعجف الهزيل ، والأسلحة التى علاها الصدأ وكانت ملكا لأجداده ٠ وهكذا أصبح على أهبة الاستعداد لتقليد قدامى الفرسان ٠

خرج ثلاث خرجات ، ورجع مرةمن تلقاء نفسه ، ولكنه فى الثانية والثالثة أعاده الى منزله أشخاص من قريته اقتفوا أثره لهذا الغرض ٠ وكان فى كل مرة يرجع متعبا مكدودا منهوك القوى مثخنا بالجراح ، اذ أن ما يقوم به الفارس الجوال من مغامرات يكبده جهدا عنيفا ٠ وسرعان ما لزم الفراش بعد عودته الثالثة الى بيته ، وكتب وصـــيته ، واعترف بخطاياه ،وسلم بأن كل ما اقدم عليه كان ضلالا ثم مات ٠

وقد اعتقد كل شخص ،سواء من أهل بيته أو من خارجه ، انه اما أن يكون غريب الأطوار أو مجنونا • وهذا يقودنا الى التساؤل هل كان دون كيخوتى مجنونا أم عاقلا ؟!

لقد زادنا ثربانتس حيرة وشــكا فى الجزء الثانى من الرواية فى الفصل الثالث والأربعين عن تلاوة نصائح دون كيخوتى لسانتشو باذنا اذ يقول المؤلف :

« من ذا الذى يسمع أقوال دون كيخوتى هذا ولا يظنه امرءا حكيما مزودا بعقل كبير ؟ والواقع انه لم يكن يخرف ، كما رأينا مرارا فى هذا التاريخ الكبير ، الا حين يتعلق الأمر بالفروسية •• وفيما عدا ذلك كان يكشف عن عقل سليم ، وفكر نير •• حتى أن أفعاله كانت فى كل لحظة تكذب أقواله ، وأقواله تكذب افعاله • وفى تلاوة النصائح التى أسداها الى سانتشو كشف عن استقامة فى الحكم ووفرة فى العقل » •

ولنعاود قراءة الرواية علنا نجد اجابة عن سؤالنا • من النادر أن نجد دونكيخوتى وحده معنا ، لنرى ماذا سيكون عليه حاله اذا لم يكن محاطا بجماعة من النظارة • وهو اذا لم يكن معه احد ، فاننا سوف نجد سانتشو ملازما له • ولكن هاهو ذا سانتشو يتركه فى جبل « ســـيرا مورينا » ويمضى برسالته الى دولثينيا دل توبوسو • ما أشد دهشتنا عندما نكتشف ذلك الهدوء والسكون الواضـــح الذى حط على بطلنا ، واتسمت به تصرفاته وسلوكه ! انه لم يعد يتطرف كرجل مجنون •• فعندما اختلى بنفسه ، أصبح رصينا منضبطا مسيطرا على نفسه يتحلى بالهدوء والصفاء ، مستقلا بذاته •

ودون كيخوتى كفرد له أسراره الخاصة ، وصفاته المميزة ، فمثلا انه متواضع ، ولم يدع أيا من وصيفات وخادمات الدوقة تعاونه فى خلع ملابسه • لا أحد غير سانتشو يفعل ذلك • وعندما رحل الأخير ليحكم جزيرته رأى دون كيخوتى من واجبه أن يتولى ذلك بنفسه •

الا نستشف بعد هذا أننا أمام شخص سليم العقل يمضى معظم أيامه مستخفيا متنكرا فى اهاب رجل مخبول ؟!

نحن لا يسعنا الا القول بأن الرواية وشـــخصية دون كيخوتى قد أثارت فيضا من التعليقات والتفسيرات طوال ما يقرب من أربعة قرون • ومازالت رغم ذلك تحيرنا ، وتحفز تفكيرنا وتدفعنا الى التساؤل حتى الآن • وهذا يدلنا على مدى عبقرية كاتبها • وقد زاد الغموض الذى يكتنف الرواية من ثرائها ، وأكسبها تلك الهالة من المجد والخلود •• وكلما قرأناها استمتعنا بها • ولا أجد هنا ابلغ مما قاله الكاتب الفرنسى الكبير أندريه جيد من أن العمل الذى يستمتع به هو مايحتاج الى تفكير ، ويعاود قراءته عدة مرات •

٤ ــ عندما انطلق دون كيخوتى فوق صهوة جواده شاهرا رمحه فى يده ليقوم ما أعوج ، وليملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورا ، كان يهتف باسم دولثينيا دل توبوسو ، فقد كان يرى ضرورة أن يكون للفرسان الجوالة عرائس يقدمون لهن الحب • لقد عشقها عشقا عفيفا ، ولعله ارتجف فرقا من أن يقتل بين ذراعيه طهارة دولثينيا • لم يختلس النظر اليها سوى أربع مرات فقط طوال اثنا عشر عاما دون أن تلمح مرة واحدة أنه كان يتطلع اليها • وهأنتذا قدتجاوزت الخمسين من عمرك وظللت أسير سحرها ،ولم تستطع التغلب على حيائك النبيل ، فمزق هذا الحب المسكين ، الذى لم تدر هى به ، نفسك ، وكان ينبوع حنانك البطولى • وهكذا لم تعد دولثينيا امرأة بالنسبة اليك ، بل أضحت صورة للحب •• ذلك الحب الذى يجعل لحياة العائشين فى هذه الدنيا معنى •

٥ ــ لما كانت ملاهى شكسبير تكاد كلها تنتهى بالزواج ، فان الاعتقاد السائد أن هدف الملهاة هو تشجيع روح التفاؤل ، أو على الأقل بث المرح كما يقول ل • ج • بوتس فى كتابه عن الملهاة فى المســـرحية والقصة • ولكننا نجدأن ثربانتس رغم انتهاء روايته بموت بطله استطاع أن يثير ضحكنا دون أن تسف فكاهته الى التماس الاضحاك ، بل تقف عند الحد الذى يسيغه الذوق السليم ،فكانت الضحكة التى تحتفظ بوقارها • ولم يخرج كاتب مثل هذا القدر من البشر والمرح من ثنايا الشقاء والحرمان كما أخرج ثربانتس • وقصد من رواية « دون كيخوتى » أن تكون مرآة للمجتمع بكل عيوبه الاجتماعية والسياسية ، وما يعج به من رذائل ونفاق ودعاوى زائفة فى الآداب والأخلاق ، معالجا كل ذلك فى سخرية ليســت حــزينة ،بل بهجة ، تنظر الى العيوب والنقائص بترفق ، وتتردد بين البسمات والعبرات •

٦ ــ عندما تخفى سانسون كاراسكو أحد جيران دون كيخوتى فى زى فارس المرايا ثم فارس القمر الأبيض ، وانتصر على دون كيخوتى حكم عليه بأن يتخلى عن الفرسان الجوالة والعودة الى المنزل • وهناك مات دون كيخوتى معلنا أن الفرسان الجوالة هراء ، دون أن يدرك قط أنه شخصيا كان فارسا حقيقيا وسيدا نبيلا شهما شجاعا • وكأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشـــاعر الفارسى : « نحن أمواج أن تسترح تمت » •

مات دون كيخوتى بعد كفاح تعزى بنبل غايته عما لقيه من مصائب وآلام • مات بعد أن باء كفاحه بالفشل ولم يعد بقادر على استئناف حياة بليدة رتيبة كالتى يحياها الملايين من الخاملين • وسيبقى دون كيخوتى فى عقولنا رمزا للنبالة الساعية فى خير الانسانية والفناء فى سبيلها •• وستظل حياته درسا نتعلم منه أنه ليس من الضرورى أن نلقى نجاحا ماديا واقعيا لاصقا بالطين لنجاهد فى سبيل مثل عليا نؤمن بها ونفنى دونهـــا •

٧ ـ لقد ضحكت أسبانيا مع كاتبها ثربانتس من ذاتها حتى لا تجهش بالبكاء فى ساعات الاذلال والانحدار ، شاعرة بضرورة بعث الوطن من كبوته ، وأن ذلك لا يتم الا باقتباس مثالية دون كيخوتى وعطائه • واذا كان ميجل دى ثربانتس قد شجب الهوس الخيالى فى قصص الفروسية فى رواية « دون كيخوتى » ، الا أنه كما يقول الناقد الأسبانى الشهير آثورين لم يشجب أبدا ذلك الحب •• حب ماهو مثالى ، ولا ذلك الأمل ولا تلك البساطة ولا ذلك الاحترام ، ولا هذه الثقة بالنفس ولا تلك الأحلام التى يعجب بها عند فارسنا النبيل ، فكلها لازمة لانجاز المشاريع الجبارة للشعوب والأفراد •

وثربانتس يهاجم كتب الفروسية لأن أسلوبها مفتعل وكله تكلف وتعقيد ، وهو يرى أن يكون الأسلوب بسيطا وخاليا من الصنعة • كما أنه يأخذ على مادة هذه الكتب ما تحفل به من كذب وزيف ، ومافيها من خيال جامح ، ومواقف غير معقولة • وثربانتس يهتم بالصدق الأدبى ، والبعد عن الخوارق والتهاويل ، وأن يكون الأدب واقعيا قدر الامكان •• فقصص الفروسية فيها من المغامرات مالا يخطر على بال ، فهناك بطل يدعى أماديس دى جاولا كان يضرب القلعة الهائلة بسيفه فتنهار ترابا ، وآخر يدعى فيليثيانو دى سلفا حمل بيديه تلا وضرب به سفينة فى عرض البحر ، وثالث هو دون بليانس حارب وحده جيشا من عشرة آلاف مقاتل وهزمه اذ قتل خمسة آلاف منهم بسيفه ، فلما بلى السيف من كثرة الضرب حتى لم يبق فى يده الا مقبضه ، أمسك بشجرة ضخمة فانتزعها وقتل بها الخمسة آلاف الباقين !

وثربانتس يتطلع من خلال شخصية دون كيخوتى نحو هدم الايديولوجيات القديمة والعرف والمظاهر والأمجاد الزائفة حتى يبنى عالما يسود فيه الحب والشعر وانكار الذات ، والتحلى بالأخلاق الفاضلة ، والطهر والنقاء ، والنبالة التى تمد يد المساعدة للانسانية المعذبة • وثربانتس ليست لديه حلولا فلم يستطع أن يقترح حلولا ، حتى أن دون كيخوتى عندما تسلح وامتطى صهوة روثينانتى ترك له العنان اذ لم يكن يعرف الى أين يمضى •

وقد كتب ميجل دى ثربانتس روايته « دون كيخوتى » فى بساطة آخاذة ، ووضوح يمتاز بشفوفه وصدقه الهزاز ، مبتعدا عن الحذلقة فى استعمال التعبيرات المتقعرة والكلمات المهجورة ، معبرا عن الأحاسيس والعواطف من خلال التجربة • وجعل شخوصه يتكلمون ويعملون بالطريقة التى يعمل ويتحدث بها الناس • وقد وصف كل شخصية بنفس الاهتمام الموضوعى دون أن يحفل بالطبقة أو المركز والجاه • كل هذا كان يشكل علامة نحو التغير الثورى الذى حدث من اتجاهات الفنان ازاء العالم اذ لم يسبقه كاتب صور الناس كما هم فى الواقع •

كما لا ننسى أنه عرف المونولوج الداخلى وعلى سبيل المثال تلك الخواطر التى مرت فى رأس دون كيخوتى وهو ينظر الى جواربه المخروقة فى الفصل الرابع والأربعين من الجزء الثانى من الرواية ·

ودون كيخوتى رواية ايجابية فهى أول كتاب يحتضن كل مسالك الحياة وطرقها المتشعبة ·· وهكذا جاء مرآة للعصر وعاداته وتقاليده · ولكن ميجل ترك القارىء يكون رأيه فجاءت روايته نادرة زمانها ، وفريدة عصرها وأوانها · فنحن أمام رواية حديثة اذ أنه تحت الفكاهة ، وتحت قصة التجول والجرى والركض ، وتحت ما قدمته من انعكاس للحياة كما هى نجد أنها درست أيضا شيئا آخر : كل طبيعة الواقع والوهم · وهذا بشكل أو بآخر هو ما تعنى بدراسته كل رواية حديثة · واســتعماله للأســلوب الهزلى المرح بحذق وتفرد جعل من ثربانتس ، مؤلف دون كيخوتى ، عصريا الى الأبد ·

٨ ـ غير أننا نأخذ على ثربانتس فى روايته « دون كيخوتى » وجود بعض المصادفات المفتعلة ، والسهو والخطأ الذى ينشأ عنه أحيانا خلط بين الوقائع والأحداث كحادث سرقة حمار سانتشو ثم نراه رغم ذلك يظل يتحدث عن الحمار فى مواضع أخرى وكأنه لايزال فى حوزة سانتشو ·· ومثل قوله فى الفصل الثانى والأربعين من الجزء الأول من الرواية : « بدأ النهار ينحدر والليل يقبل ·· » ناسيا أن الليل قد أقبل من زمن طويل ، وأنهم تناولوا العشاء ، وأن الأسير قضى زمنا طويلا وهو يروى تاريخه الحافل ·

وكذلك المواعظ المتناثرة فى الرواية كان من الأوفق احــترام ذكاء القارىء ، وترك الحدث يتكلم عن نفسه ·

وفى أحيان أخرى نرى المؤلف يتدخل شخصيا فى بعض مواضــع الرواية ، وكان الأجدر أن يفصل شخصيته عن العمل الفنى ·

كما أن استباقه مقدما لما تسفر عنه بعض الأحداث يفقدها عنصر التشويق ، وذلك كقوله فى الفصل الثانى عشــر من الجزء الثانى من الرواية عن دون كيخوتى وفارس المرايا : « كان الحديث يجرى بينهما هكذا وهما جالسان الى جوار بعض على الأرض ، فى تفاهم جميل ، دون أن يقدرا أنه حين ينقشع الظلام سيكسر كل منهما رأس الآخر » ·

وقد راقنا ماجاء على لسان دون كيخوتى فى الفصل الثامن والخمسين من الجزء الثانى للرواية عندما قال : « ان ما يسميه العامة باسم الفأل والطيرة ، هو أمر لا يقوم على النظام الطبيعى للاشياء » حتى خلنا أن ثربانتس كان يفكر بالأسلوب العلمى ، اذ ربما اطلع على آراء جاليليو وأسلوبه التجريبى فى البحث ، بيد أننا رأيناه فى مواضع أخرى يتحدث عن

الجنيات والسحر والسحرة ، ويبدو أن ثربانتس قد اقتبس ذلك من فولكلور العصور الوسطى ٠

ومع ذلك نعود فنتدارك ما ذكرناه من مآخذ ٠٠ فمن التعسف أن ننظر الى ذلك العمل نظرة عصرية بعين رجل العلم الذى يعيش فى عصر الفضاء ، وانما يجب أن نعزل العمل الفنى ونقيمه فى حدود عصره ومقاييسه ٠وعلى سبيل المثال فالحديث عن السحر والسحرة وحكايات الجن كان مألوفا لدى الناس فى عصر شكسبير ، وحتى الشعراء مثل سبنسر احتفوا بالجنيات فى أشعارهم ٠

أما انتقاد ثربانتس لنفسه كقوله ان البعض يتهمه بفقدان الذاكرة (بخصوص حمار «سانتشو الذى سرق) فتدلنا على أنه لا يعيد قراءة ما سبق أن كتبه ٠

وعلى أية حال اننا لم نسق تلك المآخذ لنشوه صفاء السماء ، ولكن لأننا أحسسنا رغم ذلك أن فن ثربانتس شىء يفوق الواقع يذكرنا بذلك التشكيل المجسم الذى يمثل الماريشال ناى للمثال فرانسوا ريد ٠٠ فقد استخرج المثال العالمى رودان مالا يقل عن عشرة أخطاء فى هذا التمثال ، ولكنه مع ذلك يمتاز بصدقه الفنى المستمد من تلك الأخطاء نفسها ، بل ويبدو لنا طبيعيا أكثر من تلك الصورة الفوتوغرافية التى تلتقطها آلة تصوير شديدة الدقة والسرعة لضابط يقفز على قدم واحدة فى وضع سخيف يبدو خاطئا مبتورا رغم أنه وضع حقيقى ٠ وهذا يؤيد قول أرسطو : « ان الشعر أصدق من التاريخ » ، وبالتالى النحت أصدق من الصب القالبى ، والرسم أصدق من التصوير الفوتوغراق ٠

واذا انتقلنا الى ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوى فى ترجمته لرواية « دون كيخوتى » من أن الاضطرابات فى التواريخ كثيرة ، فاننا نرى أن ثربانتس لا تثريب عليه فهو فنان وليس مؤرخا ملتزما بوقائع التاريخ بأدق تفاصيلها ٠

٩ ــ تأثر كثير من الكتاب برواية « دون كيخوتى » مثل هنرى فيلدنج ، وتوبياس جورج سموليت ، ووالتر سكوت ، وتشارلز ديكنز فقد خرجوا من معطف ثربانتس ٠

١٠ ــ لم تؤثر رواية « دون كيخوتى » على الأدب فحسب ، ولكنها أثرت أيضا فى الفنون التشكيلية ، بل وأغرت كثيرا من المؤلفين الموسيقيين من مختلف القرون فوضعوا موسيقى موضوعات مستوحاة من تلك الرواية فى مختلف الأشكال الموسيقية من القصيد السيمفونى (ريتشارد شتراوس) الى موسيقى الباليه (مانويل فايا ، وبوامورتيير ، ولودفيج مينكوس وغيرهم) ، كما توالت العروض الأوبرالية التى شهدتها مختلف العواصم العالمية ٠

١١ ـ لفت أنظارنا ما قاله ثربانتس على لسان دون كيخوتى فى الفصل السادس عشر من الجزء الثانى للرواية :« ان الشاعر المطبوع ، الذى يستعين بالصنعة يفوق كثيرا من لا يعرف الا الصنعة ، لأن الصنعة لا تفوق الطبيعة ، وهكذا بمزج الطبيعة بالصنعة ، والصنعة بالطبيعة يخرج الشاعر كاملا » • وكأنى هنا أسمع ما قاله الشاعر اللاتينى الكبير هوراس فى كتابه « فن الشعر » عن الصناعة والالهام : « لست أتبين ما يستطيع التحصيل أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية أو الموهبة الفطرية من غير التحصـيل • ان أحدهما ليلح فى طلب الآخر ويعاهده على صداقة باقية • فمن كان مطمعه بلوغ الهدف المنشود فقد عانى الكثير فى صباه ، وارتعد وتصبب عرقه ، وحرم نفسـه الحب والخمر » •

وهذا ينطبق على ميجـل دى ثربانتس الذى لم يكتف بمـوهبته الشخصية فقبع ساكنا منتظرا الالهام يسقط عليه من ربات الشعر ! ، بل لقد عانى الكثير فى صباه وتصبب عرقه كى يصـقل مواهبه وهو الذى حدثنا أنه منذ صغره لم يكن يعثر على قصاصة ورق الا ويقرأ مافيها ، وقد بذل ثربانتس جهدا شخصيا متصلا فى تثقيف نفسه ، وفى الاطلاع على مختلف الآثار الأدبية واغترف من الحضـارتين الاغـريقية والرومانية الكثير ، وحصل على ثقافة عريضة تطل علينا بوضوح من روايته « دون كيخوتى » فقد أشار على سبيل المثال ، الى هوميروس ، وفرجيليوس ، وبلوتارخس ، وسيزيف ، وبروميثيوس ، وميديا ، ونيبتون ، وهكتور ، وأخيليس ، وطروادة التى يرجع فضل شهرتها الى هيلانة الجميلة التى اختطفها الضيف الجسور من منيلاوس ، وأفلاطون ورأيه فى الشعراء • ولم يقصر اطلاعه على الآثار الأدبية فحسب ، بل تجاوزها الى شتى أنواع المعارف كما نتبين ذلك من ذكره لكتاب « الحشائش » الذى ترجمه الدكتور لاجونا من اليونانية الى الاسـبانية • كما اطلع على مؤلفات توماس الأكوينى فى الفلسفة والأخلاق والدين وماوراء الطبيعة ، وهو راهب زاهد متقشف ، كان يجوب ايطاليا على صهوة بغله ، ذائدا عن الدين بقوة براهينه الفلسفية ، مدافعا عن القيم والمثل السوامق ، وربما كانت لهذه الشخصية أثرها كأحد المنابع التى أسهمت فى الهام ثربانتس عندما أبدع شخصية دون كيخوتى •

* * *

المراجـع

أولا : النص

(أ) النص باللغة الاسبانية

* Cervantes : El ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha; Edición y Notas De Francisco Rodríguez, Marin, Madrid, 1950.

* Saavedra, Miguel de Cervantes : El ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha, con la Vida de Cervantes por D.M.F. Navarrete. Paris, 1845 (Coleccíon de los mejores autores españoles vol. I).

(ب) النص باللغة الانجليزية

* Cervantes, Miguel de ; Don Quixote, translation by Peter Motteux, introduction by Herschel Brickell, New York, 1930.

* Cervantes, Miguel de : The History of Don Quixote de la Mancha, translated by John Ormsby, Chicago, London, Toronto, 1952.

(جـ) النص باللغة الفرنسية

* Cervantes, Michel de : Histoire de Don Quichotte De La Manche, Traduite de l'espagnol par Filleau de Saint-Martin, Paris, 1947.

* Saavedra, Miguel de Cervantes : L'ingenieux Hidalgo Don Quichotte de la Manche, traduite et annotée par Louis Viardot, Paris.

(د) النص مترجم

* ميجل دى ثربانتس : دون كيخوتى ، جـــزءان ، ترجمة : د ، عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٦٥ ،

* ميجل دى ثربانتس سافدرا : الســـيد العبقرى دون كيخوته دى لامانتشا ـــ ترجمة : د ، عبد العزيز الأهوانى ، القاهرة ١٩٥٧ ،

ثانيا : الدراســـــات

(أ) دراسات باللغة الاسبانية

* Cervantes, M. De : El Licenciado Vidriera y El Coloquio de Los Perros, Edición, estudio y notas por Francisco Esteve Barba, Zaragoza, 1964.

* Cervantes, M. De : Los Trabajos de Persiles y Sigismunda, Selección, estudio y notas por Nicolas Gonzales Ruiz, Zaragoza, 1962.

* López, Jose García : Literaturas Hispanicas, Barcelona, 1965.

* Prat, Angel Valbuena : Historia De La Literatura Española, Tomo 3, Barcelona, 1963.

* Rueda, Lope de y Cervantes, M. De : Pasos y Entremeses. Edición, estudio y notas por Jose Manuel Blacua, Zaragoza, 1963.

* Vega, Garcilaso De la : Poesías, Madrid — Barcelona.

* ESPANA 81, Año IX, Marzo 1981.

(ب) دراسات باللغة الانجليزية

* Altamira, Rafael : A history of Spain, translated by Muna Lee, New York, 1949.
* Busoni, Rafaello : The Man who was Don Quixote, U.S.A , 1958.
* Castiglioni, Arturo : A History of Medicine, translated from the Italian by E.B. Krumbhaar, New York, 1947.
* Clark, H. Barrett : World Drama, Vol. 2 (20 Unabridged Plays) New York, 1933.
* Creasy, Edward S. : History of the Ottoman Turks. Beirut, 1961.
* Davies, R. Trevor : The Golden century of Spain 1501 — 1621.
* Doren, Mark van :Don Quixote's profession, New York, 1958.
* Eagle, Dorothy : The concise Oxford Dictionary of English Literature, Oxford, 1977.
* Encyclopedia Americana.
* Encyclopedia Britannica.
* Ewen, David : Encyclopedia of the Opera, New York, 1955.
* Garland, Joseph : The Story of Medicine, Boston, 1949.
* Harvey, Sir Paul : The Oxford Companion to English Literature, London, 1953.
* Heiney, Donald and Downs, H. Lenthiel : Continental European Literature, New York, 1974.

* Josephson, Leonard and others : Encyclopedia of World Drama, New York 1972, Vol. 1.

* Kirkpatrick, F.A. : The Spanish conquistadors, London, 1946.

* Magill, Frank N. : Cyclopedia of Literary Characters, New York, 1963.

* Montross, Lynn : War through the Ages, New York, 1960.

* Nelson, Lowry : Cervantes, A Collection of Critical Essays, New Jersey, 1969.

* Scotte, George Ryley : The History of Torture throughout the ages, London, 1949.

* Smith, Horatio : A Dictionary of Modern European Literature, New York, 1947.

* Steinberg, S.H. : Cassell's Encyclopedia of Literature, London, 1953.

* Thomas, Henry and Thomas, Dana Lee : Living Biographies of Famous Novelists, New York, 1946.

* World Book Encyclopedia.

(جـ) دراسات باللغة الفرنسية

* Grand Larousse encyclopédique.
* Rochel, Clément : Cervantes inédit, Paris, 1903.

(د) دراسات باللغة الألمانية

* Krywalski, Diether : Knaurs Lexikon der Welt-Literatur, München/Zürich, 1979.

(هـ) دراسات أجنبية مترجمة

* برتون راسكو : عمالقة الأدب ٣ أجزاء – ترجمة : دريني خشبة ، القاهرة ١٩٦١ .

* جورج كروترز : حول مائدة المعرفة ، النساء فى الأدب ، ترجمة : جلال مظهر ، القاهرة – نيويورك ١٩٦١ .

* خوليو كورتيس : دون كيخوتى فى القرن العشرين – مختارات من مقالات أسبانية – ترجمة : د . خوليو كورتيس ود . محمد صبح ، مدريد ١٩٦٨ .

* روبرت بروستاين : المسرح الثورى – ترجمة عبد الحليم البشلاوى (بلا تاريخ) .

* ل . ج . بوتس : الملهاة فى المسرحية والقصة – ترجمة : ادوار حليم ،القاهرة ١٩٦٥ .

* هوارس : فن الشعر – ترجمة : د . لويس عوض ، القاهرة ١٩٧٠ .

(و) دراسات باللغة العربية

* د . حسين مؤنس : كتب وكتاب – الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٩ .

* د . عبد العزيز الأهوانى : دون كيخوته (لسرفنتيس) العدد ٢ من المجلد الثالث من سلسلة تراث الانسانية ، القاهرة ١٩٦٥ .

* د . محمد مندور : نماذج بشرية ، القاهرة ١٩٦١ .

* الموسوعة العربية الميسرة .

للمؤلف

١ ـ **الكيمياء فى خدمة المجتمع**
لجنة البيان العربى ١٩٥٦ ٠

٢ ـ **الطاقة الذرية**
لجنة البيان العربى ١٩٥٦

٣ ـ **طرائف ومداعبات علمية**
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧

٤ ـ **دنيا الدم**
لجنة البيان العربى ١٩٥٨ ٠

٥ ـ **الأصبع أو الزمن ينصرم**
من سلسلة روايات عالمية ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ ٠

٦ ـ **أيها الخادم الطيب المخلص**
من سلسلة روايات عالمية ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ ٠

٧ ـ **سآخذ بثأرى**
من سلسلة روايات عالمية ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٩

٨ ـ **الدوامة**
الهيئة العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠ ٠
وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ٠

٩ ـ **العاصفة**
العدد ٢٩٩ من روايات الهلال نوفمبر ١٩٧٣ ٠

١٠ ـ **ليال لا تنسى**
العدد ٣١٧ من روايات الهلال مايو ١٩٧٥

١١ ـ **المسحوق السحرى ومسرحيات أخرى**
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ ·

١٢ ـ **جسر بنات يعقوب**
من سلسلة الابداع العربى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ ·

١٣ ـ **دانتى والكوميديا الالهية**
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧

١٤ ـ **اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى**
من الألف كتاب (الثانى) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ ·

١٥ ـ **الزوجة الأولى**
من سلسلة الرواية العربية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ ·

١٦ ـ **الغلطة الوحيدة ـ صوت من الفضاء**
مسرحيتان علميتان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ ·

١٧ ـ **دون كيشوت بين الوهم والحقيقة**
من سلسلة دراسات أدبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٩ ·

الفهـرس

الباب الثانى
دراسة تحليلية لنص الرواية

رقم الايداع ٨٩/٧٠٣٨

الترقيم الدولى ٧ ـ ٢٢٢٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

● ● لم تحظ شخصية روائية بالخلود مثلما حظيت شخصية دون كيخوتى التى أبدعها ميجل دى ثربانتس ، نابغة أسبانيا وبديعها .

ويقدم هذا الكتاب دراسة تحليلية نقدية لنص الرواية متناولاً العناصر الرئيسية لها ، وشخصياتها حتى يعيد تنظيم الجو النفسى والروحى الذى صيغ فيه هذا العمل ليكتسب أبعاداً واضحة ، ويصبح فى الإمكان تقدير الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

كما يتناول البحث مؤلف هذا العمل الفريد وعصره وظروفه إذ لم يكتب فى مصر عن حياة ميجل دى ثربانتس إلا النزر اليسير .. بضع صفحات هنا وهناك مع أننا ندين له بامتع روايتين اتحفنا بهما فى تاريخ الأدب .

أولاها .. حياة دون كيخوتى الغريبة العجيبة ، وثانيتهما .. حياة مؤلفها التى تضارع حياة بطله دون كيخوتى إن لم تكن قد فاقته فى غرابتها . ولكن لماذا طغت عليه شخصية بطله ؟ وهل ثمة علاقة بينهما ؟ ويستمر البحث لاكتشاف سر دون كيخوتى المحير ! هل هو شخصية لا وجود لها إلا فى خيال مؤلفه ؟ أم تراه قد صادف دون كيخوتى وعرفه فى الحياة الواقعية فى مكان ما ؟ هذا ما سيمضى فيه البحث قدماً لإماطة اللثام عنه .

٢٣٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب